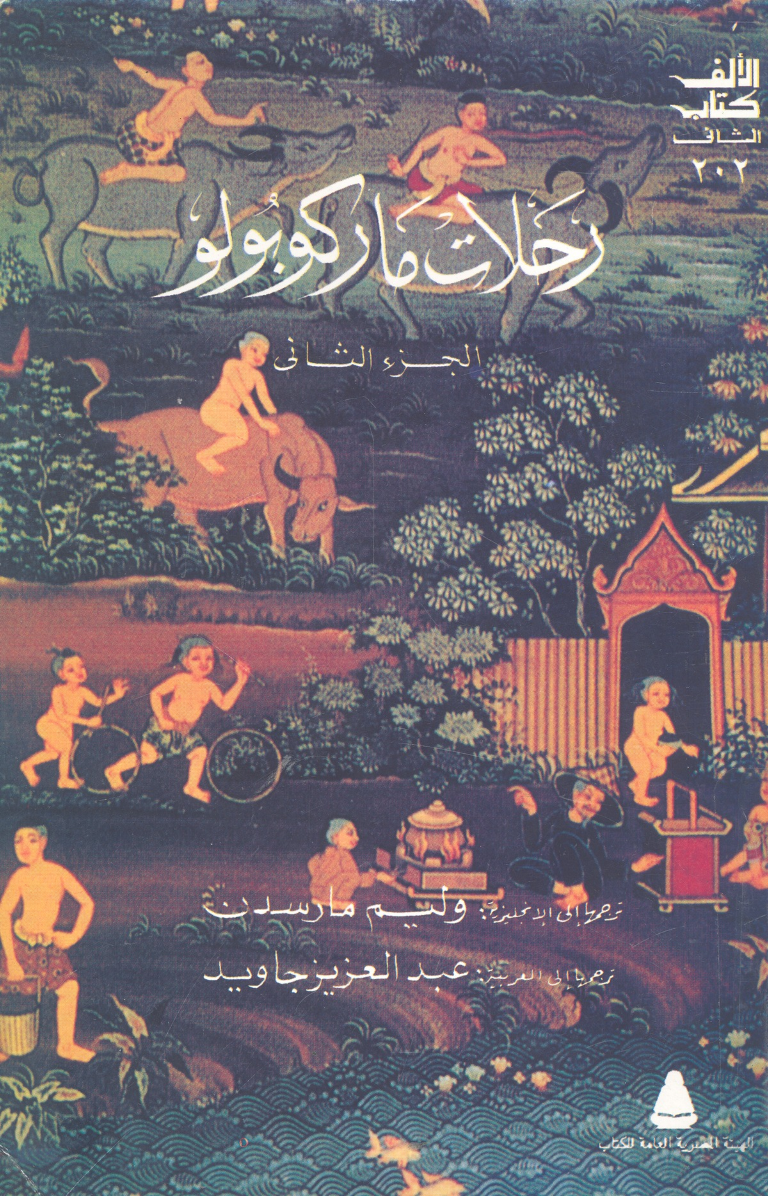


الألف كتاب
الثانى
٢٠٢
رحلات ماركوبولو
الجزء الثانى
ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن
ترجمها إلى العربية: عبد العزيز جاويد
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رحلات ماركو بولو

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

لمياء محرم

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

رحلات ماركو بولو

ترجمها إلى الإنجليزية

وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية

عبد العزيز جاويد

الجزء الثاني



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	١١
الفصل الثانى	١٨
الفصل الثالث	٢١
الفصل الرابع	٢٣
الفصل الخامس	٢٦
الفصل السادس	٢٧
الفصل السابع	٣٢
الفصل الثامن	٣٦
الفصل التاسع	٤٢
الفصل العاشر	٤٣
الفصل الحادى عشر	٤٧
الفصل الثانى عشر	٤٩
الفصل الثالث عشر	٥٢
الفصل الرابع عشر	٥٣
الفصل الخامس عشر	٥٤
الفصل السادس عشر	٥٦
الفصل السابع عشر	٦٢
الفصل الثامن عشر	٦٤
الفصل التاسع عشر	٦٧
الفصل العشرون	٦٩
الفصل الحادى والعشرون	٧٥
الفصل الثانى والعشرون	٧٧

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثالث والعشرون	٧٨
الفصل الرابع والعشرون	٨٠
الفصل الخامس والعشرون	٨٢
الفصل السادس والعشرون	٨٤
الفصل السابع والعشرون	٨٧
الفصل الثامن والعشرون	٨٩
الفصل التاسع والعشرون	٩١
الفصل الثلاثون	٩٢
الفصل الحادى والثلاثون	٩٣
الفصل الثانى والثلاثون	٩٥
الفصل الثالث والثلاثون	٩٦
الفصل الرابع والثلاثون	٩٧
الفصل الخامس والثلاثون	٩٩
الفصل السادس والثلاثون	١٠١
الفصل السابع والثلاثون	١٠٤
الفصل الثامن والثلاثون	١٠٩
الفصل التاسع والثلاثون	١١٣
الفصل الأربعون	١١٥
الفصل الحادى والأربعون	١١٩
الفصل الثانى والأربعون	١٢٤
الفصل الثالث والأربعون	١٣٠
الفصل الرابع والأربعون	١٣١
الفصل الخامس والأربعون	١٣٣
الفصل السادس والأربعون	١٣٤
الفصل السابع والأربعون	١٣٥
الفصل الثامن والأربعون	١٣٦
الفصل التاسع والأربعون	١٣٧
الفصل الخمسون	١٤٠

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادى والخمسون	١٤١
الفصل الثانى والخمسون	١٤٢
الفصل الثالث والخمسون	١٤٤
الفصل الرابع والخمسون	١٤٦
الفصل الخامس والخمسون	١٤٨
الفصل السادس والخمسون	١٥٢
الفصل السابع والخمسون	١٥٣
الفصل الثامن والخمسون	١٥٤
الفصل التاسع والخمسون	١٥٥
الفصل الستون	١٥٦
الفصل الحادى والستون	١٥٧
الفصل الثانى والستون	١٥٨
الفصل الثالث والستون	١٦٠
الفصل الرابع والستون	١٦٢
الفصل الخامس والستون	١٦٣
الفصل السادس والستون	١٦٤
الفصل السابع والستون	١٦٦
الفصل الثامن والستون	١٦٨
الفصل التاسع والستون	١٨٨
الفصل السبعون	١٩٠
الفصل الحادى والسبعون	١٩١
الفصل الثانى والسبعون	١٩٢
الفصل الثالث والسبعون	١٩٣
الفصل الرابع والسبعون	١٩٥
الفصل الخامس والسبعون	١٩٦
الفصل السادس والسبعون	١٩٧
الفصل السابع والسبعون	١٩٨

الموضـــــوع	الصفحة

هوامش الجزء الثانى	٢٠٣
هوامش الفصل الأول	٢٠٥
هوامش الفصل الثانى	٢٠٨
هوامش الفصـــل الثالث	٢٠٩
هوامش الفصل الرابع	٢١١
هوامش الفصل الخامس	٢١٣
هوامش الفصل السادس	٢١٤
هوامش الفصـــل السابع	٢١٧
هوامش الفصل الثامن	٢٢٢
هوامش الفصـــل التاسع	٢٢٤
هوامش الفصـــل العاشر	٢٢٥
هوامش الفصـــل الحادى عشر	٢٢٨
هوامش الفصل الثانى عشر	٢٣٠
هوامش الفصـــل الثالث عشر	٢٣٤
هوامش الفصـــل الرابع عشر	٢٣٥
هوامش الفصل الخامس عشر	٢٣٦
هوامش الفصل السادس عشر	٣٧٠
هوامش الفصـــل السابع عشر	٢٤٠
هوامش الفصل الثامن عشر	٢٤١
هوامش الفصل التاسع عشر	٢٤٤
هوامش الفصل العشرين	٢٤٦
هوامش الفصـــل الحادى والعشرين	٢٤٩
هوامش الفصـــل الثانى والعشرين	٢٥٠
هوامش الفصل الثالث والعشرين	٢٥١
هوامش الفصل الرابـع والعشرين	٢٥٢
هوامش الفصل الخامس والعشرين	٢٥٣
هوامش الفصل السادس والعشرين	٢٥٥
هوامش الفصل الســابع والعشرين	٢٥٧

الموضـــوع	الصفحة
هوامش الفصل الثامن والعشرين	٢٥٩
هوامش الفصل التاسع والعشرين	٢٦١
هوامش الفصـــل الثلاثين	٢٦٢
هوامش الفصل الحادى والثلاثين	٢٦٣
هوامش الفصل الثانى والثلاثين	٢٦٥
هوامش الفصل الثـالث والثلاثين	٢٦٦
هوامش الفصـــل الرابع والثلاثين	٢٦٧
هوامش الفصـــل الخامس والثلاثين	٢٦٨
هوامش الفصل السادس والثلاثين	٢٦٩
هوامش الفصل السابع والثلاثين	٢٧١
هوامش الفصل الثامن والثلاثين	٢٧٤
هومش الفصل التاسع والثلاثين	٢٧٦
هوامش الفصـــل الأربعين	٢٧٩
هوامش الفصـــل الحادى والأربعين	٢٨١
هوامش الفصل الثانى والأربعين	٢٨٣
هوامش الفصـــل الثالث والأربعين	٢٨٤
هوامش الفصل الرابـــع والأربعين	٢٨٦
هوامش الفصل الخامس والأربعين	٢٨٨
هوامش الفصل السادس والأربعين	٢٩٠
هوامش الفصل الســابع والأربعين	٢٩١
هوامش الفصـــل الثامن والأربعين	٢٩٢
هوامش الفصل التاســـع والأربعين	٢٩٣
هوامش الفصل الخمسين	٢٩٧
هوامش الفصل الحادى والخمسين	٢٩٨
هوامش الفصـــل الثانى والخمسين	٢٩٩
هوامش الفصـــل الثالث والخمسين	٣٠٠
هوامش الفصـــل الرابع والخمسين	٣٠٢
هوامش الفصل الخامس والخمسين	٣٠٣

الموضوع	الصفحة
هوامش الفصل السادس والخمسين	٣٠٦
هوامش الفصل السابع والخمسين	٣٠٧
هوامش الفصل الثامن والخمسين	٣٠٨
هوامش الفصل التاسع والخمسين	٣٠٩
هوامش الفصل الستين	٣١٠
هوامش الفصل الحادى الستين	٣١١
هوامش الفصل الثانى والستين	٣١٢
هوامش الفصل الثالث والستين	٣١٤
هوامش الفصل الرابع والستين	٣١٦
هوامش الفصل الخامس والستين	٣١٧
هوامش الفصل السادس والستين	٣١٨
هوامش الفصل السابع والستين	٣١٩
هوامش الفصل الثامن والستين	٣٢١
هوامش الفصل التاسع والستين	٣٢٣
هوامش الفصل السبعين	٣٢٤
هوامش الفصل الحادى والسبعين	٣٢٥
هوامش الفصل الثانى والسبعين	٣٢٦
هوامش الفصل الثالث والسبعين	٣٢٧
هوامش الفصل الرابع والسبعين	٣٢٨
هوامش الفصل الخامس والسبعين	٣٢٩
هوامش الفصل السادس والسبعين	٣٤٠
هوامش الفصل السابع والسبعين	٣٤١

الفصـــل الأول

عن الأعمال العجيبـة لقبـــلاى خا آن ، الامبراطور المتربع الآن فى الحكم ـ وعن المعركة التى خاضها على نايان عمه ، وعن النصر الذى أحرزه ٠

خطتنا فى هذا الكتاب أن نعالج جميع المنجزات العظيمة الآن فى دست الأحـكام ، والذى يدعى قبـلاى كاآن ـــــ وتنطـوى الكلمـة الأخـيرة فى لغتنا ضمنا عـلى معنى أمير الجديرة بالاعجاب التى أنجزها الخان الأعظم الذى يتربع الأمراء (١) ، وهو لقب يضاف الى اسمه مع مزيد الجـدارة وذلك لأنه من حيث عـدد الرعايا ، واتســاع الممتلكات ، ومقدار الدخل ، يفـوق كل مليك ظهـر حتى الآن أو يعيش اليوم فى هذه الدنيا ، وكذلك لم يخدم أى واحد آخر خلافه بمثل الطاعة التامة التى يكنها له من يحكمهم وسيتضح ذلك وضوحا بالغا فى سياق عملنا هذا ، بحيث يقنع كل انســان يصدق ما نقرره ٠

وينبغى أن يكون مفهوما أن قبلاى كاآن ، هو الســليل الشرعى المنحدر من صلب جنجيزخان الامبراطور الأول ، كما أنه عاهل التتـار الشرعى ٠ وهـو الخـان الســادس فى الترتيب (٢) ، وبدأ حكمه فى عام ١٢٥٦ (٣) فحصل عـلى العاهلية بما أبداه من شجاعة لا حد لها وما تحلى به من فضائل وحكمة ، فى معارضته لخطط اخوته ، بتأييد كثير من كبـار

الضباط وأعضاء أسرته • ولكن توليــه العرش كان حقــا
شرعيا له (٤) • وانقضت اثنتان واربعون سنه منذ ان بدأ
حكمه الى عامنا هذا ، ١٢٨٨ ، وسـنه الآن خمس وثمانون
سنة كاملة • وقد عمل متطوعا فى الجيش قبل توليه العرش ،
وحاول أن يكون له نصيب من كل مغامرة • ذلك أنه لم يكن
فحسب شجاعا مقداما فى القتال ، ولكنه كان يعد فى شـئون
الحكمة والعدالة والمهارة العسكرية ، أكفأ وأنجح قائد قاد
التتار ــ الدهر كله ــ فى معركة • ومع هذا ، فانه كف منذ
تلك المدة عن خوض غمار القتال بنفسه (٥) ووكل قيــادة
حمــلاته الى أبنــائه وقواده ، الا فى حالة واحــدة ، جاءت
مناسبتها على النحو التالى : فان أميرا معينا اسمه نايان ، كان
من أقرباء قبلاى (٦) وورث وان لم يتجاوز الثلاثين من عمره
السيادة على مدن وولايات كثيرة وهو أمر مكنه من أن يبرز
الى ميدان القتال جيشا عدته أربعمائة ألف فارس• ومع هذا
فان أسلافه كانوا اتباعا اقطاعيين للخان الاعظم (٧) ودفعــه
غرور الشباب منذ وجد نفسه على رأس هذه القوة الجبارة ،
فأخذ يدبر فى نفسه فى عام ١٢٨٦ خطة نبــذ ولائه للمليكه
واغتصاب الملك • وتمشيا مع هذه الخطة أرسل رسله سرا الى
قايدو ، وهو أمير قوى آخر ، كانت ممتلكاته تقــع بجــوار
تركيا الكبرى (٨) ــ ومع أنه ابن أخ للخان الأعظم الا أنه
كان فى تمرد عليه ويحمل له فى نفسه ضغنا مقيما ، يرجع
الى خوفه من عقوبته على جرائر سابقة اقترفها • ومن ثم فان
مقترحات نايان كانت مرضية الى أقصى حد لقايدو ، ووفقا
لذلك وعد أن يقدم مساعدة له ، جيشا مؤلفا من مائة ألف
فارس • وعلى الفور شرع الأميران كلاهما يجمعان قواتهما ،
ولكن ذلك أمر لم يكن فى الامكان تنفيذه سرا بحيث لا يصل
الى علم قبلاى الذى لم يضع وقتا عند سـماعه بتجهيزاتهما
وسارع الى احتلال جميع الممرات المـؤدية الى اقليمى نايان
وقايدو ، لكى يمنعهما من الحصــول على أية معلومات تتعلق
بالاجراءات التى كان يتخذها هو نفسه • ثم أصدر الأوامر

بأن تحشد بأقصى سرعة ، جميع القوات الموجودة على مسيرة عشرة ايام من مدينة كامبالو • وبلغت عدة هذه القوة ثلاث مائة وستين ألف فارس ، أضيف اليها جيش من المشاة عدته مائة ألف راجل، يتألف ممن كانوا فى العادةيحيطون بشخصه، وبخاصة متصقريه وخدمه (٩) ولم تنقض عشرون يوما حتى كان الجميع فى استعداد تام • ولو انه حشد الجيوش المعدة للحماية الدائمة لمختلف ولايات كاثاى ، لاقتضاه ذلك بالضرورة ثلاثين أو اربعين يوما ، وهى مدة كانت كفيلة بتسرب انباء استعداداته الى العدو ، وتمكين الأميرين من اجراء الاتصال بين قواتهما ، واحتلال المواقع الحصينه التى تلائم خططهما • وكان هدفه ، أن يتمكن بسرعة المبادرة ، التى هى على الدوام قرين النصر المبين ، من أن يحبط مقدما تجهيزات نايان ، حتى اذا تم له الانقضاض عليه وهو بمفرده ، دمر قوته بيقين وتأثير أشد مما كان يحدث بعد انضمام قايدو اليه •

وربما كان من الصواب هنا أن نلاحظ ، ونحن نتحدث فى موضوع جيوش الخان الأعظم ، أنه كان يوجد هناك فى كل ولاية من ولايات كاثاى ومانجى (١٠) ، فضلا أن أجزاء أخرى فى مملكته ، أشخاص كثيرون عرفوا بالخيانة والتحريض على الفتنة ، ممن كانوا على استعداد فى جميع الأحوال للانشقاق عن مولاهم الملك (١١) ووفقا لذلك أصبح من الضرورى الاحتفاظ بالجيوش بكل ولاية تحتوى مدنا كبيرة وعددا ضخما من السكان ، تعسكر على مبعدة أربعة أو خمسة أميال من تلك المدن وتستطيع دخولها متى تشاء • وقد جرت عادة الخان الأعظم بأن يغير هذه الجيوش سنة بعد أخرى ، وكذلك كان يفعل بالضباط الذين يقودونها • وبفضل هذه الاحتياطات ، الوقائية ، يرغم الناس على التزام الخضوع والهدوء ، ولا يمكن محاولة أى تحريك أو تحديد مهما كان نوعه ولا ينفق على الجيوش

فحسب من الأعطيات التى يتلقونها من الايرادات الامبرطورية للولاية ، وانما أيضا من الماشية ولبنها، وهى أنعام يملكونها شخصيا ، ويرسلونها الى المدن لتباع ، ليتزودوا فى مقابل ذلك بما يحتاجون اليه من سلع (١٢) • وبهذه الطريقة يوزعون فى البلاد ، بأماكن مختلفة ، على مسافة مسيرة ثلاثين يوما أو أربعين بل حتى ستين يوما • فلو أنه تيسر حشد ، حتى نصف هذه الفيالق بمكان واحد ، فان بيان عددها سيبدو مثيرا للدهشة لا يمكن تصديقه •

قسم ٢ ــ حتى اذا شكل الخان الأعظم جيشه على الشاكلة الموصوفه أنفا ، تقدم نحو ممتلكات نايان ، وتمكن بالزحف الشاق المتواصل ليلا ونهارا ، من بلوغها بعد انقضاء خمسة وعشرين يوما • وبلغ من احكام تدبير الحملة ، فى الحين نفسه ، ببالغ الحصافة ، أن لم يتنبه اليها ذلك الأمير ولا أى واحد من أتباعه ، حيث جرت حراسة الطرقات جميعا بطريقة جعلت كل شخص يحاول المرور لا يفلت من الاسر • وعند الوصول الى سلسلة تلال معينة ، يقع فى الجانب الآخر منها السهل الذى يعسكر فيه جيش نايان ، أوقف قبلاى جيوشه ومنحها يومين للراحة • وفى أثناء تلك المدة دعا منجميه ليتأكد له بواسطة فنهم ، وليعلنوا بحضرة الجيش كله ، أى الفريقين سيكون النصر حليفه • فأعلنوا أن النصر سيكون من نصيب قبلاى وكان من دأب الخانات المظام على الدوام ، الاستعانة بالنبوءات بقصد بث روح عالية فى رجالهم والآن وقد أيقنوا بالنجاح ، فانهم صعدوا التل بسرعة فى اليوم التالى ووقفوا وجها لوجه أمام جيش نايان ، الذى وجدوه متخذا موقفا يتجلى فيه الاهمال ، مجردا من قوات متقدمة أو استطلاعية ، بينما كان الأمير نفسه نائما فى خيمته تصحبه احدى زوجاته • فلما استيقظ ، سارع الى تشكيل جنوده على أحسن وجه أمكن أن تسمح به الظروف ، وهو يتفجع من أن اتصاله بقايدو لم يتم قبل ذلك • واتخذ قبلاى موقعه فى

قلعة خشبية ، محمولة فوق ظهور أربعة أفيال (١٣)، تحمي أجسامها أغطيــة من الجلد الغليظ الذى أكسب الصــلابة بالنار ، والذى أسبلت عليه أستار من قماش الذهب • وكانت القلعة تضم كثيرا من حملة القوس والنشاب ورماة السهام ، وقد رفع على قمتها العلم الامبراطورى ، المحلى بصور الشمس والقمــر • فأما جيشــه الذى يتالف من ثلاثين كتيبــة من الفرسان ، تحوى كل كتيبة عشرة آلاف رجل، مسلحة بالقسي، فانه نظمه فى ثلاث فرق لجبــة (ضخمة) ، فأما الفرقتان اللتــان شــكلتا الجنــاحين الأيمن والأيسر ، فانه بسطهما بطريقه تمكنهما من الالتفاف حول جيش نايان • وجعل امام كل كتيبة من الفرسان ، خمسمائة من جند المشاة ، مسلحين بالمزاريق القصار والسيوف ، وهم قوم دربوا على الركوب وراء الخيالة ومرافقتهم كلما شرعوا فى القتال، ثم يترجلون ثانية حيث يعودون الى الهجوم ويقتلــون بمزاريقهم خيــل الأعداء • وما ان تمت ترتيبات المعركة حتى نفخ فى عدد لا يحصى من آلات النفخ من كافة الأنواع ، وأعقبها انشــاد الأناشيد ، وفق عادة التتار قبل خوض القتال الذى يبدأ عند صدور الاشارة من الصنوج والطبول ، وكان من دق الصنوج والطبــول ، ومن الغناء ما يدهش المرء لسـماعه • وبأمر الخان الاعظم ، اعطيت تلك الاشارة اولا للجناحين الايمن والايسر ، وعندئذ بدأ قتال عنيف ودموي • فامتلأ الجو على الفور بغمامة من السهام تساقطت منهمرة فى كل ناحيــة ، وشوهدت أعداد هولة من الرجال والخيول تسقط صرعى الى الأرض • وبلغ من شدة ارتفاع صيحات الرجال وصرخاتهم ، ومعها جلبة الخيل واصطكاك الأسلحة ، أن بثت الرعب فى قلوب من سمعوها فلما ان أطلقت جميع سهامهم ، اشــتبك الجمعان المتعاديان فى قتال متــلاحم بمزاريقهم وسـيوفهم وذبابيسهم ، (وهى القضبان ذات الرؤوس الحديدية) وبلغ من هول المذبحة ، ومن ضخامة أكوام جثث الرجال ، وجثث الخيول بوجه أخص ، فى الميدان ، أن صــار من المحــال أن

تزحف أية وحدة من الطائفتين على الأخرى • وهكذا ظل مصير اليوم غير معلوم الى زمن طويل ، وترجح النصر بين الفريقين المتقاتلين منذ الصباح حتى الظهيرة ، اذ بلغ من حمية شعب نايان واخلاصهم لقضية مولاهم، الذى كان مفرط الكرم والتسامح معهم ، ان كانوا جميعا يفضلون لقاء الموت، على ادارة ظهورهم للأعداء • واذ أدرك نايان فى النهاية مع ذلك ، أنه أصبح محاصرا تقريبا ، فانه حاول النجاة بنفسه بالفرار ، ولكنه أخذ على الفور أسيرا ، واقتيد الى حضرة قبلاى ، فأمر باعدامه (١٤) • وتم تنفيذ ذلك بوضعه بين بساطين ، لم يزالوا ينفضونهما حتى فارقت روحه بدنه ، وكان الدافع الى هذا الحكم العجيب ، هو انه لم يكن يجوز للشمس ولا الهواء في عرف التتار أن يشهدا سفك دم فرد ينتمي الى الأسرة الامبراطورية (١٥) فأما من تبقى من جنده على قيد الحياة بعد المعركة ، فقد حضروا لتقديم خضوعهم وحلف يمين الولاء لقبلاى • وكانوا من سكان الولايات الفاخرة الأربع ، تشورزا وكارلى وبارسكول وسيتنجوى (١٦) •

ورأى نايان ، الذى تم له سرا مرسم التعميد ، وان لم يعلن تنصره على الملأ أبدا ، أن من الصواب فى هذه المناسبة ، أن يرفع علامة الصليب على راياته ، وكان بين جنده عدد جم من لمسيحيين ، الذين سقط منهم كثيرون قتلى • وعندما شهد اليهود (١٧) والمسلمون أن راية الصليب قد غلبت ، عيروا السكان المسيحيين بذلك قائلين : « انظروا الى الحالة التى تنحدر اليها راياتكم (التى بها تفخرون) ، والرجال الذين يتبعونها ! » وبناء على هذه السخرية ، اضطر المسيحيون الى تقديم شكواهم الى الخان الأعظم ، فأمرهم بمثول المسلمين واليهود بين يديه وعنفهم تعنيفا حادا • قال :

« لئن لم يعد صليب المسيح بالفائدة على حزب نايان ، فان هذه العاقبة توافقت والعقل والعدالة ، من حيث انه كان ثائرا متمردا وخائنا لمولاه ، ولم يكن الصليب ليمكنـه أن يشمل بحمايته مثل هؤلاء الحقراء الأخساء • وبناء على هذا لا يجوز لأى فرد أن يجـرأ أن يتهم رب المسـيحيين بالظلم ، الذى هو فى حد ذاته غاية كمال الصلاح والعدل » •

الفصل الثانى

عن عودة الخان الأعظم الى مدينة كانبالو بعد نصره ـ وعن التشريف الذى حبا به النصارى واليهود والمسلمين والوثنيين ، كل فى عيده ـ وعن السبب الذى قدمه تبريرا لعدم اعتناقه المسيحية ٠

بعد أن أحرز الخان الأعظم هذا النصر المبين ، عاد الى مدينة كانبالو العظيمة بموكب نصر فخم ٠ وحدث هـذا فى شهر نوفمبر ، وظل مقيما بها شهرى فبراير ومارس ، الذى جرت فيه اعياد الفصح (القيامة) عندنا ٠ ولما كان على بينة من أن هذا العيد من آهم أحداثنا المهيبة ، أمر جميع المسيحيين بالمثول بين يديه وأن يحملوا معهم « كتابهم » الذى يحتوى عـلى الأناجيل الأربعـة للرسـل الانجيليين ٠ فأمر بتعطيره تعطيرا مكررا بالبخور بأبهة رسمية ، ثم قبله بخشوع ، وأشار بأن يحتذى حذوه جميع نبلائه الحاضرين ٠ وكانت هـذه هى عادته التى جرى عليها فى كل عيد من الأعياد المسيحية الكبيرة ، كعيد الفصح (القيامة) وعيد الميلاد كما انه كان يفعـل نفس ذلك الشىء فى أعيـاد المسـلمين واليهـود والوثنيين (١) ٠ ولما أن سئل عما دفعه الى هذا السلوك قال : « هناك أنبياء أربعة عظام ، توقرهم وتعبدهم مختلف طبقات الجنس البشرى ٠ فالمسيحيون يعدون يسوع المسيح ربا لهم ، والمسلمون محمدا (٠٠ كذا ؟! ٠٠٠) واليهود موسى(٢) ، والوثنيون سوجو ممبارركان (٣) ، الذى هـو آسـمى أصنامهم ٠ وانى لأقدم التكريم وأظهـر الاحترام للأربعـة

جميعا ، وأدعو لنجدتي آيهم كان في السماء هو الأعلى حقا» •
ولكن يتجلى من الطريقة التي كان جلالته يتصرف بها معهم ، أنه كان يعد عقيدة المسيحيين اصدقهن واحسنهن ، وقد لاحظ : انه ما من شيء يفرض على معتنقيها الا كان مترعا بالفضيلة والقداسة • ومع هذا فانه لم يقبل بأية حال السماح لهم بحمل الصليب أمامهم في مواكبهم ، اذ عليه ، عذبت شخصية سامية كالمسيح وأذيقت كأس الموت (بطريقة غير كريمة) • وربما دار بخلد بعض الناس أن يتساءل : لماذا ــ اذا كان أبدى مثل هذا التفضيل لديانة المسيح ــ لم يتبعها ويصبح مسيحيا ؟ وكان السبب في عدم فعله ذلك ، ما أوضحه لنيقولا ومافيو بولو ، عندما تجاسرا ، حين أرسلهما سفراء له الى البابا ، على توجيه بضع كلمات اليه في موضوع المسيحية • قال : « هل ينبغي لي أن أصبح مسيحيا ؟ انكم لابد أن تدركوا بأنفسكم أن مسيحيي هذه الأقطار قوم جهلاء عديمو الكفاءة ، لا يملكون القدرة على أداء أي شيء (معجزى)، بينما ترون أنتم أنفسكم أن الوثنيين يستطيعون أن يفعلوا أي شيء يريدونه • فعندما أجلس الى المائدة تأتيني الكؤوس الموضوعة في وسط القاعة ممتلئة بالخمر وغيره من المشروبات ، تلقائيا وبدون أن تلمسها يد بشرية ، فأشرب منها • ولديهم القدرة على التحكم في الجو الرديء واجباره على الرجوع الى أي جزء من أجزاء السماء ، مع هبات عجيبة أخرى كثيرة من ذلك النوع • وقد شهدتم كيف أن لأوثانهم ملكة الكلام ، وانها تتنبأ لهم بكل ما يلزم • ولو اني اعتنقت دين المسيح وأعلنت نفسي مسيحيا ، لسألني نبلاء بلاطي وغيرهم من الأشخاص ، الذين لا يميلون الى ذلك الدين أن أورد لهم الدوافع الكافية التي حملتني على تلقي المعمودية واعتناق المسيحية • وسيقولون : « ما هي تلك القدرات الخارقة وما هي تلك المعجزات التي أظهرها قساوستها ؟ وذلك بينما يعلن الوثنيون أن ما يظهرونه يتم عن طريق قداستهم وبتأثير أوثانهم » • ولن أستطيع أن أحير

جوابا على هذا ، وسيرون انى أعمل تحت خطأ جسيم ، ذلك بينما الوثنيون الذين يمكنهم بواسطة فنهم العميق اتيان تلك العجائب ، يستطيعون بغير صعوبة الاجهاز على حياتى • ولكن عليكم بالعودة الى حبركم الاعظم ، وان تسالوه باسمى، أن يرسل الى هنا مائة شخص ، ممن حذقوا شريعتكم • حتى اذا واجههم الوثنيون كانت لديهم القدرة على اكراههم وردهم مبهوتين ، واذ يظهرون أنهم هم أنفسهم قد وهبوا فنونا مماثلة لفنونهم ، وان امتنعوا عن ممارستها ، لأنها تستمد من طريق استخدام الأرواح الشريرة ، فسيجبرونهم على الامتناع عن اتيان ممارسات من ذلك القبيل بحضرتهم • فان أنا شهدت ذلك ، وضعتهم وديانتهم تحت الحظر ، وسمحت لنفسى بأن أعمد • واحتذاء بى سيقبل كل نبلائى بالمثل على تلقى التعميد ، ثم يأتى الوقت الذى يقلدهم فيه رعاياى بوجه عام ، بحيث يزيد عدد المسيحيين بهذه الأصقاع ، على عدد من يسكنون بلادكم » • وينبغى أن يتضح من هذا الحديث ، أنه لو أن البابا أرسل أشخاصا ذوى قدرة وافية على التبشير بالانجيل ، لاعتنق الخان الأعظم المسيحية ، التى من المعروف بالتأكيد أنه يميل اليها ميلا قويا • على أننا ، لكى نعود الى موضوعنا ، سنتحدث الآن عن الجوائز وآيات التشريف التى يحبو بها كل من يبرز مميزا نفسه بالشجاعة والاقدام فى معترك القتال •

الفصـــل الثـــالث

عن نوع المكافآت التى تمنح لمن يبلون البلاء الحسن فى القتال وعن اللوحات الذهبية التى يتلقونها ٠

ويعين الخـــان الأعظم اثني عشر من أذكى نبـــلائه ، يتولون التعرف على سلوك ضباط جيشه وجنده ، وبخاصـــة أثناء الحملات وفى المعارك، وتقديم تقاريرهم اليه (١)، حتى اذا أبلغ عن جدارة كل منهم ، رقاهم فى خدمته ، رافعا من يقود مائة رجل (يوزباشى) ، الى قيادة ألف (بكبـــاشى) ، ويهدى الى الكثيرين منهم أوعية من فضة ، فضلا عن مألوف اللوحات أو التفويضات الخاصة بالقيـــادة والحـــكم (٢) ، واللوحات (أو البراءات) التى تعطى لقادة المائة رجـــل مصنوعة من الفضة ، والتى تعطى لقـــواد الألف تصـــنع من الذهب أو من الفضة المذهبة ، كمـــا أن من يقـــودون عشرة آلاف يتلقون لوحات من الذهب ، تحمـــل رأس أســـد (٣) ، ووزن الأوليين مائة وعشرون « ساجى Saggi » (٤) ، والتى تحمل رأس الأسد مائتان وعشرون ٠ وتقع فى أعلى نقوش البراءة جملة مفـــادها التالى : « بحـــول الله العظيم وقوته ، وبفضل النعمة التى يسوغها لامبراطوريتنا ، ليتبارك اســـم الكاآن ، وليتجرع كل من يعصى (كل ما هـــو موضح هنا) كأس الموت وليدمر تدميرا » ٠ وللضباط الذين يحملون هاته البراءات امتيازات ترتبط بها ، كما ان النقوش تجـــدد الواجبات وسلطات قياداتهم ٠ فمن كان على رأس مائة ألف رجل ، أو من هو قائد عام لجيش أعظم ، فله لوحة ذهبيـــة

زنتها ثلاثمائة ساجى ، وعليها النص سالف الذكر ، وقد نقش فى أسفلها شكل اسد ، مع صور تمثل الشمس والقمر • وهو يمارس أيضا امتيازات قيادته العليا ، كما هو موضح فى هذه اللوحة الفاخرة • وحيثما ركب أمام الملأ ، رفعت فوق رأسه مظلة ، تدل على الرتبة والسلطة التى يتولاها (٥) واذا هو جلس كان جلوسه دوما على كرسى من الفضة • وينعم الخان الأعظم ، كذلك أيضا ، على بعض نبلائه ببراءة (لوحات) ، رسمت عليها أشكال السنقر(٦) ، يخول لهم أيضا بفضلها ، أن يصطحبوا معهم ، كحرس شرف ، الجيش الكامل لأى أمير كبير • وفى امكانهم كذلك استخدام خيول الاسطبل الامبراطورى حسبما يهوون ، كما يستطيعون وضع أيديهم على خيول أى ضابط يقل عنهم فى الرتبة •

الفصل الرابع

عن شخص الخان الأعظم وقامته
ـ وعن زوجاته الرئيسيات الأربع ـ
وعن اختيار الفتيات في كل عام من
اجله بولاية أنجوت ·

ان قبلاى الذى يلقب بالخان الأعظم أو أمير الأمراء ، ذو قامة متوسطة ، فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، وأطرافه حسنة التكوين ، كما ان شخصه بأكمله متناسب تناسبا مضبوطا وبشرته شقراء ، مشربة بين فينة وأخرى بحمرة تشابه الحمرة الزاهية للورد ، وهو أمر يزيد طلعته بهاء وجمالا · وعيناه سوداوان وجميلتان ، وأنفه جميل الشكل أشم · وله أربع زوجات يمتزن بالمكانة الأولى (١) ويعتبرن شرعيات ويتولى العرش أكبر أبناء أية واحدة فيهن ، بعد وفاة الخان الأعظم (٢) · وكلهن تحمل بالتعادل لقب الامبراطورة ، ولكل واحدة منهن بلاطها الخاص · وليس لدى كل واحدة منهن أقل من ثلاثمائة شابة أنثى ذات جمال باهر ، بالاضافة الى عدد جم من الغلمان الذين يتولون الخدمة ، وغيرهم من الخصيان ، فضلا عن وصيفات غرفة النوم ، بحيث يبلغ عدد الأفراد الملحقين ببلاط كل واحدة منهن عشرة آلاف (٣) ·

وعندما يرغب جلالته فى صحبة احدى امبراطوراته ، فانه اما أن يرسل فى طلبها ، أو يذهب بنفسه الى قصرها · وفضلا عن أولئك فان لديه سرارى كثيرات ، قد أعددن لاستعماله الخاص ، وأحضرن من ولاية ببلاد التتار اسمها

انجوت • وهى ولاية فيها مدينة بذلك الاسم ، يمتاز سكانها بوسامة الملامح وشقرة البشرة »(٤) • والى ذلك الاقليم يرسل الخان الأعظم موظفيه سنة بعد أخرى ، أو أدنى من ذلك ، حسبما تهوى مشيئته ، فيجمعون له ما تبلغ عدته أربعمائة أو خمسمائة من أملح الشواب فتنة وفق تقدير الجمال المبلغ اليهم فيما لديهم من تعليمات • واليكم طريقة تقويمهم للفتاة من هؤلاء : فعند وصول هؤلاء المبعوثين يصدرون الأوامر بتجميع جميع فتيات الولاية ، ويعينون قوما ذوى اهلية لفحصهن ، فيقومون بتفقدهن تفقدا دقيقا كلا على حدة ، بمعنى أنهم يتفقدون الشعر والملامح والحواجب والفم والشفاه وغير ذلك من القسمات وكذا سيمترية هذه كلها بعضها مع بعض ، ويقدرون قيمتهن بستة عشر قيراطا أو سبعة عشر أو ثمانية عشر أو عشرين قيراطا ، حسب ما يتحلين به من درجة أكبر أو أصغر من الجمال(٥) • وعندئذ يجرى اختيار العدد الذى يحتاج اليه الخان الأعظم ، ربما على معدلات عشرين أو واحد وعشرين قيراطا ، التى حددت عليها مهمتهم ، ثم يحملن بعد ذلك الى بلاطه • وعند وصولهن الى حضرته ، يامر باجراء فحص جديد لهن على يد مجموعة أخرى من المفتشين ، فيجرون اختيارا آخر بينهن ، حيث يحتفظ لمخدعه الخاص بثلاثين أو أربعين أو ستين تقديرا أعلى • ويعهد بهؤلاء « ابتداء » وكلا على حدة ، الى عناية زوجات بعض النبلاء ، اللواتى يتعين عليهن مراقبتهن بغاية الانتباه ، أثناء الليل ، للتحقق من انه ليس بهن أية نقائص مستورة ، وأنهن ينمن نوما هادئا ولا يحدثن شخيرا أثناء النوم ، وأن أنفاسهن عطرة وأنهن خاليات من الروائح الكريهة فى أى جزء من أجزاء الجسم • حتى اذا مر بهن هذا الفحص القاسى ، قسمن الى جماعات من خمس ، تتولى كل جماعة منهن أثناء ثلاث ليال وثلاثة أيام الخدمة فى جناح جلالته الداخلى ، حيث عليهن أن يقمن بكل خدمة تطلب منهن ، ثم انه يفعل بهن ما يشاء • فاذا تمت

هذه الدورة ، حلت محلهن جماعة أخرى ، ولا يزال الأمر على ذلك بالتعاقب حتى يأخذ العدد كله دوره ، حيث تعاود الخمس الأولى عملها في الخدمة • ولكن بينما تقوم جماعة بعملها في المخدع الجواني ، تكون جماعة أخرى متخذة مكانها في الجناح الخارجي المجاور ، حتى اذا احتاج جلالته الى شيء ، كالشراب أو الطعام ، أشارت الجماعة الأولى بأوامره الى الجماعة الثانية ، فتتولى على الفور الحصول على المادة المطلوبة : وهكذا تتم خدمة شخص جلالته على نحو قاطع على يد هؤلاء الأنثيات الشابات دون غيرهن (٦) فأما بقية البنات اللواتى حصلن على تقدير منخفض ، فانهن يوكلن الى مختلف نبلاء القصر ، فيعطونهن التعليم والارشاد في شئون الطبخ، وصنع الثياب ، وغير ذلك من الأعمال المناسبة ، كما يخصصن لأى شخص يمت الى البلاط ويعبر عن رغبته في اتخاذ زوجة ، فينعم عليه الخان الأعظم بواحدة من هؤلاء الأوانس ، ومعها بائنة سنية • وبهذه الطريقة يتكفل بهن جميعا بين أفراد نبلائه • وربما دار بخلدنا أن نسأل : ألم يكن أهل تلك الولاية يشعرون بمضض لأخذ الملك بناتهم منهم غصبا هكذا ؟ ــ كلا بكل تأكيد ، اذ أنهم ، على العكس ، كانوا يعدون ذلك فضلا وتشريفا لهم ، ومن كانوا آباء لأطفال حسان ، كانوا يشعرون بالرضا التام لتنازله باختيار بناتهم • فهم يقولون : « ان ولدت ابنتي تحت نجم سعيد الطالع وفى يمن من الحظ ، فان جلالته خير من يستطيع تنفيذ قسمتها على خير وجه بتزويجها من نبيل ، وهو أمر ليس في مكنتى أن أفعله » • فان حدث أن أساءت البنت السلوك ، أو وقع لها أى أذى (تفقد به أهليتها) ، نسب الوالد ما أصابها من خيبة أمل الى سوء طالعها •

الفصــل الخامس

عن أولاد الخان الأعظم من زوجاته الأربــع ، الذين يجعلهم ملوكا على مختلف الولايـات – وعن تشينجيز ولده البكر – وكذلك عن أبنائه من سراريه ، الذين يجعلهم نبلاء .

رزق الخــان الأعظم اثنين وعشرين ابنــا من زوجاته الأربع الشرعيــات ، وتقــرر أن يكــون أكبرهم ، واسمه تشينجيز (١) ، وريثا لمرتبة الخان الأعظم ، مع تولى الحــكم فى الامبراطورية ، وتأكد له هذا التعيين أثناء حياة والده على أنه لم يقدر له أن يعيش بعده ، ولكنه اذ خلف ابنا اسمه تيمور ، فانه كممثل لأبيه سيتولى السلطان (٢) . وميــــول هذا الأمير كريمة ، كما أنه وهب الحكمة والشجاعة ، وقدم الآيات الدالة على شجاعته بمعاركه المظفرة العديدة . وفضلا عن هؤلاء فان جلالته رزق خمسة وعشرين ابنا من سراريه المحظيات ، وكلهم جنود شجعان ، وذلك لاشتغالهم على الدوام بالمهام العسكرية . وقد منحهم جميعا رتب النبلاء . ويتــولى سبعة من أبنائه الشرعيين رئاسة ولايات وممالك مترامية الأطراف (٣) يحكمونها بحكمة وحسن تدبير ، كما هو المنتظر من أبناء من لم يبز صفاته العظيمة ، حسب التقدير العــام للناس جميعا ، أحد من أبناء الجنس التترى .

الفصــل السادس

عن القصر العظيم الأخـاذ للخـان الأعظم ، قرب مدينة كانبالو ·

جرت عادة الخــان الأعظم ان يقضى ثلاثة آشـــهر من السنة ، هىديسمبر وينـــاير وفبراير ، بمدينـــة كانبـــالو العظيمة ، الواقعـــة قرب الطـــرف الشـــمالى الشرقى لولاية كاثاى (١) وهنا ، فى الجانب الجنوبى للمدينة الجـــديدة ، يوجد موقع قصره الهائل ، واليكم وصفا لشـــكله وابعاده : فأولا يوجد هناك مربع محوط بسور وخندق عظيم ، وطول كل ضلع فى المربع ثمانية أميال (٢) ، وله عـــلى مســـــافة متساوية من كل طرف بوابة دخول ، ليحتشـــد هنـــا النـــاس اللاجئون من كل صوب وحدب ، وفى داخل هذا التسوير من الجوانب الأربعة ، يوجد فضاء براح عرضه ميـــل تعســـكر فيه الأجناد (٣) ، وهذا يحدده سور آخر يحوط مربعا ذا ستة أميال (٤) له ثلاث بوابات فى الجانب الجنوبى وثلاث فى الشمالى ، البوابة الوسطى منها أكبر من الأخريات، ولا تبرح مغلقة على الدوام الا فى مناســـبات دخـــول الامبراطـــور أو خروجه ·

فأما البابان الجانبيان فيظلان مفتوحين دائما يستخدمهما السابلة العاديون (٥) ويقف فى وسط كل قسم من هـــذه الأسوار بناء جميل ورحيب ، ونتيجة لهذا فانه يوجـــد فى داخل التسويرة أو التحويطة ثمانية من مثل هـــذا البنـــاء ، تودع فيها المخزونات العسكرية الملكية ، حيث يخصص مبنى واحد لاستقبال كل صنف من أصناف المخزونات ·

وهكذا يحدث مثلا أن اللجم والسروج والركابات وغيرها من لوازم تجهيز الخيالة ، تشغل مخزنا واحدا ، بينما تشغل القسى ، والأوتار والكنانات والسهام وجميع الأدوات الأخرى التى تخص النشابة (الرماة) ، مخزنا آخر ، هـذا الى أن الدروع والزرود وغيرها من أنواع المجنات المصنعة من الجلد، تشغل مخزنا ثالثا ، وهكذا دواليك ٠

وتوجد أيضا داخل هذه التحويطة المسورة أخرى ذات سماكة عظيمة يبلغ ارتفاعها خمسة وعشرين قدما كاملة ٠

فأما المزاغل أو حواجز الشرفات المسننة (وهى الفتحات الموجودة بأعلى الأسوار) فكلها بيضاء ٠ وهذا بدوره يشكل مربعا امتداده أربعة أميال ، كل جانب فيه ميل واحد ، كما أن له ست بوابات ، تستخدم بنفس شاكلة التحويطة السابقة (٦) ٠ وهو يضم بالمثل ثمانية مبان ضخمة ، نظمت بنفس الطريقة ، وخصصت لخزائن ملابس الامبراطور(٧) ٠

وتزدان الفضاءات الممتدة بين أحد الأسوار والذى يليه بأشجار كثيرة باسقة ، كما تحتوى على مروج تحفظ فيها أنواع مختلفة من البهائم ، كالوعول ، والحيوانات التى تفرز المسك ، والأيائل ، والأيائل السمراء وأصناف أخرى من نفس الفصيلة ٠ وكل فراغ بين الأسوار ، لا تشغله مبان ، يملأ بالحيوان على هذا النحو ، فالمراعى تحوى الكلأ الوفير ٠ والطرق التى تمر فيها تجعل جسرا يرتفع ثلاثة أقدام عن مستوى المراعى ، كما انها مرصوفة فلا يتجمع عليها وحل ، ولا تستقر عليها مياه مطر ، وانما هى على العكس تسيل وتساعد على تحسين حال النبات ٠ وفى أحضان هذه الأسوار، التى تؤلف حدا طوله أربعة أميال ، تقف سراى الخان الأعظم، وهى تعد أرحب قصر عرف حتى اليوم ٠ وهو يمتد من السور الشمالى الى السور الجنوبى ، غير تارك الا فضاء خاليا (أو فناء) ، يمر فيه ذهابا وعودة أشخاص ذوو مكانة والحرس العسكرى ٠

وليس له طابق علوى ، وان كان سقفه مرتفعا جداً (٨) والأساس المرصوف (أو الطوار) الذى تقف عليه السراى ، يرتفع عشرة أشبار انجليزية — اى سبعة أقدام ونصف فوق مستوى الأرض ، وقد بنى حوله من جميع الجهات حائط من الرخام ، عرضه خطوتان ، الى مستوى هـذا الطوار ، الذى شيدت السراى داخل حدوده ، بحيث ان الحائط الممتد وراء التصميم الأرضى ، والمحيطة بالمبنى كله ، تكون شرفة ، كل من مشى عليها يبدو للعيان من الخارج ، وأقيم عـلى امتداد الحافة الخارجية للحائط « درابزين » جميـل ، له أعمدة ، يسمح للناس بالاقتراب منه (٩) وقد زينت جوانب القاعات الكبيرة والأجنحة أشـكال الأفعـوانات المحفـورة والممـوهة بالذهب ، مع أشكال المحـاربين والطيـور والبهائم ، وكذا الصور الممثلة للمعارك •

وقد تفنن مصممو السقف بحيث جعلوه لا يبـدو منـه للعين من الداخـل الا كل ما هـو ممـوه بالذهب أو مطلى بالألوان (١٠) وتوجـد عنـد كل جانب من جـوانب القصر الأربعة مجموعة فخمة من السلالم الرخامية ، تصعد بهـا من مستوى الأرض الى الحـائط الرخامى الذى يحيط بالمبنى ، والذى يشكل الطريق المؤدى الى القصر عينه والقاعة الكبرى مفرطة الطول والعرض وتسمح باقامة الولائم بها لأعـداد غفيرة من الناس • ويحتوى القصر عـلى عـدد من الغـرف المنفصلة ، وكلها بالغة الجمال نفذت بطريقة مثيرة للاعجاب حتى ليبدو من المستحيل اقتراح ادخال أى تحسين على نسق تنظيمها •

وقد زين السقف من الخارج بألوان شتى ، ما بين أحمر وأخضر ولازوردى وبنفسجى كما أن نوع عجينة الطلاء هـو من القوة بحيث يدوم عدة سـنوات (١١) والزجاج المركب بالنوافذ من جودة الصنع والرقة بحيث يحـوى شـفوفية البلور (١٢) وتقوم فى مؤخرة جسم السراى نفسـها مبـان

ضخمة تحتوى على عدة أجنحة ، تودع فيها أشياء الملك الخصوصية أو ما يكتنزه من سبائك الذهب والفضة والاحجار الكريمة واللالىء ، وكذلك أوعيته المكوّنة من صحاف الذهب والفضة (١٣) ٠

وهنا توجد أيضا أجنحة زوجاته ومحظياته الأثيرات ، وأنه فى هذا الموقع الهادىء المنعزل ليتصرف فى الشئون على راحته ، اذ يخلو تماما من كل نوع من أنواع الازعاج وعلى الجانب المقابل للقصر الكبير ، وفى مواجهة القصر الذى يقيم فيه الامبراطور ، يوجد قصر آخر ، يماثله من جميع الاوجه وقد خصص لاقامة تشنجيز (Chingis) ابنه البكر ، وتراعى فى بلاطه جميع المراسم المرعية فى بلاط أبيه ، وذلك بوصفه الأمير الذى سيخلف أباه فى حكم الامبراطورية (١٤) وهناك ، غير بعيد من القصر فى الجانب الشمالى ، وعلى مرمى السهم تقريبا من السور المحاوط ، جبيل ترابى مصطنع ، ارتفاعه مائة خطوة أو تزيد ، ومحيطه عند القاعدة يقارب الميل ٠

وهو مغطى بأجمل ما ترى الأعين من الأشجار دائمة الخضرة ، وذلك أن جلالته كلما تلقى معلومات عن شجرة جميلة تنمو بأى مكان ، أمر بها فاقتلعت بكل جذورها والتربة المحيطة بها ، ومهما بلغت ضخامتها وثقل وزنها ، أمر بها فنقلت بواسطة الفيلة الى هذا الجبيل وأضافها الى المجموعة الخضراء ٠ ومن هذه الخضرة الدائمة اكتسب اسم « الجبيل الأخضر » (أو ٠٠ الجبلاية الخضراء) ٠

وأقيم على قمته جوسق زخرفى ، أخضر اللون كذلك من أوله لآخره ٠ ويشكل المنظر العام مجموعة : الجبيل نفسه ، والأشجار والمبنى ، مشهدا بهيجا وعجيبا فى الوقت نفسه ٠ وتوجد فى القسم الشمالى كذلك ، وأيضا داخل حدود المدينة ، حفرة ضخمة وعميقة ، كونت بحكمة ، حيث اتخذت

التربة المأخوذة منها المادة اللازمة لاقامة الجبلاية (١٥) ·
وتزود الحفرة بالماء من نهير صغير يجرى اليهـا ، ولها مظهر
بركة السمك ، وان قصر استعمالها على سقى الماشية ·

ومن ذلك المكان يمر ماء النهير على امتداد سقاية ميـاه
(أى مجرى عيون) عنـد سفح « الجبـل الأخضر » منطلقا
ليملأ حفرة اخرى كبيرة وشديدة العمق ، احتفرت بين القصر
الخصوصى للامبراطور وبين قصر ابنه تشنجين وبالمتل ساعدت
التربة التى احتفرت من هنا على زيادة ارتفاع الجبيل ·

وفى هذا الحوض الأخير مقدار ضخم ومتنوع الأصناف
من السمك ، تزود منـه مائدة جلالته بأية كميـة قد يحتاج
الأمر اليها · ويصب النهر مياهه فى النهاية المقابلة للمسطح
المائى ، وتتخذ الاحتياطات للحيلولة دون هرب السمك بوضع
شبكات النحاس أو الحديد عند مدخلها ومخرجهـا · وهـو
زاخر أيضا بالبجع وغيره من الطيـور المائية · ويتم الاتصال
بين هذا القصر وذاك بوساطة معبر ملقى عبر المياه · تلك
هى صفة هذا القصر العظيم · وسنتحدث الآن عن موقع مدينة
تاى دو وظروفها ·

الفصل السابع

عن مدينة تـاى دو الجديدة ، المشيدة قرب مدينة كانبالو ــ وعن قاعدة مرعية تتعلق بتسلية السفراء ــ وعن الشرطة الليلية بالمدينة ٠

تقع مدينة كانبالو قرب نهر كبير ، في ولاية كاثاى ، وكانت في الزمان الخالى باذخة الفخامة ملكية ٠ وينطوى الاسم نفسه ضمنا على معنى مدينة الملك (١) ، على أن جلالته وقد استقى رأيا من المنجمين مفاده أنها مقدور عليها أن تتمرد على سلطانه ، عول على ابتناء عاصمة أخرى ، على الضفة المقابلة من النهر ، التى تقوم فيها القصور السابق وصفها : بحيث تنفصل المدينتان ، الجديدة والقديمة ، احداهما عن الأخرى بواسطة النهر الذى يفيض بينهما ليس غير (٢) ٠ وأطلق على المدينة الحديثة البناء اسم تاى دو(٣)، واضطر جميع الكاثانيين ، أى جميع السكان الذين هم من أهالى كاثاى ، الى الجلاء عن المدينة القديمة ، والسكن بالجديدة ٠ ومع هذا فان بعض السكان ، الذين لم يخامره شك في ولائهم ، سمح لهم بالمكث ، وذلك بوجه خاص ، لأن المدينة الثانية ، وان بنيت على أبعاد ، سنوضحها من فورنا ، لم تكن قادرة على استيعاب نفس العدد الذى تتسع له الأولى ، وهى مدينة ذات سمعة مترامية (٤) ٠

وشكل هذه المدينة الجديدة مربع تماما ، وامتدادها أربعة وعشرين ميلا ، حيث لا يزيد ولا يقل كل ضلع من

اضلاعها عن ستة اميال(٥) وهى محوطة بأسوار من الثرى(٦)، سمكها عند القاعدة يقارب عشر خطوات ، ولكنه يتناقص تدريجيا كلما اقترب من القمة بحيث لا تزيد التخانة عن ثلاث خطوات والمزاغل(٧) (Battlements) (اى الفتحات المفرجة) بالسور بجميع الاجزاء بيضاء اللون • وقد جرى تخطيط الخريطة الكاملة للمدينة برسمها بطريقة منتظمة ، فصارت الشوارع على وجه الجملة ، تبعا لذلك ، من بالغ الاستقامة، بحيث انه متى صعد انسان الى السور فوق احدى البوابات ، ونظر أمامه رأسا ، لأمكنه ان يرى البوابة المقابله له فى الجانب الآخر من المدينة (٨) ، وتقوم على كلا الجانبين فى الشوارع العامة الأكشاك والدكاكين من جميع الأصناف والأوصاف (٩) •

وكانت جميع قطع الأرض التى شيدت عليها المساكن بكل أرجاء المدينة ، مربعة ومحاذية بعضها البعض على استقامة خط واحد بالضبط ، وكانت كل قطعة رحبة بالقدر الكافى لاقامة المبانى الجميلة ، مع كل ما يتعلق بها من أفنية وحدائق • وكانت تخصص قطعة لكل رأس عائلة بمعنى أن شخصا ما من قبيلة ما كان يختص بمربع من الأرض ، وكذلك شأن الباقين جميعا • ثم ما لبثت الملكية بعد ذلك أن انتقلت من يد الى يد • وبهذه الطريقة صار داخل المدينة بأجمعه مقسما الى مربعات ، تماثل لوحة الشطرنج ، ومخططا بدرجة من الدقة والجمال لا سبيل الى وصفها • ولسور المدينة اثنتا عشرة بوابة ، لكل ضلع من أضلاع المربع منها ثلاث ، ويقوم فوق كل بوابة ومقصورة فى السور بناء جميل ، بحيث أنه توجد فى كل ضلع من أضلاع المربع خمسة من تلك الأبنية ، يحتوى كل على غرف واسعة تودع بها أسلحة الرجال الذين يشكلون حامية المدينة (١٠) ، حيث يحرس كل بوابة ألف رجل (١١) • وينبغى ألا يفهم من هذا أن هذه القوة تمسكر هناك نتيجة الخوف من خطر أية قوة معادية ، ولكن بوصفها

حرسا مناسبا لهيبة العاهل وشرفه. ومع هذا ينبغي ان ندخل في حسابنا ان اعلان المنجمين قد اثار في عمله درجة ما من الشبهات المتعلقة بالكاثائيين . ويوجد بوسط المدينة جرس كبير ، معلق في بناء مرتفع ، يدقونه كل ليلة ، ولا يجرؤ انسان بعد الدقة الثالثة أن يتواجد في الشوارع (١٢) الا ان يكون مضطرا تحت دافع ملح ، كطلب النجدة لامرأة في المخاض ، أو رجل فاجأه المرض ، بل انه حتى في هذه الأحوال نفسها يلزم الشخص بحمل نور في يده (١٣) .

وتوجد في الجانب الخارجي من كل بوابة ضاحية ، هي من الاتساع بحيث تمتد الى الضاحيتين الواقفتين عند أقرب بوابتين منها على كل من الجانبين وتتحد بها ، كما انها تمتد في الطول الى مسافة ثلاثة أميال أو أربعة ، بحيث ان عدد السكان في هذه الضواحي يفوق عدد سكان المدينة ذاتها . وتوجد داخل كل ضاحية ، وعلى مسافات متفرقة ، ربما بلغت الواحدة منها ميلا في البعد عن المدينة ، كثير من الفنادق أو المسافرخانات ــ (Caravanserais) ، التي ينزل بها (١٤) التجار الوافدون من مختلف الأرجاء ويخصص لكل صنف من أصناف الناس بناء منفصل ، أو كما قد تقول ، واحد للمبارديين ، وآخر للجرمان ، وثالث للفرنسيين .

ويبلغ عدد العاهرات اللائي يتجرن بأعراضهن مقابل المال ، مع احتساب من يقمن بالمدينة الجديدة ، فضلا عمن هن بضواحي القديمة ، خمسة وعشرين ألف بغي (١٥) . وقد جعل على كل مائة وكل ألف من هؤلاء البغايا ضباط مشرفون يأتمرون بأوامر قائد عام ، ومرد وضعهم تحت مثل هذه القيادة هو التالي : عندما يصل سفراء مكلفون بأي عمل، يتصل بمصالح الخان الأعظم، فقد جرت العادة بالنفقة عليهم على حساب جلالته ، ولكي يعاملوا بأبلغ تكريم يؤمر القائد بتزويد كل فرد من أفراد السفارة كل ليلة باحدى هؤلاء العاهرات . التي يجرى تغييرها بالمثل كل ليلة ، وهي خدمة

لا ينتقاضين عليها اى اجر نظرا لانها تعد شبه اتاوة عليهن أداؤها للعاهل ·

ويواصل حراس يؤلفون مجموعات من ثلاثين او اربعين رجلا السير فى دوريه بشوارع المدينــة طــوال الليل كله ، ويقومون بالبحث جديا عن افراد قد يكونون خارج بيوتهم فى ساعة غير مناسبة ، اى بعد الدقة الثالثه للجرس الكبير · فاذا التقوا بأى واحد منهم فى تلك الظروف ، القوا القبض عليه فورا وحبسوه ، وآخذوه فى الصباح لاستجوابه ، امام ضباط معينين لهذا الغرض (١٦) ، يحكمون عليــه طبقــا لطبيعة المخالفة التى ارتكبها ، متى ثبتت عليه أية جريرة ، بعقوبة الضرب على القدمين ضربا شديدا أو خفيفا ، وهــو أمر قد يترتب عليه مع ذلك موته أحيانا · وبهذه الطريقــة يجرى عادة انزال العقوبة على الجريمة بين هؤلاء النــاس ، نتيجة العــزوف عن ســفك الدم ، الذى هــو شيء علمهــم منجموهم العلماء (Baksis) تجنبه (١٧) ·

والآن وقد وصفنا داخل مدينة تاى دو ، فاننا سنتحدث الآن عن جنوح سكانها من أهل كاثاى الى العصيان ·

الفصل الثامن

عن الأعمال الغادرة التي تستخدم لدفع مدينة كانبالو الى العصيان ، وعن اعتقال من لهم شأن بذلك وعقابهم •

سنشير فيما بعد اشارة خاصة الى تأليف مجلس من اثنى عشر شخصا ، لهم سلطات التصرف كما يشتهون ، فى الأراضى والحكومات وكل شىء يتبع الدولة •

وكان من بين هؤلاء عربى اسمه اتشمك (١) ، وهو رجل ماكر وجرىء ، فاق نفوذه عند الخان الأعظم نفوذ الأعضاء الآخرين • وبلغ من افتتان مولاه به أن سمح له بالانغماس فى كل تخط للقواعد والأصول • حقا انه تم بعد وفاته ، اكتشاف ، أنه تمكن بواسطة الرقى ، من أن يفتن لب جلالته ، حتى اضطره الى منحه اذنه وثقته فى أى شىء خيله له ، وتمكن بهذه الوسيلة من التصرف فى جميع الأمور طبقا لارادته التعسفية الخاصة •

وكان يهب لمن يشاء الحكومات والوظائف العامة ، ويصدر الأحكام على جميع المدنيين ، وعندما يحس ميلا الى التضحية بأى رجل يحمل له فى نفسه ضغنا ، لم يكن عليه الا أن يتوجه الى الامبراطور ويقول له : « ان هذا الشخص ارتكب ذنبا فى حق جلالتكم يستحق عليه الموت » • وهو أمر اعتاد الامبراطور أن يجيب عنه بقوله : «افعل ما يحلو لك»، فيأمر به على الفور فيعدم • وكانت الأدلة على السلطة التى

يملكها ، وعلى ايمان جـلالته المطلق بما يعرضـه عليه من الوضوح بحيث ان أحدا من الناس لم يكن لديه الجرأة عـلى مناقضته فى أى شىء ، كما أن شخصا ، مهما علت رتبته أو منصبه لم يكن الا أن يعيش فى رهبة منه • فان هو اتهم أى انسان بارتكاب جريمة قتل فانه مهما بلغ من اهتمامه بتبرئة نفسه ، لم يكن ليملك الوسيلة لتفنيد التهمة الموجهة اليه • لأنه ما كان يستطيع الحصول على محام • اذ لا يجرؤ أحـد على معارضة ارادة اتشمك ، وبهذه الوسائل تمكن من انزال الموت ظلما بكثير من الناس •

وفوق هذا، فان أية أنثى حسناء تصبح غرضا لشهوانيته لم يكن مفر من أن يتحايل على اقتناصها ، اما باتخاذها زوجة ان كانت غير متزوجة ، والا فانه يجبرها عـلى الخضـوع لرغباته •

وكان اذا بلغه أن لأى رجل ابنة جميلة ، أرسل رسـله الى والد الفتاة وزودهم بالتعليمات بأن يقولوا له : « ماذا تنوى أن تفعل بابنتك الجميلة هذه ؟ لن تجد سبيلا أحسن من تزويجها من نائب الملك أو وكيله » (٢) أى من أتشمك . وذلك لأنهم هكذا كانوا يسمونه ، للدلالة عـلى أنه (ممثـل جلالته) • « سنتوسط لديه حتى نقنعه بأن يعينك حاكمـا على كذا أو فى وظيفة كذا مدة ثلاث سـنوات » • فاذا سـال لعابه وتم اغراؤه على هذا النحو رضى أن يفارق طفلته ، فاذا بلغ تدبير الأمر الى هـذا المدى ، انقلب أتشـمك الى الامبراطور وأبلغ جلالته أن هنـاك وظيفـة حاكم معينـة شاغرة ، أو أن المدة التى يشغلها فيها شاغلها سـتنتهى فى يـوم كيت ويرشح والد الفتاة مزكيا اياه بأنه شـخص له كل المؤهلات اللازمة لتولى ذلك المنصب فيوافق جلالته عـلى ذلك وينفذ على الفور • وبمثل هذه الوسائل تمكن ، اما عن طريق الطمع فى الحصول على الوظائف الكبيرة • أو الخوف

من سلطانه وبطشه ، من الوصول الى التضحية له بأجمل الشابات ، اما باسم الزوجية واما بوصفهن رقيق شهواته •

وكان له أولاد بلغ عددهم خمسة وعشرين ، كانوا يشغلون آعلى المناصب فى الدولة واستغل بعضهم ، سلطان آبيهم، فأنشأوا علاقات زنا أثيمة وارتكبوا أعمالا كثيرة أخرى فظيعة ومحرمة • وجمع أتشمك كذلك ثروة عظيمة ، وذلك لأن كل من شاء تعيينا فى وظيفة وجد من الضرورى له أن يقدم اليه هدية فاخرة •

وظل أثناء مدة اثنين وعشرين عاما يمارس هذا السلطان المطلق (٣) • وأخيرا لم يعد سكان البلاد ، أى الكاثائيون ، قادرين على تحمل أعماله الظالمة المتضاعفة ولا الشرور الصارخة التى كانت ترتكب ضد عائلاتهم ، فعقدوا الاجتماعات لتدبير الوسائل لقتله ورفع لواء العصيان على الحكومة •

وكان بين الأفراد المشتغلين بوجه رئيسى فى هذه المؤامرة كاثائى يدعى تشن كو ، وهو كبير على ستة آلاف رجل ، كان يتحرق حنقا على ما أصابه من اغتصاب لأمه وزوجته وابنته ، فرسم الخطة لأحد مواطنيه ، وهو يدعى فان كو ، وكان على رآس عشرة آلاف رجل (٤) ، وأوصى بان يكون التنفيذ فى اللحظة التى يرحل فيها الخان الأعظم ، بعد اتمامه مدة الشهور الثلاثة التى يقيمها بكانبالو ، الى قصره بشان دو(٥) ، وبعد آن ينسحب ابنه تشنجيز أيضا للاستجمام فى المكان الذى اعتاد أن يرتاده فى ذلك الفصل حيث يعهد بالمدينة الى أتشمك ، فيبلغ الى مولاه كل ما يجد من أمور أثناء غيابه ، ويحصل مقابل ذلك على آيات مرضاته • فلما أن أتم فان كو وتشن كو عقد هذا التشاور معا ، أبلغا خطتهما الى بعض الشخصيات القائدة بين الكاثائيين، فأبلغوها بدورهم الى أصدقائهم بكثير من المدن الأخرى •

ومن ثم تم الاتفاق بينهم على أنه ، في يوم محدد ، فور رؤيتهم اشارة بشكل نار ، ينبغى لهم أن يهبوا ويقتلوا كل ذى لحية ، مع مد الاشارة الى أماكن اخرى ، حتى يتم تنفيذ نفس الشىء بكل أرجاء البلاد .

وكان معنى التمييز فيما يتعلق باللحى هو التالى ، انه بينما الكاتائيون أنفسهم عديمو اللحى بالطبيعة ، فان التتار والمسلمين والمسيحيين يرخون لحاهم (٦) ، وينبغى ان يفهم ان الخان الأعظم نظرا لأنه لم يحصل على السيادة في كاثاى بأى حق قانونى ، ولكن بحد السيف وحده ، كان عديم الثقة بالسكان ، ومن ثم فانه أسلم جميع وظائف الحكم بالولايات وجميع الرياسات للتتار والمسلمين والمسيحيين وغيرهم من الأجانب ، ممن يدينون بالولاء والانتماء لأسرته وقصره ، وهم من يمكنه أن يثق فيهم .

ونتيجة لهذا امتلأت قلوب السكان كافة بالكراهية لحكومته ، خاصة وقد وجدوا انفسهم يعاملون معاملة الرقيق من هؤلاء التتار ويلقون من المسلمين معاملة أسوأ وأسوأ(٧)!

حتى اذا تم لهما ترتيب خططهما على هذا النحو ، تحايل فان كو وتشن كو على الدخول الى القصر ليلا ، وأمر الاول وقد اتخذ مجلسه على أحد المقاعد الملكية ، باضاءة أنوار الجناح جميعا ، وأرسل الى أتشمك رسولا ، وكان يسكن فى المدينة القديمة ، يطلب حضوره فورا لمقابلة تشنجيز ، ابن الامبراطور ، الذى (يجب على الرسول أن يقول) وصل على غير انتظار فى تلك الليلة . ودهش أتشمك كثيرا لهذا الخبر، ولكن نظرا لشدة خوفه من الأمير ، لم يسعه الا أن يطيع على الفور (٨) .

وعند مروره من بوابة المدينة (الجديدة) ، التقى بضابط تترى يسمى كوغاتاى ، وهو قائد حرس عدتهم اثنا عشر ألفا ، فسأله الى أين هو ذاهب فى تلك الساعة المتأخرة .

فأجابه بأنه ذاهب ليكون فى حضرة تشنجيز وخدمته ، الذى سمع بمقدمه من فوره ٠

فقال الضابط : « كيف يمكن ان يكون وصل بمثل هذه السرية الشديدة ، بحيث لم اعلم بوصوله فى وقته لكى امر كوكبة من حرسه بمرافقته ؟ (٩) » وفى الحين نفسه تأكد الكاثائيان أنهما لو نجحا فقط فى قتل أتشمك ، فلن يخافا شيئا بعد ذلك ٠ وعند دخوله القصر ورؤيته الأنوار الكثيرة المضاءة ، خر ساجدا على الأرض أمام فان كو ، ظانا انه الامير ، وهنا فصل تشن كو ، وقد وقف هناك شاهرا سيفه . راسه عن جسده ٠

وكان كوغاتاى توقف عند الباب ، ولكنه عندما شاهد ما جرى ، صاح بأن هناك خيانة ، ثم أرسل على الفور سهما الى فان كو وهو جالس على العرش فأرداه قتيلا ٠ وعندئذ دعا رجاله ، فألقوا القبض على تشن كو ، وأصدر أمرا الى المدينة باعدام كل من وجد خارج البيوت فورا ٠ على أن الكاثائيين ، وقد أدركوا أن التتار اكتشفوا المؤامرة ، وقد حرموا أيضا من زعيميهم ، اللذين قتل أحدهما وأودع الآخر السجن ، لزموا بيوتهم ، ولم يتمكنوا من عمل الاشارات الى المدن الأخرى ، على ما جرى عليه الاتفاق ٠

وعلى الفور أرسل كوغاتاى رسلا الى الخان الأعظم ، مع سرد مفصل لكل ما حدث ، فجاءه الرد توجيهها بأن يقوم بتحقيق دقيق فى الخيانة وأن يعاقب كل من وجده مشتركا فى الجريمة على قدر اشتراكه فيها ٠

وفى اليوم التالى استجوب كوغاتاى جميع الكاثائيين ، وأنزل على المتآمرين الرئيسيين عقوبة الاعدام ٠ وتم مثل ذلك بالنسبة للمدن الأخرى التى عرف انها اشتركت فى الجريمة ٠

ولما أن عاد الخان الأعظم الى كانبالو ، أبدى رغبة فى معرفة أسباب ما حدث، وعندئذ علم أن آتشمك ـ سيىءالسير هو وسبعة من أولاده (ان لم يكونوا جميعا مذنبين بالمثـل) اقتفوا تلك الكبائر الشنيعة التى سبق وصـفها • فأصـدر اوامره بنقل الثروة التى جمعها المتوفى آكداسا لا يصدقها عقل ، من مقر اقامته فى المدينة القديمة الى الجديدة حيث أودعت خزائنه الخاصة• تم وجه كذلك آمرا بأن تنبش جثته من قبره ، وتلقى فى الشارع لكى تنهشها الكلاب وتمزقها اربا (١٠) •

فأما الأبناء الذين حذوا حذو أبيهم فيما اقترف من آثام، فامر بهم فسلخوا أحياء • واذ أنعم التفكير أيضا فى مبادىء طائفة المسلمين الملعونة (كذا !! ؟؟) ، التى تتسامح وإياهم فى ارتكاب كل جريمة وتسمح لهم بقتل كل من اختلف عنهم فى العقيدة (كذا !!؟؟) ، بحيث انه حتى أتشمك البغيض، نفسه هو وأبناؤه لربما ظنوا أنفسهم أبرياء مطهرى الأيدى من كل اثم ، فانه وضعهم موضع الاحتقار والمقت الشديد • وتبعا لذلك ، فانه استدعى هؤلاء القوم للمثول بين يديه ، وحرم عليهم مواصلة أداء كثير من الأعمال التى تفرضهـا عليهم شريعتهم(١١) ، وأصدر أمره اليهم بأن يكون زواجهم مستقبلا وفق نظم التتار وعرفهم ، وأنه بدلا من طريقة قتل الحيوانات لتؤكل بذبحها من حلوقها، ينبغى عليهم أن يبقروا بطونها • وفى الوقت الذى حدثت فيه هـذه الأحداث كان ماركو بولو موجودا عن قرب •

والآن سننتقل الى كل ما يتصل بتأسيس البـلاط الذى يقيمه الخان الأعظم •

الفصـــل التاسع

عن الحرس الخاص للخان الأعظم ٠

يتألف الحرس الخاص للخان الأعظم ، كما هو معلـــوم للجميع ، من اثنى عشر ألف فارس ، يطلق عليه اسم كاسيتان « Kasitan » ومعناها « الجند المخلصون لسيدهم » (١) ومع هذا ، فليس مرد احاطته بحرســـه أن هنـــاك اى مخـــاوف تساوره ، ولكن ذلك يعد مسألة أبهة رسمية ٠ وهؤلاء الجند الاثنا عشر ألفا يقودهم أربعة ضباط عظام ، كل واحد منهم على رأس ثلاثة آلاف ، وكل ثلاثة آلاف منهم تقـــوم بأعمال مستديمة فى القصر ، لمدة ثلاثة أيام متعاقبة بلياليها ، فاذا انتهت المدة حل محلهم فريق آخر ٠ فاذا أتمت الفرق الأربع أداء واجبها ، عاد الدور على الأولى مرة ثانية ٠ وفى أثنـــاء النهار ، لا يغادر القصر التسعة آلاف الذين ليست عليهـــم نوبة الحراســـة ، مع ذلك الا متى كانوا يعملون فى خـــدمة جلالته ، أو كان أفرادها يستدعون لبعض شئونهم المنزلية ٠ وفى تلك الحالة ينبغى لهم الحصـــول عـــلى اذن بالتغيب عن العمل من ضابطهم المتـــولى الامرة ، واذا حدث ، نتيجة لأى حادث خطـــير ، كأن يكـــون والد له أو أخ أو أى قريب دانى القربى مشرفا على الموت ، مما يعرض عودتهم للتأخر ، وجب أن يتقدموا بالتماس الى جلالته لمد اجازتهم ٠ ولكن فى أثناء الليل يأوى هؤلاء الاثنا عشر ألفا الى ثكناتهم ٠

الفصل العاشر

عن الطريقة التى يعقد بها الخان الأعظم مجالسه العامة ، ويجلس على المائدة مع جميع نبلائه – وعن الطريقة التى يجرى بها فى القاعة استخدام أوعية الشراب المصنوعة من الذهب والفضة ، والمملوءة بلبن الأفراس والنوق – وعن المراسم التى تحدث عندما يشرب ٠

عندما يعقد جلالته مجلس بلاط فخيم وعلنى، يجلس من يحضرونه على الترتيب التالى : توضع مائدة الملك أمام عرشه المرتفع ، ويتخذ مجلسه فى الجانب الشمالى ووجهه متجه نحو الجنوب ، وتليه عن يساره الامبراطورة ، وعن يمينه على مقاعد أخفض قليلا أبناؤه وأحفاده وأشخاص آخرون يمتون اليه بأصرة الدم ، أى أنهم ممن ينحدرون من نفس الأرومة الامبراطورية ومع ذلك فان مقعد تشنجيز ، ابنه الأكبر ، يرتفع قليلا عن مقاعد أبنائه الآخرين ، الذين تكون رؤوسهم تقريبا عند مستوى قدمى الخان الأعظم ٠ فأما الأمراء الآخرون والنبلاء فأماكنهم الى مناضد أخفض أكثر، وتجرى مراعاة نفس القواعد فيما يتعلق بالاناث(١)، حيث تجلس زوجات أبناء الخان الأعظم وأحفاده وأقربائه الآخرين ، الى اليسار على موائد أخفض بالمثل تدريجيا ، ثم تجىء زوجات النبلاء والضباط العسكريين : حيث ان كلا منهم يجلس طبقا لرتبته ومنزلته فى المكان المخصص له ، والذى هو أهل له ٠ وترتب المناضد بطريقة تتيح للخان

الأعظم وقد جلس على عرشه المرتفع الاطلال على الجمع كله ٠ على انه لا يجوز ان يمهم ان جميع من يجتمعون فى هـــده المناسبات ، يمكن اجلاسهم الى موائد ٠ اذ عــلى عكس ذلك ، تتناول الغالبية الكبرى من الضباط (أو الموظفين) ، بل حتى من النبلاء ، طعامها جلوسا على بسط مدت فى القاعة ، كما يقف فى خارجها ، جمع غفير من الأشــخاص الذين يفــدون من أقطار مختلفة ، ويجلبون معهم كثيرا من الأشياء النادرة والعجيبة ٠ وبعض هؤلاء مقطعون : (أصحاب اقطاعيات) يرغبون فى اعادتهم الى ممتلكات ســحبت منهم ، ويظهــرون دائما فى الأيام المخصصة للاحتفالات العامة ، أو مناســبات الزيجات الملكية (٢) ٠

وتوجد وسط القاعة التى يجلس فيها الامبراطور الى مائدته ، قطعة فاخرة من الأثاث ، جعلت فى شــكل خــزانة مربعة ، طول كل جانب فيهــا ثلاث خطوات ٠ وقد حفــرت عليها حفرا أنيقا أشــكال الحيــوانات ، وموهت بالذهب ٠ وهى مجوفة من الداخل ، ليودع بها زهرية ضخمة قد صورت بشكل جرة ، وصنعت من مواد نفيسة ، وحسب لها أن تتسع لما يقارب برميلا كاملا ، وقد ملئت بالخمر (٣) ٠ ويقف على كل جانب من جوانبها الأربعة وعاء أصغر ، تقــارب ســعته البرميل الكبير ، وأحدها مملوء بلبن الأفراس وآخر بلبن النياق وهكذا دواليك بالنسبة للآخرين حسب أنواع الشراب المستعمل (٤) ٠

وتوضع فى هذا الصوان (البوفيه) أيضا الأقداح أو القنانى الخاصة بجلالته ، والتى يقدم فيها الشراب ٠ ومنها ما هو مصنوع من الصفائح المذهبة الجميلة (٥) ٠ وحجمهــا من الكبر بحيث انها حين تملأ بالنبيذ أو غيره من الأشربة ، يصبح ما فيها كافيا لثمانية رجال أو عشرة ٠

وتوضع واحدة من هذه القنانى (٦) أمام كل شخصين ممن لهم مقاعد على الموائد ، مع ضرب من المغرفة صنع بشكل

فنجان له يد ، وهو أيضا مصنوع من صفائح المعدن النفيس ، لكى تستخدم لا فى اخراج النبيذ من القنينه فقط . ولدن ئى رفعه الى الرأس . ويراعى هذا فيما يتعلق بالنساء مثلما يراعى بالنسبة للرجال أيضا . وما يملكه جلالته من أدوات المائدة المصنوعة من نفيس المعدن شيء لا يصدقه عقل من حيث المقدار والنفاسة (٧) . ويعين أيضا مسئولين لهم مكانتهم ، يتعين عليهم التحقق من ان جميع الغرباء الذين يتصادف وصولهم ساعة الحفل ، والذين يجهلون آداب اللياقة (الايتكيت) المتبعة فى البلاط ، قد حصلوا على أماكن مناسبة ، كما أن هؤلاء المشرفين على الموائد يواصلون على الدوام المرور بكل جزء من أجزاء القاعة ، ليسألوا الضيوف عما اذا كانوا لم يقدم اليهم شيء ما ، أو عما اذا كان أى واحد فيهم يرغب فى شيء من الخمر أو اللبن أو اللحم أو غيرها من الأشياء ، وفى تلك الحالة يقدم اليهم الخدم الشيء المطلوب فورا (٨) .

ويقف عند كل باب من أبواب القاعة الكبرى ، أو أى جزء آخر يتصادف وجود الخان الأعظم بداخله ضابطان ضخما الجثة ، واحد على كل جانب من جانبى الباب ، وقد أشهرا هراوتيهما ، بقصد منع أى شخص من أن يمس بقدمه عتبة الباب وارغامه على الابتعاد عنها . فان حدث بمحض الصدفة أن وقع انسان فى هذا الجرم ، جرده هذان الحاجبان من ثوبه ، وتحتم عليه أن يسترده بالمال ، واذا هما لم يأخذا الرداء ، أنزلا به عددا من الضربات بقدر ما لهما الحق فى انزاله . ولكن ، لما كان من الممكن ألا يعرف الغرباء نبأ هذا الخطر ، فقد عين بعض الضباط لادخالهم ، ومنهم يتلقون التحذير من فعل ذلك ، ويتخذ هذا الاحتياط لأن مس العتبة يعتبر هناك فأل سوء (٩) . على أنه قد يحدث أثناء مغادرة الحضور القاعة العامة أن يكون بعضهم متأثرا بالشراب فيستحيل عندئذ التحرز من تلك الحادثة وعندئذ لا يتم

تنفيذ الأمر بدقة (١٠) • ويتحتم على الأفراد الكثيرين الذين يتولون الخدمة عن خوان جلالته ، والذين يقـدمون اليـه الطعام والشراب ، أن يغطوا أنوفهم وأفواههم بأقنعة جميلة أو غلالات من الحرير المشغول ، مخافة أن تتأثر أطعمته أو نبيذه بأنفاسهم • فاذا طلب جلالتـه الشراب وقدمه اليـه الوصيف المنوط ، تأخر ثلاث خطوات ثم ركع ، وعند ذلك ينطرح على الارض منبطحين مثله رجال البلاط والحاضرون جميعا وفى نفس اللحظة ، تشرع فى العـزف جميع الالات الموسيقية التى تحملها فرقة كثيرة العـدد ، ولا تبرح تعزف حتى يكف جلالته عن الشراب ، وهنـا يعـود الجمع كله الى الوضع السوى ، وتتكرر هذه التحية المترعة بالتبجيل كلمـا شرب جلالته قدحا(١١) ولا حاجة بنا أن نتحدث عن الأطعمة، لأنه من الممكن تماما أن نتصور أن وفرتها مفرطة جـدا • فاذا انتهت الوليمة ، ورفعت الموائد ، دخل القاعة أشـخاص مختلفو الأوصاف ، بينهم فرقة من الكوميديين واللاعبين على آلات مختلفة ؛ كما يدخلها كذلك البهلوانات والحواة الذين يعرضون مهارتهم بحضرة الخان الأعظم ، ويحظون بسرور المشـاهدين العظيم ومرضـاتهم (١٢) • فاذا انتهت تلك الألعاب ، تفرق الناس ، وعاد كل الى بيته •

الفصل الحادى عشر

عن العيد الذى يقام بجميع ممتلكات الخان الأعظم فى اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر ، وهو يوم عيد ميلاده .

يحتفــل جميع رعايا الخــان الأعظم من تتار وغيرهم بيوم ميلاد جلالته عيدا ، وهو اليوم الثامن والعشرون من سبتمبر (١) ، وهذا هو أعظم أعيادهم ، بعد استثناء العيد الذى يقام فى رأس السنة ، وسيجىء وصفه فيما بعــد . وفى يوم هذا العيد السنوى يبرز الخان الأعظم أمام الناس فى ثوب فاخر من قماش الذهب ، وفى نفس المناسبة يكسو عشرين ألفا كاملة من النبلاء وضباط الجيش بأكسية تماثل كساءه من حيث اللون والشكل ، وان لم تكن المواد المصنوعة منها الأكسية تعادل ما للملك فى الفخامة . ومع هذا فهى من خالص الحرير المصبغ بلون الذهب الابريز (٢) ، ثم انهم يتلقون مع الأردية ، أيضا نطاقا من جلد الأروى (الشمواه) مشغولا شغلا عجيبا بخيوط الذهب والفضة ، وكذلك زوجا من الأحذية (٣) . وبعض الأكسية مزينة بقدر من الأحجار الكريمة والدرر (اللآلىء) ، تصل قيمته الى ألف بيزنط من الذهب ، كمــا انهــا ينعم بها على قرب النبــلاء الى شــخص الامبراطور ، حسب درجة الثقة بهم فى المهام التى توكل اليهم ويسمون كويستارى (٤) ، ويتعين أن ترتدى هذه الأكسية فى الاحتفالات المهيبة الثلاثة عشر التى تقام فى الشهور القمرية الثلاثة عشر فى السنة (٥) ، حين يظهر من يرتدونها بمظهر ملكى حقا . وعندما يتخذ جلالته أى رداء بعينه ، يرتدى

نبلاء بلاطه اردية مقابلة لرداء الامبراطور ، وان تكن أقل نقطة ، وهى جاهزة على الدوام (٦) والثيـاب لا تجدد كل عام ، ولكنها بعكس ذلك تصنع بحيث تدوم عشر سنوات . ومن هذا الاستعراض يمكنكم أن تكـونوا فكرة عن أبهـة الخان الأعظم وفخامته ، التى لا تضارعها فخامة أى عاهل فى العالم كله .

وفى مناسبة هذا الاحتفال بعيد ميلاد الخان الأعظم ، يرسل اليه جميع رعاياه من التتار ، وكذا شعب كل مملكة وولاية فى طول ممتلكاته وعرضها ، هدايا نفيسة ، طبقـا لعادة مرعية مقررة . وكذلك أيضا يقـدم الهدايا كثير من الأفراد الذين يتوافدون الى البلاط، التماسا لامارات يدعون فيها بعض الحقوق ، وتبعا لذلك يعطى جلالته التوجيهات الى محـكمة الاثنى عشر ، الذين أوتوا الدراية بتلك الأمور ، بأن يعهـد اليهـم بما تـراه مناسـبا من ولاية الأقاليـم والحكومات (٧) ، وفى هـذا اليوم أيضـا ، يرفع جميـع النصارى والوثنيين والمسلمين ، ومعهم بقية الناس من جميع الأصناف والأوصاف ، الصلوات الحارة الصادقة كل الى ربه أو وثنه ، أن يبـارك المليك ويهبـه طـول العمر والعافيـة والرفاهية . وما أبلغ الابتهاجات والتفاريح بعودة عيد ميلاد جلالته !! .. وسنحدثك الآن عن عيد آخر ، يسمى بالعيد الأبيض ، الذى يقام عند بداية السنة .

الفصل الثانى عشر

عن العيد الأبيض ، الذى يقام فى أول ايام شهر فبراير ، لأنه رأس السنة عندهم ـ وعن عدد الهدايا التى تقدم عندئذ ـ وعن المراسم التى تحدث عند مائدة نقش عليها اسم الخان الأعظم .

من المؤكد تماما أن التتار يؤرخون بداية سنتهم بأول فبراير (١) ، ولهذه المناسبة جرت عادة الخان ، وكذا كل رعاياه ، بمختلف بلادهم ، أن يرتدوا البياض ، الذى هو حسب معتقداتهم علامة الحظ السعيد (٢) ، كما أنهم يرتدون هذا اللون عند بداية السنة ، على أمل أنه على طول مدى تلك السنة ، لا يحدث لهم الا كل ما هو سعيد وأن يحظوا بالمسرة والراحة .

وفى هذا اليوم يبادر سكان جميع الولايات والممالك الذين يملكون الأراضى أو حقوق الاختصاص الادارية أو القضائية تحت ولاية الخان الأعظم ، بارسال الهدايا الثمينة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، ومعها قطع كثيرة من القماش الأبيض ، التى يضيفونها الى الهدايا ، بنية أن يحظى جلالته على طول السنة بأكملها بسعادة لا تنقطع ، وأن يملك من الكنوز ما يكفى لنفقاته كلها . وبنفس هذه النظرة يتبادل النبلاء والأمراء وجميع مراتب المجتمع هدايا مماثلة من مواد بيضاء بمنازلهم ، حيث يتعانقون بين مظاهر الفرح والابتهاج والتعييد وقولهم (كما جرت عادتنا نحن أنفسنا

فعل ذلك) ، « نرجو أن يلازمك الحظ السعيد طوال السنة المقبلة ، وأن ينجح كل ما تقوم به من اعمال حسبما تتمنى » (٣) • وفى هذه المناسبة تهدى الى الخان الأعظم أعداد كبيرة من الخيول البيضاء ، فان لم تكن تامة البياض فانه يكون على الأقل هو اللون السائد فيها والخيول البيضاء ليست شيئا غير شائع بهذه البلاد •

وفوق هذه فقد جرت العادة فى تقديم الهدايا الى الخان الأعظم ، لمن فى طوقهم تقديمها أن يقدموا تسعا مضروبة فى تسع من المادة التى تتألف منها الهدية • وهكذا، لو فرض مثلا ، ان ولاية أرسلت هدية ، فان الرعيل ــ يحوى تسعا فى تسع ، أى واحدا وثمانين رأسا ، وهكذا أيضا شأن الذهب ، أو القماش ، حيث يقدمون قطعا عدتها تسعا فى تسع (٤) ، وبهذه الوسيلة يتلقى جلالته فى هذا الانتقال مالا يقل عن مائة ألف حصان • وفى هذا اليوم تعرض فيلته التى تبلغ الخمسة آلاف عدا فى موكب طويل وعليها أغطية من القماش ، مشغولة شغلا بديعا وثقيلا بالذهب والحرير ، يمثل صور الطير والوحش (٥) • ويحمل كل فيل منها على كتفيه خزانتين مملوءتين بآنية الذهب والفضة وغيرها من الأجهزة اللازمة لاستخدام البلاط ، ثم يجىء قطار من الابل، محمل بالمثل بمختلف قطع الأثاث اللازمة (٦) • فاذا تم تنظيمها نظاما حسنا ، مرت فى موكب استعراض أمام جلالته وشكلت منظرا سارا للناظرين •

وفى صباح الاحتفال ، وقبل مد المناضد ، يدخل الى القاعة الكبرى أمام الامبراطور ، جميع الأمراء والنبلاء على اختلاف مراتبهم (٧) ، والفرسان والمنجمون ، والأطباء ، ومدربو الصقور مع كثيرين غيرهم ممن يتولون الوظائف العامة ، والنظار الذين يتولون شئون الناس وشئون الأرض (٨) ، فضلا عن ضباط الجيش • فمن لم يستطع الحصول على مكان فى الداخل ، وقف خارج المبنى ، فى موقع

يكون فيه تحت بصر المليك ، وينظم الحشد بالطريقة التالية : فتخصص الآماكن الآولى لأبناء جلالته وأحفاده وجميع أفراد الأسرة الامبراطورية • ويلى هؤلاء ملوك الاقاليم (٩) ونبلاء الامبراطورية ، حسب درجاتهم العديدة فى تعاقب منتظم • فاذا حل كل امرىء فى المكان المخصص له ، ينهض شخص ذو مكانة عالية ، أو كما قد تقول ، مطران عظيم (١٠) ويقول بصوت عال : «انحنوا وقدموا التبجيل»، فينحنى الجميع توا حتى تلمس جباههم الأرض • وللمرة الثانية يصيح المطران : «ليبارك الله مولانا وليحفظه طويلا مستمتعا بالسعادة !» فيجيبه الناس قائلين : «اللهم استجب!». ويعود المطران فيقول مرة أخرى : «فليزد الله امبراطوريته عظمة ورفاهية ، وليحفظ كل من هم له رعايا رافلين فى بركات السلام والرضا ، وليعم الخير الوفير كل أراضيهم ! » فيجيب الناس ثانية : «اللهم استجب!» • وعندئذ ينطرحون على الأرض سجدا أربع مرات (١١) • فاذا تم هذا تقدم المطران الى مذبح ، مزين أجمل زينة ، قد وضعت عليه لوحة حمراء خط عليها اسم الخان الأعظم • وتقوم الى جوار هذا المذبح مبخرة يحرق فيها البخور ، ويعطر بها المطران بالأصالة عن كل الحاضرين ، اللوحة والمذبح بطريقة ملؤها الاجلال ، وعندئذ يخر كل الموجودين ساجدين بخضوع أمام اللوحة (١٢) • فاذا تم هذا المرسم ، عادوا الى أماكنهم ، ثم قدم كل هديته ، على الوجه الذى سلف ذكره • وبعد أن يعمل عرض لهذه الهدايا ، ويلقى الخان الأعظم نظرة عليها ، تعد الموائد للوليمة ، ويرتب الحضور ، رجالا ونساء ، أنفسهم هناك على الوجه الذى ورد وصفه بفصل سابق • وعند رفع الأطعمة ، يتقدم الموسيقيون والممثلون المسرحيون بعروضهم لتسلية البلاط ، على الصورة التى رويت آنفا •

ولكن فى هذه المناسبة يقاد أسد الى حضرة جلالته ، هو من بالغ الاستئناس بحيث يصبح مدربا على أن يرقد عند قدميه (١٣) ومتى تمت هذه الألعاب انصرف كل الى وطنه •

الفصل الثالث عشر

عن مقدار الصيد الذى يصاد ويرسل الى البلاط اثناء شهور الشتاء .

يصدر الخان الأعظم ، أثناء الموسم الذى يسكن فيه بعاصمة كاثاى ، أى أثناء شهور ديسمبر ويناير وفبراير ، وهو الوقت الذى يشتد فيه زمهرير البرد ، أوامره بخروج جماعات القنص بصفة عامة للصيد بجميع الأقاليم الواقعة على أربعين مرحلة من البلاط ، ويطالب حكام النواحى أن يرسلوا الى المقر الامبراطورى جميع أنواع الصيد فى أكبر أحجامها ، مثل الخنازير البرية والظباء والأيائل السمراء ، والوعول والدببة ، التى تصاد بالطريقة التالية : يعكف كل الأشخاص الذين يمتلكون أرضا بالولاية ، على الأماكن التى توجد بها هذه الحيوانات ، فيطوقونها داخل دائرة ، ثم يقتلونها ، بعضها بواسطة الكلاب ولكن فى الأغلب برميها بالنبال (١) . فما استقروا على ارساله الى جلالته تنزع أحشاؤه أولا لهذا الغرض ، ثم يرسله على عربات بكميات كبيرة من يقيمون فى حدود ثلاثين مرحلة من العاصمة . فأما من يبعدون أربعين مرحلة فانهم فى الواقع لا يرسلون جثث الصيد ، بسبب بعد الشقة ، ولكن يرسلون جلوده فقط ، بعد تجهيز بعضه دبغا وترك البعض الآخر ادماخا (جلدا) ، لكى يستخدم فى أغراض الجيش حسبما يقرره جلالته ويراه صالحا .

الفصل الرابع عشر

عن الفهود والأوشاق المستخدمة فى صيد الغزلان ـ وعن الأسود المعودة على مطاردة مختلف الحيوانات ـ وعن النسور التى تـدرب على امسـاك الذئـاب •

يوجد لدى الخان الأعظم كثير من الفهود التى يحتفظ بها بقصد مطاردة الغزلان فضلا عن كثير من الأسود التى تكبر فى حجمها الأسود البابلية ، ولها غلاف حسن كما أنها تمتاز بلونها الجميل لأنها مخططة طوليا بخطوط بيضاء وسوداء وحمراء • وهى بالغة النشاط فى صيد الخنازير البرية ، وثيران وحمر الوحش ، والدببة والايائل والوعول ، وغيرها من البهائم التى تتخذ صيدا • وانه لمنظر رائع ، ذلك الذى يتجلى • عندما يطلق الأسد ليتعقب الحيوان ، وحين يشاهد التلهف الوحشى والسرعة الخاطفة التى يدركه بها •

ويأمر جلالته بنقلها لهذا الغرض فى أقفاص توضع فوق عربات (١) قد حبس فيهـا معها كلب صـغير ، تكونت بينه وبين الأسد ألفة • ويرجع حبسها على هذا النحو الى أنها اذا لم تحبس تصبح متوثبة وهائجة لدى رؤيتها القنائص بحيث يستحيل السيطرة عليها بالكبح الضرورى والأصـوب أن تحمل فى اتجاه مضاد للريح ، حتى لا تشمها القنائص ، فتفر هاربة على الفـور ولا تتيح فرصـة للصيد • ويملك جلالته أيضا نسورا دربت على الانقضـاض عـلى الذئاب ، وهى من الضخامة والقوة بحيث لا يستطيع ذئب مهما بلغت ضخامته الفرار من براثنها •

الفصل الخامس عشر

عن أخوين هما الموظفان الرئيسيان
المسئولان عن الصيد عند الخان الأعظم ·

يوجد فى خدمة جلالته شخصان ، هما اخـوان شقيقان لأب وام ، ويسمى أحدهما بيان(١) والآخر منجان، ويعملان فى وظيفة تسمى بلغـة التتار تشـيفتشى (٢) (Chivichi) أى « معاون الصيد » ، وهما المنوطان بكلاب الصيد السريـع منها والبطىء ، وبالدرواس : (التى هى كلاب حراســه ضخمة الجثة) ·

وكان تحت آمر كل من هــذين الرجلين جمـاعة من الصيادين مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، وكان من هم تحت امرة أحد الأخوين يرتدون بدلة رسمية حمراء ، ومن هم تحت امرة الآخر ، بدلة زرقاء سماوية ، كلمـا كانـوا فى الخدمة · ولا يقل عدد الكلاب ، على اختلاف أوصافها التى تصحبهم الى الميدان ، عن خمسة آلاف كلب (٣) · وكان أحد الأخوين مع فريقه ينزل الى الساحة عن يمين الامبراطور ، وينزل الآخر مع فريقه عن يسـاره ، ويتقـدم كل منهما بترتيب منتظم حتى يحيطا قطعة من الأرض ذرعها مسـيرة يوم كامل · وبهذه الوسيلة لا تفلت منهم بهيمة · وانه لمنظر جميل بهيج أن تشهد جهود الصائدين وذكاء الكلاب ، بينما الامبراطور داخـل الدائرة ، منشغل بالصـيد ، وعنـدما يشاهدون وهم يتعقبـون (مع الـكلاب) الأيائل والدبب وغيرها من حيوان ، فى كل اتجاه ·

والأخوان ملزمان بتزويد البلاط يوميا منذ بداية أكتوبر حتى نهاية مارس بألف قطعة من الصيد ، لا تدخل فيها السمانى ، وكذلك تزويده بالأسماك التى لابد من تقديم أكبر قدر ممكن منها ، مع تقدير السمكة التى يمكن ثلاثة رجال تناولها بقيمة قطعة واحدة من الصيد .

الفصل السادس عشر

عن شـــخوص الخان الأعظم الى
حلبة الصيد مع سـناقيره وصـقوره
ـ وعن مدرسى صقوره ـ وعن خيامه ·

عندما يقيم جلالتـه الفترة المعتـادة فى العاصمة ، ثم يغادرها فى شهر مارس يتقدم فى اتجاه شمالى شرقى ، حتى يصبح على مسيرة يومين من المحيط (١) ، وبصـحبته عشرة آلاف بالتمام من مدربى الصقور ، الذين يحملون معهم عددا هائلا من السناقر ، والبزاة الجوالة والصقور ، فضلا عن كثير من النسور ، وذلك بقصد ملاحقة الصيد على امتـداد ضفاف النهر (٢) ·

وينبغى أن يكون مفهوما أنه لا يحتفظ بهـذا الحشد من الرجال ، فى مكان واحد ، ولكنه يقسمهم الى مجاميع كثيرة تتكون كل منها من مائة أو مائتين أو أكثر ، يتولون مطاردة القنائص فى اتجاهات مختلفة فيجلبون الشطر الأعظم مما يصيدون الى جلالته ·

وهو يصحب معه أيضا عشرة آلاف رجل من يسـمون تاسكاؤل (٣) ، وهى كلمة تدل على أن يقـوموا بالحراسـة والمراقبة ، وهم ، من أجل ذلك ، مقسمون الى جماعات صغيرة مؤلفة من رجلين أو ثلاثة بمواقف لا يبعد الواحد منهـا عن الآخر كثيرا بطريقة يحيطون بها بقعة ضخمة من الأرض · وقد زود كل منهم بأداة لمحاكاة صوت الطريدة وطرطور ،

يتمدنون بهما عند الضرورة من محاكاة اصوات الطيور واامساكها ٠

ومتى صدرت الاوامر فتطير الصقور ، لم يدن من يطيرونها ملزمين بمتابعتها ، لأن الآخرين المكلفين بالمتابعه ، يترقبون ببالغ الانتباه حتى لا تتجه الطيور فى طيرانها الى اية جهة لا يمكن الحصول عليها فيها ، او المبادرة لمساعدتها فورا متى دعت الظروف الى ذلك ٠ ولكل طائر تابع لجلالته أو لأى فرد من نبلائه ، بطاقة فضية مثبتة فى ساقه ، قد نقش عليها اسم صاحبه وكذلك اسم حارسه ٠

ونتيجة لهذا الاحتياط فان الصقر بمجرد أن يعود ، يعرف على الفور اسم صاحبه ويعاد اليه تبعا لذلك ٠ واذا حدث أن ظهر الاسم ولم يكن صاحبه معروفا شخصيا لأول وهلة لدى من عثر على الصقر، حمل فى تلك الحالة الى موظف يسمونه « البولانجازى » (٤) ، وهو موظف يدل لقبه على أنه : « الحارس على الممتلكات التى لا يطالب بها أربابها » ٠ وبناء على هذا ، فمتى عثر رجل على حصان أو سيف أو طائر أو أية سلعة أخرى ، ولم يستطع الوصول الى صاحبه ، حمله مباشرة الى ذلك الموظف ، فيضمه الى عهدته ويحافظ عليه بعناية ٠ واذا حدث ، من ناحية أخرى ، ان وجد شيئا مفقودا ، ولم يحمله الى المستودع المخصص لذلك ، عد لصا ٠

ومن ضاع منه شىء يتقدم بطلبه الى الموظف ، فيرده اليه، وهم يجعلون موقعه على الدوام فى أعلى مكان فى المعسكر ، ويميزونه براية خاصة ، حتى ييسروا على من يشاءون التقدم بطلباتهم اليه مهمة العثور عليه بسرعة أكثر ٠ ونتيجة لهذه التعليمات لا تفقد الأشياء نهائيا بأية حال ٠

وعندما يقوم جلالته بجولته على هذا النحو ، ميمما شواطىء المحيط ، تحيط كثير من الأحداث المسلية بهذه

الرياضة ، حتى ليمكن هـذا القول بأن شـيئا من التسـلية لا يفوقها فى اى جزء من أجزاء المعمورة (٥) ٠

ونظرا لضيق الممرات فى بعض اجـزاء الاقليم الذى يتابع فيه الخان الاعظم الصيد ، فانه يحمل على فيلين فقط أو حتى على فيل واحد فى بعض الأحيان ، حيث يكون ذلك أكثر ملاءمة من عدد أكبر من الأفيال ، ولكن جلالته فى ظروف أخرى يستخدم أربعة من الفيلة ، يوضع على ظهورها جوسق أو هودج من الخشب ، قد حفر حفرا بديعا (٦) ، وقد بطن داخله بقماش الذهب وغطى ظاهره بجلود الأسود(٧) ، وهى وسيلة حمل ضرورية له أثناء رحلات صيده حتمتها اصابته بالنقرس ، الذى يكابد منه ٠ وهو يحمل معه على الدوام فى هودجه اثنى عشر من خيرة سناقره ، مع اثنى عشر ضابطا من بين المقربين لكى يؤنسـوه ويسمروا معـه ٠ ويخطـره من يمتطون خيولهم الى جواره باقتراب الكراكى أو غيرها من الطيور ، فيرفع ستار الهودج ، حتى اذا شاهد القنيصة أصدر تعليماته باطلاق السناقر التى تمسك بالكراكى ثم تتغلب عليها بعد صراع طويل ، ويجلب مرأى هذه الرياضة عـلى فؤاد جلالته ، وهو متكىء على نمرقته ، : (وسادته) ، مسرة عظيمة ، كما تسعد الضباط الذين يرافقونه والخيالة الذين يحيطون به ٠ فاذا استمتع جلالته على هذا النحو بهذه التسلية ، أمد بضع ساعات ، آوى الى مكان يسمى «كاكزارمودين»(٨) قد أقيمت فيه فساطيط وخيام أبنـائه وكذلك نبـلائه ، وحرسه الخاص (٩) ومدربى الصـقور ، وهم يتجـاوزون العشرة آلاف عدا ، ولهم منظر يسر الناظرين ٠

فأما خيمة جلالته ، التى يجرى فيها مقابلاته ، فهى من بالغ الطول والعرض بحيث يمكن أن يصطف فيها عشرة آلاف جندى مع ترك متسع للضباط العظام وغيرهم من ذوى المكانة العالية (١٠) ويواجه مدخلها الجنوب ، كما أنه توجد فى

جانبها الشرقى خيمة أخرى متصلة بهـا ، تؤلف صـالونا فسيحا ، يشغله الامبراطور عادة ، مع عدد قليل من نبلائه ، وعندما يرى من الصواب ان يتحدث الى أشخاص اخرين ، فانهم يدخلونهم عليه فى ذلك الجناح • ويوجد فى مؤخـرة هذا الجناح مخدع ضخم وجميل ، ينام فيه ، وهناك أيضا خيام وآجنحة كثيرة أخرى (خصصت لمختلف فروع خاصته) ، وأهل بيته ، ولكنها لا ترتبط ارتبـاطا مبـاشرا بالخيمة الكبرى • وتقام هذه الردهات والمخادع جميعا كما تؤثث كذلك على الطريقة التالية : فكل واحـدة منها تدعمها ثلاثة أعمـدة خشـبية ، محفورة حفرا جميلا ومموها بالذهب • وقد غشيت الخيـام من الخـارج بجلود الأسـود ، المخططة بالسواد والبياض والحمرة ، كما أنها من جـودة الالتحـام بعضها ببعض بحيث لا تستطيع اختراقها ريح ولا مطر •

وهى من الداخـل مبطنـة بفـراء القـاقم (الارمين) والسمور ، وهى أغلى أنواع الفراء كلها ثمنا ، وذلك لأن فراء السمور اذا كان مداه يكفى لصنع ثوب ، لبلغ ثمنـه ألفى بيزنطى من الذهب ، شريطة أن يكـون مبرأ من كل عيب ، فان لم يكن كذلك ما تجاوز ثمنه ألفا واحدة • ويغالى به التتار ويعـدونه ملك الفراء (١١) • والحيـوان الذى يسمونه بلغتهم رونذز (١٢) يقارب حجمه حجم فأرة الخيل • وبهذين النوعين من الجلود تقسم القاعات وكذا غرف النوم تقسيما جميلا الى مقاصير صغيرة ، تؤثث وتنظم فى شىء كثير من الذوق والمهارة • وطنب الخيام أى حبالها ، التى يشدونها بها مصنوعة كلها من الحرير •

وعلى مقربة من الخيمة الكبرى لجلالته توجـد خيـام نسائه ، وكلها جميلة الصنع فاخرة • ولديهن بالمثل سناقرهن وصقورهن وغيرها من الطيـور والبهـائم التى يشـتركن بواسطتها فى متعة اللهو (١٣) ولا يكاد عقل يصدق عـدد

الأشخاص الذين يجمعون في هذه المخيمات ، وان المشاهد قد يتصور نفسه موجودا داخل مدينة آهلة بالسكان ، فما أكبر ذلك الجمع المتقاطر من كل فج من الامبراطورية : ويحيط بالخان الاعظم فى تلك المناسبة جميع أفراد أسرته وخاصته وأهل بيته ، وأعنى بذلك أطباءه وفلكييه ومدربى صقوره ؛ وجميع ما عدا ذلك من أصناف الموظفين (١٤) ٠

ويظل بهذه الأصقاع حتى العشية الأولى لعيد القيامة(١٥) عندنا ، وهو لا يكف أثناء تلك الفترة عن ارتياد البحيرات والأنهار ، حيث يصطاد اللقلاق والبجع ومالك الحزين وأنواعا كثيرة من الطيور الأخرى ٠ ونظرا لأن رجاله كانوا يوزعون على أماكن مختلفة كثيرة ٠ فانهم كانوا يحصلون على مقادير ضخمة من القنائص ٠ وبهذه الطريقة كان يستمتع ، أثناء فصل لهوه ، بمتع لا يتصورها شخص لم يرها رأى العين ، اذ أن عظمة وضخامة الرياضة والطراد كانت أعظم من كل بيان ٠ ويحرم القانون تحريما تاما على كل تاجر أو حرفى أو ميكانيكى أو مزارع ، بكل ممتلكات جلالته ، الاحتفاظ بنسر ، أو صقر ، أو أى طير آخر يستخدم فى مطاردة الصيد ، ولا أى كلب للطراد ؛ ولا كان يجوز لأى نبيل ولا فارس أن يجرؤ على مطاردة بهيمة أو طائر بمكان يجاور المكان الذى يحل فيه جلالته (حيث تحدد المسافة بخمسة أميال ، مثلا فى جانب ، وعشرة فى جانب آخر ، بل ربما خمسة عشر ميلا فى اتجاه ثالث) ، ما لم يدرج اسمه فى قائمة يحتفظ بها كبير مدربى الصقور ، أو مالم يكن له امتياز خاص ينص على ذلك على أن الصيد مباح خارج تلك الحدود ٠ على أن هناك مع ذلك أمرا ، يحظر على كل شخص بكل أرجاء البلاد الخاضعة للخان الأعظم ، سواء أكان أميرا أم نبيلا أم فلاحا ، أن يتجاسر على قتل الأرانب والوعول والأيائل ، والظباء أو أى

حيوان من هذا القبيل ولا أى طيور كبيرة فى المدة بين شهرى مارس وأكتوبر ، وذلك بغية نموها وتكاثرها ، ولما كانت مخالفة هذا الأمر ، تقابل بعقوبة ، فان الصيد بجميع أوصافه يتزايد تزايدا هائلا . فاذا انقضت الفترة المعتادة ، عاد جلالته الى العاصمة ، بنفس الطريق الذى جاء منه ، مواصلا رياضة الصيد أثناء الرحلة كلها .

الفصل السابع عشر

عن الجمهرة الغفيرة من الأشخاص الذين لا يفتاون يؤمون مدينة كانبالو ويغادرونها ـ وعن تجارة هذا المكان .

يعقد الخان الأعظم عند عودته الى عاصمته ، جلسة عظيمة وفخمة للبلاط، تستمر ثلاثة أيام يأدبأثناءها المآدب، أو يقدم الملهيات والتسليات الى كل من يحيط به . والحق أن ملهيات هذه الأيام الثلاثة جديرة بالاعجاب . ولست أغالى ان قلت ان وفرة السكان ، وعدد المنازل بالمدينة فضلا عن الضواحى خارج المدينة (وعددها اثنا عشر ، تتقابل والاثنتى عشرة بوابة) ، شيء يتجاوز ما تدركه الألباب . بل الواقع ان الضواحى أكثر سكانا من المدينة نفسها ، وبها ينزل التجار وغيرهم ممن تدفعهم أعمالهم الى العاصمة ، والذين يأوون فى أعداد غفيرة بسبب كونها مقر البلاط ، والحق انه حيثما عقد جلالته بلاطه ، تقاطر هنالك هؤلاء الناس من كل صوب وحدب ، كل يجرى وراء هدفه . ويوجد بالضواحى أيضا مثل ما بالمدينة من الدور الرشيقة والمبانى الفخمة ، باستثناء قصر الخان الأعظم وحده .

ولا يجوز دفن أية جثة داخل حدود المدينة (١) ، كما أن جثث الوثنيين ، الذين من عاداتهم احراق موتاهم ، تحمل الى البقعة المعينة خارج الضواحى (٢) ، وهناك أيضا تنفذ جميع أحكام الاعدام العلنية . ولا تجسر النساء اللائى يحترفن البغاء ابتغاء المال ، على ممارسة مهنتهن فى المدينة .

الا ان يكون ذلك خفية ، اذ يتحتم عليهن أن يقتصرن على المكث فى الضواحى ، التى يقيم بها منهن ، كمـا اسـلدنا اليك ، ما يربو على خمس وعشرين الفا ، عـلى ان هـذا العـدد لا يتجاوز القدر الضرورى وجوده ، لهذا الحشـد الهائل من التجار وغيرهم من الغرباء ، الذين اذ يجتـذبهم البـلاط ، لا يبرحون يصلون الى المدينة ، ويغادرونها بلا انقطاع ، فالى هذه المدينة يوجه كل ما هو نادر وثمين بكل ارجاء العالم ، وهذا ينطبق عـلى الهند بوجه أخص ، التى تورد الأحجـار الكريمة واللآلىء ومختلف انواع العقاقير والأفاوية ·

ومن ولايات كاثاى نفسها وكذا من الولايات الأخـرى للامبراطورية ، يحمل الى هنـاك ما غلا ثمنه لموافاة هـذه الجماهير الغفيرة بمطالبها ، وهم الذين تحملهم ظروفهم على الاقامة قرب البلاط ·

هذا الى أن مقادير البضائع التى تباع هناك تفوق أيضا تجارة أى مكان آخر ، وذلك لأنه لا يقل عدد العربات وخيول التحميل ، المحملة بالحرير الخام ، التى تدخلها يوميـا ، عن ألف ، كما أن أنسجة الذهب والحرائر المختلفـة الأنـواع تصنع بوفرة هائلة (٣) · وتوجد بالمناطق المجاورة للعاصمة مدن كثيرة مسورة وغير مسورة ، يعيش سكانها بوجه رئيسى على البلاط ، ويحصلون من هناك مقابل ذلك على ما يحتاجون اليه ·

الفصل الثامن عشر

عن نوع العملـــة الورقيـــة التى اصدرها الخان الأعظم ، وأمر بتداولها بكل ارجاء مملكته .

توجد بمدينة كانبالا هذه دار سك النقود التابعة للخان الأعظم ، الذى يمكن أن يقال عنه حقا انه يمتلك سر صـــنعة الكيميائى القديم !! وبذلك يمتلك فن انتاج النقود باتباع الطريقـــة التالية (١) : فانه يأمر بنزع اللحاء من أشـــجار التوت ، التى تستخدم أوراقها لتغذية دودة القز ، ويأخذ منها تلك القشرة الداخلية الرقيقة التى تقع بين اللحـــاء اليابس الأخشن وخشب الشجرة . فتنقع تلك القشرة ثم تدق بعـــد ذلك فى هاون ، حتى تتحـــول الى عجينـــة ، يصـــنع منهـــا الورق (٢) ، الذى يماثل (فى مادته) الورق الذى يصنع من القطن ، ولكنه أسود تماما .

فاذا أصبح معدا للاستعمال ، أمر به فقطع ليكون نقدا ذا أحجام مختلفة ، وهو مربع تقريبا ، ولكن طـــوله أطـــول قليلا من عرضه . وأصغر هذه العملات يعد معادلا للدنيير التورنوازى (نسبة الى مدينة تور الفرنسية) ، ويعادل الحجم التالى غروتا Groat فضيا بندقيا ، وتعادل أخرى غروتين وخمسة وعشرة ، وثمة أخرى تعـــدل بيزنطيا واحـــدا من الذهب واثنين وثلاثة وما يصل الى عشرة (٣) .

وتعطى هـــذه العملة الورقيـــة شرعيتها بكل وقايات الشكل والمراسم كأنما هى مصـــنوعة من خالص الذهب أو

الفضة ، وذلك أنه فى كل عملة منها كان عدد من الموظفين ، المخصصين ، لا يقتصرون فقط على وضع أسمائهم ، بل يمهرونها بأختامهم أيضا ، فاذا صدرت هذه العملية منهم جميعا على المنوال المتبع ، يتولى كبيرهم ، المفوض من جلالته ، وقد غمس فى صباغ الزنجفر القرمزى الخاتم الملكى الموضوع فى حيازته ، ختم قطعة الورق به ، بحيث يبقى شكل الخاتم المصبوغ بالزنجفر مطبوعا عليها (٤) ، وبهذا تكتسب صفة الشرعية التامة لعملة متداولة ، ويعد تزويرها جريمة كبرى عقوبتها الاعدام (٥) ٠

فاذا تم سك هذه العملة الورقية هكذا فى مقادير كبيرة ، تدوولت بكل جزء من أجزاء دولة الخان الأعظم ، كما لا يجرؤ أى انسان — والا عرض حياته للموت — على رفض قبولها عملة للدفع ٠

ومن ثم فان كل رعاياه يتقبلونها بغير تردد ، وذلك لأنهم يستطيعون التصرف فيها ، باستخدامها ثانية فى شراء البضائع ، التى قد يحتاجون اليها ، مثل اللآلىء أو الجواهر أو الذهب أو الفضة وخلاصة القول ، ان فى الامكان الحصول بها على كل سلعة (٦) ٠

ويحدث عدة مرات على مدار السنة أن تصل قيروانات (قوافل) ضخمة من التجار ، تحمل السلع الوارد ذكرها توا ، ومعها المنسوجات الذهبية فيضعونها بين يدى الخان الأعظم وعندئذ يستدعى اثنى عشر شخصا من ذوى الخبرة والمهارة ، يختارون لهذا الغرض ، فيأمرهم بفحص السلع ببالغ العناية ، وتحديد القيمة التى ينبغى أن تباع بها ٠ ثم يسمح بمكسب معقول يضاف الى المبلغ الذى قدرت به البضاعة على هذا النحو من الضمير الحى ، ثم يدفع لهم الثمن على الفور بهذا الورق ، وهو أمر لا يستطيع أن يعترض عليه أصحاب البضاعة ، لأن هذا ، يتجاوب وأهداف انفاقاتهم ومصروفاتهم ٠

ومع انهم قد يكونون من سكان اقليم ، لا يتعامل فيه بهذا النوع من النقود ، فانهم كانوا يستثمرون المبلغ فى سلع تجارية أخرى تناسب أسواقهم الخاصة (٧) .

وعندما يتصادف أن يمتلك أى شخص نقودا ورقية بليت من طول الاستعمال ، فانه يحملها الى دار الضرب ، حيث يستطيع الحصول على أوراق جديدة بدلا منها مقابل دفع ثلاثة في المائة فقط (٨) . فان شاء أى امرىء الحصول على الذهب أو الفضة بقصد تصنيعها ، مثل صياغتها كؤوسا للشراب ، أو نطاقات (أحزمة) ، أو أية أشياء أخرى تصنع من هذه المعادن ، وجب عليه بالمثل التقدم بطلبه الى دار الضرب ، حيث يحصل فى مقابل ما بيده من عملة ورقية ، على ما يحتاج اليه من سبائك (٩) وتصرف أعطيات جيوش جلالته كلها بهذه العملة الورقية ، التى تعد عندهم على نفس قيمة الذهب أو الفضة وعلى هذه الأسس يمكن التأكيد حقا ، ان الخان الأعظم يملك فى حوزته قدرا من الأموال والكنوز يفوق كل ما يملكه أى عاهل آخر على وجه البسيطة .

الفصل التاسع عشر

عن مجلس الضـــباط الاثنى عشر العظام ، المعينين للاشراف على شئون الجيش ـ وعن اثنى عشر آخـــرين يتولون الشئون العامة للامبراطورية ٠

يختار الخان الأعظم اثني عشر نبيـــلا من ذوى المـــكانة الرفيعة والخطر (كما سبق ذكره) ، ويناط بهم الفصل في كل أمر يتعلق بالجيش ، كنقل الجند من موقع الى آخـــر ، وتغيير الضباط الذين يقودونهم ، واستخدام قوة من القوات متى دعت الضرورة الى ذلك ، وتحديد الأعداد التى يستصوب افرادها لأية خدمة معينة ، حسب درجة أهمية تلك الخدمة ٠

وفضلا عن هذه الأغراض، فان من واجبهم التمييز بين الضباط الذين قدموا آيات شجاعتهم فى ميدان القتال ، وبين من أظهروا فيه الخسة والجبن، حتى يرقوا الأوائل ويخفضوا رتب الثانين وهكذا متى ظهر أن قائد ألف (بكباشى) سلك سلوكا مشينا ، تخفض هـــذه المحـــكمة رتبته الى قائد مئـــة (يوزباشى) ، اذ تعده غير جدير بالرتبة التى يحملها ، أو ، لو أنه على عكس هذا ، أبدى من الصفات ما يؤهله للترقية ، عينوه قائدا لعشرة آلاف (فرقة) ٠ عـــلى أن هـــذا كله يتم بعلم جلالته ولابد من مصادقته عليه ، اذ يبلغونه تقريرا عن جدارة الضابط أو عدم جدارته ، فان هو صادق على قرارهم ، منح من رقي الى قيادة عشرة آلاف رجل (مثلا) ، اللوحة أو البراءة المتعلقة برتبته ، على ما وصفنا آنفا ، كما أنه ينعم

عليه بهدايا كبيرة ، ليستثير غيره على العمل علـى استحقاق نفس المكافآت ٠

وتسمى المحكمة المؤلفة من هؤلاء النبلاء الاثنى عشر ، باسم ثاى Thai ، ومعناها المحكمة العليا ، وذلك لأنها غير مسئولة الا أمام الملك (١) وحده وفضلا عن هذه المحكمة فان هناك محكمة أخرى تتألف بالمثل من اثني عشر نبيلا ، يعينون للاشراف علـى كل شيء يتعلق بحكومة الـولايات الأربـع والثلاثين فى الامبراطورية ٠ ولهؤلاء فى كانبالو قصر ضخم منيف أو محكمة يحوى كثيرا من الغرفات والقاعات ٠

ويتولى شئون كل ولاية هناك رئيس قانونى ، يتبعـه عدة كتبة ، ولهم أجنحتهم الخاصـة فى المحكمة ، وفيهـا يبرمون أى عمل ينبغى عمله للولاية التى اليها ينتسـبون ، وفق التوجيهات التى يتلقونها من محكمة الاثنى عشر ٠

ويملك هؤلاء سـلطة اختيار الأفراد الـواجب تعيينهم حكاما فى الولايات العديدة ، والذين تقـدم أسماؤهم الى الخان الأعظم للتصديق على تعييناتهم وتسليمهم لوحات الذهب أو الفضة حسبما تقتضيه مراتبهم ٠

ومن سلطاتهم أيضا الاشراف عـلى كل موضـوع يتعلق بجباية الضرائب من كل من الأراضى والجمارك ، فضـلا عن التصرف فيهـا ، كما أن فى يدهم الهيمنة عـلى كل مصلحة (هيئة) أخرى من مصالح الدولة ، باستثناء واحد فقط هو ما يتصل بالجيش من أمور (٢) ٠

وتسمى هذه المحكمة سينج وهى كلمة تدل عـلى أنهـا محكمة عليا ثانية (٣) ، وأنها مثل الأخرى مسـئولة فقط أمام الخان الأعظم وحده ، على أن المحكمة الأولى المسماة ثاى ، والتى تتولى ادارة الشئون العسكرية ، تعد أعلى فى المرتبة والكرامة من الثانية (٤) ٠

الفصـــل العشرون

عن الأماكن المبتنـــاة على جميع
الطرق الكبرى لتقديم خيول البريد ـ
وعن السعاة الساعين على اقدامهم ـ
وعن الطريقـــة التي تدفع بهـــا
النفقات ٠

تمتد من مدينة كانبـــالو طرق كثيرة تؤدى الى مختلف الولايات ، وتوجد على كل من هذه ، أعنى على كل طـــريق سلطانى كبير ، على مسافة خمسة وعشرين أو ثلاثين ميـــلا ، حســـبما اتفق أن وجدت مدينـــة ، محطات بهـــا دور لراحة المسافرين وتســـمى يامب Yamb أو دور البريد (١) ٠ وهى مبان ضخمة وجميلة ، بها أجنحة كثيرة جيدة التأثيث ، معلقة بها الأستار الحريرية ، ومزودة بكل ما يناسب راحـــة ذوى المكانة من الناس ٠ حتى لقـــد يستطيع الملوك أنفسهم النزول بهذه المحطات بطريقة لائقـــة (٢) ، وذلك لأن كل سلعة يحتاج اليها الأمر يمكن الحصول عليها من المدن والمعاقل الحصينة الموجودة فى المنطقة المجـــاورة ، كمـــا أن البـــلاط يزود بعضها بانتظام بما يلزم ٠

ويحتفظ بكل محطة بأربعمائة من جياد الخيل ، كلهـــا فى حالة استعداد مستمر ، حتى يتمكن جميع الرسل الذاهبين والغادين فى خدمة الخان الأعظم وأعماله ، وجميع السفراء ، من الحصـــول عـــلى أبدال ويزودوا ، اذ يتركـــون خيـــولهم المكدودة ، بخيول مستريحة (٣) ٠

وحتى المناطق الجبلية ، النائية عن الطرق السلطانية الكبرى ، حيث لا وجود لقرى وحيث تتباعد المدن كثيرا بعضها عن بعض ، أمر جلالته أيضا بأن تبنى بها بالمثل ابنية من نفس هذا النوع ، وان تزود بكل ما يلزم ، وبالطاقم المألوف من الخيل •

ويرسل جلالته اناسا ليسكنوا فى البقعة نفسها ، لكى يزرعوا الارض ، ويعنوا بخدمه البريد ، وبهذه الوسيلة تشكل قرى كبيرة • ونتيجة لهذه التنظيمات ، يذهب السفراء الوافدون الى البلاط ، والرسل الملكيون ، ويعودون من خلل كل ولاية ومملكة بالامبراطورية مستمتعين بغاية الجمام واليسر (٤) ، وفى ذلك كله يظهر الخان الأعظم امتيازا وتفوقا على كل امبراطور ، وكل ملك أو كل مخلوق بشرى آخر • وبهذا لا يقل عدد الخيل المستخدمة فى ممتلكاته فى دائرة البريد عن مائتى ألف حصان ، وعدد المبانى عن عشرة آلاف مبنى مزودة بالأثاث المناسب (٥) •

وهو نظام مدهش بالغ العجب ، كما أنه فعال في عمله الى حد ، لا يكاد يستطاع معه وصفه • فان تساءل امرؤ متشككا ، كيف يستطيع سكان البلاد تقديم الأعداد الكافية لأداء هذه الواجبات • وبأية وسيلة يمكن تزويدهم بالطعام ، صح لنا أن نجيب ، بأن جميع الوثنيين وكذلك المسلمين ، يحتفظون بست نساء أو ثمانية أو عشرة ، كل حسب ظروفه ، ويولد لهم منهن عدد هائل من الأطفال (٦) ، حتى ليبلغ أولاد بعضهم الثلاثين من الأبناء ، القادرين على متابعة آبائهم بأسلحتهم ، بينما الرجل عندنا ليس له الا زوجة واحدة ، وحتى لو ظهر أنها عاقر ، فانه مجبر أن يقضى حياته معها ، فيحرم بذلك من فرصة تكوين عائلة • ومن هنا يجىء أن عدد السكان عندنا أقل كثيرا من عدده عندهم • أما فيما يتعلق بالطعام ، فلا نقص فيه ، فهؤلاء الناس ، وبخاصة التتار والكاثائيين وسكان ولاية مانجى (أو بلاد الصين الجنوبية) ، يعتمدون فى معظم شأنهم على الأرز طعاما ،

والجاورس والدخن وهذه الحبوب الثلاثة تغل فى أرضهم ، مائة حبة لكل واحدة (٧) ٠

والحق ان القمح يغل مثل هذه الزيادة ، ونظرا لانهم لا يتناولون الخبز ، فان القمح لا يؤكل الا بشكل سعريه او فطائر ٠ وهم يغلون الحبوب الأولى فى اللبن او يطبخونها باللحم ٠ وهم لايتركون بوصة واحدة من الأرض يمكن زراعتها بغير زراعة ، كما ان ماشيتهم على اختلاف أنواعها تتكاثر تكاثرا وفيرا ، بحيث انهم عندما يخرجون للقتال ، لا يكاد يوجد فرد فيهم لا يأخذ معه ستة خيول أو ثمانية أو أكثر لاستخدامه الشخصى ٠

من أجل ذلك كله يمكن أن تتبين أسباب وفرة عددهم البالغة والظروف التى تمكنهم من توفير الطعام اللازم لهم بهذه الوفرة الكثيرة ٠

وهناك قرى صغيرة فى المسافات التى تقع بين دور البريد ، وكلها مسكونه وتقع على مسافات قدر كل منها ثلاثة أميال ، وقد تحوى الواحدة منها على وجه العموم حوالى اربعين كوخا ، وينزل بهذه القرى سعاة الأقدام المشاة الذين يعملون هم أيضا فى خدمة جلالته (٨) وهم يلبسون أحزمة حول أوساطهم ، قد علقت بها عدة أجراس صغيرة ، حتى يحس الكل بقدومهم من مسافة بعيدة ، ونظرا لأنهم لا يجرون الا ثلاثة أميال فقط ، أعنى من احدى محطات سعاة القوم هذه الى التالية المجاورة ، فان الجلجلة تساعد على التنبيه باقترابهم ، وتبعا لذلك يتم اعداد ساع آخر (مستريح) ليواصل المضى بالرسائل ، فور وصول الأول (٩) وبهذا تنقل الرسائل بغاية السرعة من محطة الى أخرى، بحيث ان جلالته يتلقى فى مدى يومين وليلتين أخبارا بعيدة الشقة ، لم يكن من الممكن الحصول عليها بالطريقة العادية الا فى مدى عشرة أيام (١٠) ، وكثيرا ما يحدث ، فى موسم الفواكه أن

ما يجمع فى الصباح بكانبالو ، يحمل الى الخان الأعظم فى شان دو ، مساء اليوم التالى ، وان قدرت المسافة عادة بأنها مسيرة عشرة أيام ٠

ويوجد بكل من محطات الثلاثة أميال هذه ، كاتب مهمته تدوين اليوم والساعة اللذين يصل فيهما أحد السعاة ويرحل آخر ، وهو ما يتم بالمثل بجميع دور البريد ٠ وفضلا عن هذا يوجه ضباط : (موظفون) للقيام بزيارات شهرية لكل محطة ، ليفحصوا عن طريقة العمل والادارة ، ويعاقبوا السعاة الذين أهملوا فى بذل النشاط الواجب ٠

وهؤلاء السعاة جميعا ، ليسوا معفين فقط من ضريبة (الرؤوس) ، بل هم يتقاضون من جلالته جميعا جعولا صالحة ٠ ولا تنفق على الخيل المستخدمة فى هذه الخدمة آية نفقات مباشرة ، فان المدن والبلدان والقرى الموجودة بجوار المحطات تلزم بتقديمها وكذلك باطعامها ٠

ويكلف حكام البلدان بأمر جلالته رجالا ذوى علم وخبرة واسعة بفحص الأوضاع وتحديد عدد الخيل التى فى مستطاع السكان فردا فردا أن يقدموها ٠

ويجرى نفس الشيء فيما يتعلق بالمدن والقرى ، وتفرض الطلبات واللوازم عليها تبعا لقدرتها المالية ، حيث يؤدى من على جانبى المحطة نصيبهم المفروض عليهم ٠ ثم تخصم البلدان نفقات اطعام الخيول من الضرائب الواجب دفعها للخان الأعظم ، وذلك نظرا لأن المبلغ الواجب الدفع على كل ساكن ، يستبدل بمعادلة من الخيل أو من نصيب أو سهم من الخيل يتولى اعالتها واطعامها بأقرب محطة مجاورة (١١) ٠

ومع هذا فينبغى أن يكون واضحا للافهام ، أن مجموع الأربعمائة حصان لم يكن على الدوام قائما بالخدمة بالمحطة ،

وانما عددها مائتان فقط ، تحجز هناك مدة شهر ، تكون فيه بقية الخيل بالمراعي : حتى اذا بدأ شهر جديد توخذ هذه الاخرى بدورها لتقوم بالعمل ، حتى تأخذ المجموعة الأولى الزمن الكافى لاسترداد لحمها وشحمها ، وهكذا تحل كل من المجموعتين بالتناوب محل الأخرى • فان تصادف ان كان هناك نهر أو بحيرة ، يضطر سعاة القدم أو سعاة الخيل الى العبور ، ألزمت البلدان المجاورة بتخصيص ثلاثة أو أربعة زوارق فى حالة استعداد مستمر لهذا الغرض ، واذا كانت هناك صحراء يستلزم عبورها عدة أيام ، ولا تتيح اقامة أية مساكن ، ألزمت المدينة الواقعة على حافاتها بأن تزود بالخيول الأفراد الذين هم من السفراء ، فى ذهابهم وايابهم من البلاط واليه ، حتى يتمكنوا من عبور الصحراء ، وأن يزودوهم كذلك بالمواد الغذائية ، هم وحاشيتهم ، على أن البلدان التى لها مثل هذه الظروف تتلقى من جلالته تعويضا من المعونات .

واذا كانت محطات البريد واقعة على بعد من الطريق السلطانى الأعظم ، كانت بعض الخيول ملكا لجلالته ، ولم تقسم بلدان المنطقة ومدنها الا بتقديم جزء منها •

ومتى دعت الضرورة أن يمضى الرسل (السعاة) بسرعة غير عادية ، كما هو الحال في الابلاغ من وقوع اضطرابات بأى جزء من أجزاء البلاد ، أو عن تمرد أحد الرؤساء ، أو ما ماثل ذلك من أمور عامة ، قطعوا راكبين مائتى ميل فى يوم واحد أو حتى مائتين وخمسين أحيانا •

وفى هذه الأحوال يحملون معهم لوحات السنقر ، آية على عجلتهم والحاح مهمتهم والحاجة الى سرعة المبادرة • فان كانا رسولين اثنين انطلقا من المكان نفسه معا ، ممتطين جوادين نجيبين سريعين ، وشدا جسميهما بنطاقين محزومين ، وقد عصبا رأسيهما برباط من قماش ، ودفعا حصانيهما الى أقصى سرعة ممكنة •

ولا يزالان كذلك حتى يبلغا دار البريد التالية ، التى تقع على مسافة خمسة وعشرين ميلا (١٢) ، وهناك يجدان حصانين آخرين ، مستريحين تماما ومستعدين للعمل ، فيثبان عليهما بغير ثانية واحدة من الراحة ، ويظلان هكذا يغيران الخيل بنفس الطريقة عند كل رحلة حتى ينتهى النهار ، وبذا يقومان برحلة مقدارها مائتان وخمسون من الأميال .

وفى حالة الضرورة الملحة ، يواصلان مسيرتهما بليل أيضا ، فان كانت الليلة مظلمة يعوزها القمر ، صحبهما الى المحطة التالية قوم مشاة ، يجرون أمامهم المشاعل ، وعندئذ لا يمضون بطبيعة الحال بنفس السرعة التى يطيرون بها نهارا ، نظرا لأن حملة المشاعل لا يستطيعون تجاوز سرعة معينة . ويلقى الرسل الذين لهم الأهلية لتحمل مثل هذه الدرجة الخارقة من التعب أعظم التقدير والاكبار . والآن نترك هذا الموضوع وسأحدثكم بعمل خيرى عظيم يقوم به الخان الأعظم مرتين كل عام .

الفصــل الحادى والعشرون

عن المعونات التى تبرع بها الخان الأعظم لجميع ولايات امبراطــوريته ابان المجاعات ونفوق الماشية ٠

فى كل عام ، يرسل الخان الأعظم مندوبيه للتحقق مما اذا كان اى فرد من رعاياه آلمت بمحاصيل قمحه ملمة بسبب الجو غير المناسب او بسبب العواصف أو الأمطار العنيفة او نتيجة للجراد أو الديدان أو أى نوع آخر من الآفات ، كمـا أنه لا يعمد فقط فى مثل هذه الأحوال الى الامتناع عن فرض الجزية المعتادة لتلك السنة ، بل يزودهم من مخازن الحبوب عنده بالقدر الوفير من القمح الكافى لاعاشتهم ، وبالبــذرة اللازمة لأراضيهم أيضـــا ٠ وعملا بهـــذا الرأى ، يأمر أيام الوفرة والخير بشراء مقادير ضخمة من أنواع الحبوب التى تعود عليهم بأكبر النفع ، فتختزن فى مخازن حبــوب أعدت لهذا الغرض بمختلف الولايات ، كما أنها تعالج بعناية تامة تكفل الاحتفاظ بالمخزون لمدة ثلاث أو أربع سنوات بغير أن يلم به فساد (١) ٠

واقتضت ارادته اصـــدار أمره ، بأن تظل هذه المخازن مملوءة على الدوام ، لكى تمول البلاد ابان أزمان القحط ، وعندما يتصرف ، فى مثل هذه الأحوال ، فى الحبــوب لقاء النقود ، ألا يطالب فى أربعة مكاييل الا بنفس الثمن الذى يدفعه المشترى فى مكيال واحد بالسوق ٠ وقياسا على هذا ، فانه عندما تنفق الماشية بأية ناحية ، يعوض المنــكوبين عن

خسارتهم من الماشية التي يملكها ، والتي تلقاها عشورا للانتاج في ولايات أخرى · والحق ان جميع أفكاره موجهة الى الهدف المهم ألا وهو مساعدة الناس الذين يحكمهم ، حتى يستطيعوا العيش بعملهم وكدهم ويصلحوا أحوالهم (٢) ·

وينبغى ألا تفوتنا ملاحظة خصوصية اختص بها الخان الأعظم ، وهى أنه كلما أصاب البرق والصواعق قطيعا من الماشية أو سربا من الأغنام ، أو أية حيوانات مستأنسة ، سواء أكانت ملكا لفرد أو أكثر ، ومهما بلغ من عظم القطيع، لم يطالب بعشر ما زاد على هذه الماشية من نتاج لمدة ثلاث سنوات ، وهكذا الشأن أيضا لو أن سفينة محملة بالبضائع مسها البرق ، فانه لا يجبى منها أية عائدات أو جمارك ولا نصيبا فى حمولتها معتبرا الحادثة فأل سوء · فهو يقول : لقد أظهر الله سخطه على رب هذه البضاعة ، ولذا فانه لا يريد أن تدخل خزائنه سلع تحمل ميسم الغضب الالهى (٣) ·

الفصل الثانى والعشرون

عن الأشجار التى يامر بزرعها على جوانب الطرق ، وعن الترتيب الذى تصان عليه •

هناك تنظيم آخر يتبعه الخان الأعظم ، يجمع بين الزينه والمنفعة بدرجه سواء • فانه يامن بغرس الاشجار على جانبى الطرق العامة ، وهى من النوع الذى ينمو فيصبح ضخما وباسقا ، ونظرا لانه يقارب ما بينها فيجعل المسافه خطوتين فقط ، فانها تساعد (فضلا عما تمده من ظل فى الصيف) ، على توضيح الطرق للسارى (عندما تكتسى الأرض بالجليد)، وهو امر يساعد المسافرين مساعدة كبرى ويقدم اليهم الشىء الكثير من اليسر والراحة (١) • ويجرى تنفيذ هذا على امتداد الطرق السلطانية الكبرى جميعا ، حيث تسمح طبيعة التربة بغرس الشجر ، ولكن متى مر الطريق من خلال صحراوات رملية أو فوق جبال صخرية ، حيث من المستحيل غرس الشجر، أمر جلالته فوضعت على جانبى الطرق أحجاز وأقيمت أعمدة لتكون بمثابة صوى (وعلامات) لهدايا المسافرين • وهو يعين أيضا ضباطا عظاما • عملهم هو التحقق من أن هذه الأمور جميعا قد رتبت على الوجه الصحيح وأن أوضاع الطرق فى حالة طيبة على الدوام • وبالاضافة الى الدوافع التى حددت سببا لغرس هذه الأشجار ، يمكن القول بأن الخان الأعظم زاد ميلا الى القيام بذلك ، نظرا لأن عرافيه ومنجميه أعلنوا أن من يزرعون الأشجار يكافأون بطول البقاء •

الفصل الثالث والعشرون

عن نوع الخمر الذى يصنع بولاية كاثاى ـ وعن الأحجار التى تستخدم هنـــاك للحريق على طريقة الفحم النبــاتى .

تشرب غالبية سكان ولاية كاثاى نوعا من الخمر يصنع من الأرز المخلوط بنوع من التوابل والعقــاقير . وهـــذا الشراب ، أو الخمر كما يمكن تسميته بذلك ، من الجـودة وطيب النكهة بحيث لا يرغب أحد فى شراب افضل منـــه . فهو شراب رائق ، مشرق اللون ، لذيذ الطعم ، ونظرا لانهم يتناولونه ساخنا جدا فان له خاصية بث الســكر فى الأوصال أكثر من أى شراب آخر .

ويوجد بكل أرجاء هذه الولاية ضرب من الحجر الأسود، يستخرجونه من الجبال ، التى يمتد فيها عروقا . فاذا أشعل احترق كالفحم النباتى ، واحتفظ بالنار آفضــل كثيرا من الخشب ، حتي ليمكن أن يظل متقدا طوال الليل ثم اذا هــو فى الصباح لا يزال مشتعلا . وهذه الأحجار لا تصدر الا قليلا من اللهب أول ما تشعل ، ولكنها فى أثناء اشتعالها ترســل حرارة قوية جدا . أجل ان الخشب ليس قليلا بالبلاد ، ولكن وفرة السكان هائلة ، كمــا أن مواقدهم وحماماتهــم التى لا يبرحون يسخنونها كثيرة موفورة العدد ، بحيث لا تستطيع مقــادير الخشب أن تكفى حاجة الســكان ، وذلك لأنه ليس بالبلاد انسان لا يرتاد الحمام الساخن ثلاث مرات أسبوعيا

على الأقل ، كما يترددون عليه فى الشتاء يوميا ، ان كان ذلك في امكانهم • ولكل انسان عظيم المقام أو الثراء حمام خاص فى بيته لاستعماله الخاص ، ومن ثم فان مقادير الخشب لابد أن يتجلى سريعا عدم كفايتها للقيام بمثل هذا الاستهلاك ، وذلك بينما يمكن الحصول على هذه الأحجار باكبر وفرة ، وبسعر رخيص (١) •

الفصل الرابع والعشرون

عن السخاء الكبير والمعجب الذى يتخذه الخـــان الأعظم تلقـــاء فقراء كانبالو ، وغيرهم من النـــاس الذين يلتمسون المعونات فى قصره •

سبق أن ذكرنا أن الخان الأعظم يوزع مقادير ضخمة من الحبوب عــلى رعاياه (بالولايات) • وســنتحدث الآن عن احسانه العظيم الى الفقراء ورعايته الحكيمة لهم فى مدينــة كانبالو • فمتى أبلغ نبــأ عائلة كريمــة ، كانت تعيش فى بحبوحة من العيش ، ثم أخنى عليها الدهر بنوازله فافتقرت، أو لم تعد قادرة لما حل بها من اصابات على العمل لاكتســاب القوت أو على زراعة ما يلزمها من أى نوع من أنواع الحبوب، فالى أية أسرة فى مثل هذا الموقف يقدم جلالته ما يلزمهـــا للاستهلاك فى عامها ، وعليهم فى الموعد المعتاد أن يقدموا أنفسهم للموظفين الذين يتــولون ادارة نفقات جــلالته ، والذين يقيمون فى قصر تدار منه تلك الشئون ، فيقدمون اليهم بيانا مكتوبا بالمقادير التى زودوا بهـــا فى الســـنة السابقة ، وبمقتضاه يتم الصرف اليهم أيضـــا عن الســـنة الحاضرة •

ثم انه يتكفل بنفس الطريقة بنفقات كسوتهم ، التى لديه الموارد اللازمة لها مما يجبى من عشـــور من الصــوف والحرير والقنب •

وتنسج هذه المواد بأمره الى مختلف أنواع منسوجاتها وقماشاتها بدار أقيمت لهذا الغرض ، يجبر فيها كل صانع ماهر على العمل يوما واحدا فى الأسبوع فى خدمة جلالتــه بأن توزع الثياب المصنوعة من المنسوجات التى تم عملهـــا بهذه الطريقة ، على العائلات الفقيرة الوارد نعتها أعلاه ، على ما تحتاجها فى كسوتها الشتوية والصيفية • ثم انه يأمر أيضا بتجهيز الثياب لجيوشه ، ويخصص على كل مدينة كمية من قماش الصوف تنسجها ، وتتقاضى أثمانهـا خصما من مقدار العشور التى تجبى من نفس المكان (١) •

وينبغى أن يكون معلوما أن التتار عندما كانوا يتبعون عاداتهم الأصلية ، وقبل أن يتخذوا ديانة الوثنيين ، ما كان اعطاء الصدقات من شيمهم ، واذا التمس منهم المعونة معوز واقع فى ضيق • ردوه مشيعا بأقذع العبارات قائلين : «اذهب الى حيث ألقيت بشكواك عن الموسم المجدب الذى أرسله اليك الله ، فلو أنه أحبك ، كما يبدو انه يحبنى ، لعشت مثلى فى رغد من العيش » • ولكن منذ أن أوضــح لجلالتــه حكمــاء الوثنيين وبخاصة منهم الباكشية Baksis (أى كهنة بوذا) ، الآنف ذكرهم ، ان تزويد الفقراء بما يحتاجون اليه ، عمل عظيم تتقبله آلهتهم وترضاه الى أقصى حــد ، فانه يفــرج عنهم كربتهم بالطريقة المبينة ، كما أن بلاطه لا يمنع عمن يجىء ليطلبه • فلا يكاد يمضى يوم لا يــوزع فيــه الضباط النظاميون عشرين ألف وعاء من الأرز والدخن والجاورس(٢) •

ونتيجة لهذه الأريحية الرائعة المدهشة ، التى يتبعهــا الخان الأعظم حيال الفقراء ، يعبده الناس جميعا ربا لهم(٣) •

الفصل الخامس والعشرون

عن المنجمين بمدينة كانبالو .

يوجد بمدينة كانبالو ، بين المسيحيين والمسلمين والكاناتيين ، عدد من المنجمين والعرافين (١) يقارب خمسة الآلاف ، يتولى الخان الأعظم امدادهم بالطعام والكساء بنفس الطريقة التي يعول بها العائلات الفقيرة آنفة الذكر ، وهم قوم لا يبرحون يمارسون فنهم على الدوام . ولديهم الاسطرلاب الذى تصور عليه علامات الكواكب ، والساعات (التى تمر فيها بخط الزوال) ، وهيئاتها المختلفة على مدار السنة .

ويقوم المنجمون (أو واضعو التقويم) لكل طائفة من هؤلاء فى كل عام بفحص جداولهم ، ليحققوا منها عن مسالك الأجرام السماوية ومواقعها بالنسبة لكل شهر قمرى . وكل يكتشف فيها ما سيكون عليه حال الجو استنتاجا من مرورات الكواكب وأوضاعها النسبية فى مختلف العلامات ؛ ومن ذلك كله يتنبأون بالظواهر الخاصة لكل شهر . بمعنى أنه سيكون فى هذا الشهر مثلا رعد وعواصف ، وفى ذاك زلزال وفى آخر صواعق وأمطار عنيفة ، وفى آخر تنتشر الأمراض والوفيات والحروب والخلافات والمؤامرات . فكما يجدون الحال فى اسطرلاباتهم يعلنون أنه سيحدث ، مضيفين الى ذلك ، أن الله ، حسب مشيئته الكريمة ، قد يفعل أكثر أو أقل مما دونوه . وهم يكتبون تنبؤاتهم عن السنة داخل مربعات صغيرة يعينها يسمونها « تكوينى Takwini » ويبيعون هذه المربعات بغروت واحد لكل ، لأى شخص يرغب

فى أن يختلس نظرة الى ما غيب له فى المستقبل · فمن ظهر ان تنبؤاتهم كانت على الجملة أصح التنبؤات ، اعتبروا اكمل وأعظم أساتذة فنهم ، ووضعوا تبعا لذلك موضع أعظم التقدير (٢) ·

وعندما يشرع أى شخص فى القيام بعمل كبير ، ويرغب فى معرفة مدى النجاح الذى يحتمل ان يصاحب ذلك العمل ، يلجأ الى أحد هؤلاء المنجمين ، واذ يبلغه انه ينتوى القيام بهذا أو ذاك من المشروعات ، يسأله عما يبدو فى السماوات من اتجاه فى ذلك الحين ·

وعندئذ يخبره صاحبه ، أنه قبل أن يستطيع الاجابة ، ينبغى أن يعلم السنة والشهر والساعة التى ولد فيها ، وانه متى علم بهذه التفاصيل ، أمكنه بعد ذلك المضى فى سبيل التحقق عن الأوجه والاعتبارات التى يتقابل فيها البرج (مجموعة الكواكب) الذى كان فى صعود ساعة ميلاده مع هيئة الأجرام السماوية فى لحظة عمل الاستعلام ·

وعلى هذه المقارنة يؤسس تنبؤه عن خاتمة المغامرة المرادة أموائمة هى أم غير موائمة (٣) ·

وينبغى لنا أن نلحظ أن التتار يحسبون الزمن عندهم بدورة قوامها اثنا عشر عاما ، يطلقون على العام الأول منها اسم عام الأسد ، وعلى الثانى اسم عام الثور ، وعلى الثالث عام التنين ، وعلى الرابع عام الكلب ، وهكذا على الباقى حتى تنتهى الاثنا عشر كلها · فاذا سئل أحدهم اذن ، عن السنة التى ولد فيها ، أجاب فى خلال عام الأسد ، فى يوم كذا فى ساعة ودقيقة كذا ، وذلك كله دونه والداه بكل عناية فى كتاب · وعند انتهاء الأعوام الاثنى عشر للدورة ، يعودون الى العام الأول ولا يبرحون باستمرار يكررون نفس المجموعة (٤) ·

الفصل السادس والعشرون

عن دين التتار – وعما يعتنقون من آراء حـــول الروح – وعن بعض عاداتهم ٠

ان هؤلاء القوم ، كما قلنا آنفا ، من الوثنيين ، ولـكل شخص رب يتخذه من لوحة مثبتة فى جزء مرتفع من حائط غرفته ، كتب عليها اسم يدل على الاله السماوى الرفيع ، والى هــذه اللوحة يقدمون عبـاداتهم اليوميـة مع حــرق البخــور (١) ٠ واذ يرفعــون أيديهم ثم يضربون بوجوههم الارض ثلاث مرات (٢) ، فانهم يلتمســون منــه برحمين . سلامة العقل وصحة البدن ، دون أن يزيدوا على التماسـهم ذاك شيئا ٠ ولديهم فى أسفل هذه اللوحة على الارض تمثال يسمونه « ناتيجاى » Natigai ، ويعدونه رب جميع الاشـياء الأرضية أو أى شىء ينتج من الأرض ٠ وهم يجعلون له زوجا وأولادا (٣) ، ويعبدونه بطريقة مماثلة حارقين له البخور ، ورافعين له أيديهم ومنحنين الى الأرض ٠ واليــه يصــلون ملتمسين الجو المعتدل والمحاصيل الوفيرة ، والزيادة فى افراد العـائلة ، وما الى ذلك ٠ وهم يعتقــدون أن الروح خالدة بمعنى أنها ، بمجرد وفاة رجل ، تدخل جســما آخــر ، وأنه تبعا لمسلك الفضيلة أو الشر الذى اتبعه أثناء حياته ، ستكون حالته المستقبلة باطراد أفضل أو أسوأ(٤) ٠ فان كان الرجل فقيرا ، وحسنت سيرته ، تعاد ولادته ، كبداية جديدة من رحم سيدة كريمة وأصبح هــو نفســه سيدا كريما ، ثم يولد من رحم سيدة نبيلة ويصبح نبيلا ، وهكذا يتصاعد على الدوام

فى معراج الوجود ، حتى يتحد والاله · ولكنه لو أنه عـلى العكس، وقد كان ابنا لسيد كريم ـ أساء السلوك ، لأصبح فى حالته التالية فلاحا حتى يتناهى به الأمر أن يصبح كلبا، اذ يهبط على الدوام الى حال أدنأ من سابقتها (٥) ·

وأسلوبهم فى الحديث حافل بالدماثة والكياسة ، فانهم يحيون بعضهم بعضـا بادب ، وقد علت وجـوههم بسـمة الرضا (٦) ، وبدا عليهم جو من حسن التربية ، كما أنهم يتناولون طعامهم بنظافة فريدة · وهم يبدون نحو والديهم اعظم درجات التوقير، ولكن لو تصادف أن عامل طفل والديه بغير احترام ، أو اهمل فى مساعدتهما وقت حاجتهما ، فان له محكمة عامة ، واجبها الأساسى الخاص أن تعاقب بقسوة جريمة العقوق البنوى ، متى بلغ الأمر مسامعها (٧) وفاعلو الشر المقترفون لأنواع مختلفة من الجرائم ، والذين يعتقلون ويلقى بهم فى السجون يعدمون شنقا ، ولكن الذين يبقون حتى تنقضى عليهم سنوات ثلاث ، وهو الموعد الذى يحدده جلالته لاخلاء السجون اخلاء عاما بمحاكمة من فيها ، ثم يخلى سراحهم توسم علامة على أحد خديهم ، حتى يعرفهم النـاس جميعا (٨) ·

وحرم الخان الأعظم الحالى كل أنواع الميسر وغـيره من طرق الغش : التى يولع بها سكان هذا القطر أكثر من آى أقوام أخرى فى الأرض ، وهو يقول لهم (فى مرسومه) على سـبيل الحجة المقـامة لصرفهم عن تلك الممارسـة : « انى أخضعتكم بحد سيفى ، ونتيجة لهذا فان كل ما تملكونه ملك يمينى شرعا : فان أنتم قامرتم فأنتم اذن تعبثون بما أملك» · على أنه مع ذلك لا يأخذ شيئا غصبا بحكم هذا الحق الشرعى ·

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر الترتيب والنظام اللذين يرعاهما جميع الناس على اختلاف مراتبهم عنـدما يمثلون أمام جلالته · فانهم متى اقتربوا وأصبحوا على نصف ميـل

من مكان يتصادف وجوده فيه ، يظهرون احترامهم لسمو خلقه باتخاذ مظهر وتصرف متواضع ، ساكن وهادىء ، بحيث لا يسمع أدنى ضجيج ، ولا صوت اى شخص يصيح ، ولا حتى يتحدث بصوت مرتفع (٩) ٠

ويحمل كل ذى مرتبة رفيعة من الرجال وعاء صغيرا ، يبصق فيه ، مادام موجودا فى قاعة الاستقبال ، حيث لا يجرؤ أحد أن يبصق على الأرض (١٠) فاذا تم هذا أعاد الغطاء مكانه وسلم معظما ٠ واعتادوا كذلك أن يأخذوا معهم أحذية بوشكان Buskins رشيقة من الجلد الأبيض (مما يرتديه ممثلو التراجيديا اليونانية بأوربا) ، وعندما يصلون الى القصر ، ولكن قبل الدخول الى القاعة (حيث ينتظرون الاذن من الخان الأعظم) ، يلبسون أحذية البوشكان البيضاء هذه ، ويسلمون الأحذية التى كانوا يلبسونها الى الخدم ٠

وتتخذ هذه الممارسة لكى لا يلوثوا البسط الجميلة ، المصنوعة صنعا عجيبا والمزخرفة بالحرير والذهب ، والتى تتجلى فيها مجموعة منوعة من زاهي الألوان (١١) ٠

الفصل السابع والعشرون

عن النهر المســمى بوليسانجان ،
وعن القنطرة المقامة فوقه •

الآن وقد أتممنا الحديث عن حكومة وشرطة ولاية كاثاى ومدينة كانبالو ، وأفضنا في ذكر ما عليه الخان الأعظم من فخامة . فاننا سنتحول الآن الى الحديث عن أجزاء أخرى من الامبراطورية وينبغي أن تعلموا اذن أن الخان الأعظم أرسل ماركو سفيرا له الى الغرب ، فلما أن غادر كانبالو سافر غربا لمدة أربعة أشهر كاملة ، وسنحدثك الآن عن كل ما شـــهده بعينى رأسه غاديا ورائحا •

فأنت عندما تغادر العاصمة وتسير عشرة أميال (١) ، تصل الى نهر يسمى بوليسانجان ، يصب مياهه في المحيط ، وتمخره سفن كثيرة تلجه من هناك ، محملة بمقادير جسيمة من البضائع (٢) وتقوم فوق هذا النهر قنطرة جميلة جدا من الحجر ، ربما لم تضارعها قنطرة أخرى بكل أرجاء العـــالم قاطبة • وطولها ثلاثمائة خطوة وعرضها ثماني خطـوات ، بحيث يستطيع عشرة رجال على ظهور الخيل المرور من فوقها صفا واحدا (أى جنبـــا الى جنب) بكل يسر وراحة (٣) • والقنطرة أربع وعشرون باكيـــة (عقـــد) تدعمها خمس وعشرون دعامة (بغلة) • مبنية في الماء ، وكلها من حجر الحية (٤) ، ومشيدة بمهارة فائقة •

ويقوم على جانبى القنطرة ومن بدايتهـا الى نهـايتها حاجز جميل ، مكون من لوحات الرخام وعمدانه قد رصـت بأسلوب بارع ممتاز ٠

وجعلت القنطرة عند بداية مطلعها أوسع قليلا منها عن القمة ، ولكن الجوانب ابتداء من الجزء الذى ينتهى عنـده المطلع ، تجرى فى خطوط مستقيمة ومتوازية (٥) ٠

ويوجد عند المستوى الأعلى عمود ضخم وباسق ، يستقر على سلحفاة من رخام ، وله قرب قاعدته تمثال كبير لأسـد ، مع أسد آخر على القمة أيضا (٦) ويوجد قرب منحدر القنطرة عمود رشيق آخر، وله أيضا أسد ، وهو على بعد خطوة ونصف من الأول ، وقد ملئت جميع الفراغات بين كل عمود وآخر ، على امتداد طول القنطرة بأكملها ، بشرائح من الرخام ، قد حفرت حفرا بديعا وبيتت فى العمدان التاليـة المجـاورة ٠ التى تبعد بالمثل خطوة ونصفا ، بعضها عن بعض ٠ كما أنها أيضا تعلوها الأسود (٧) ، مشكلة بمجموعها منظرا جميلا ٠ وتحول هذه الحواجز أو الدرابزينات دون حدوث الحوادث التى ربما حدثت ــ لولا وجودها ــ لعـابرى القنطـرة ٠ وينطبق ما ذكرناه على منزل القنطرة انطباقه على مطلعها(٨) ٠

الفصل الثامن والعشرون

عن مدينة جوزا .

بعد عبورك هذه القنطرة ، وتقدمك ثلاثين ميلا في تجاه الغرب ، في اقليم حافل بالمباني الرشيقة بين بساتين الكروم والاراضى الكثيرة الزروع والخصب ، نصل الى مدينة ضخمة وجميلة ، تسمى جوزا (١) ، تقوم بها اديرة كثيرة للوثنيين . ويعيش السكان على الجملة على التجارة والحرف اليدوية . ولديهم صناعات الأنسجة الذهبية وأرق أنواع الشاش (الغزى Gauze) وتكثر هناك الحانات التى يأوى اليها المسافرون (٢) . وعلى مسافة ميل واحد بعد هذا المكان تتشعب الطرق ، فيتجه أحدها الى الغرب ويتجه الآخر الى الجنوب الشرقى ، حيث يخترق الأول ولايات كاثاى الى مملكة تا ان فو (٤) ، وفيها تمر على مدن بديعة ومواقع حصينة كثيرة . تزدهر فيها الصناعات والتجارة ، وفيها ترى كثيرا من بساتين الكروم وكثيرا من الأراضى ذات الزروع ، ومن هناك يحمل العنب الى داخلية كاثاى ، التى لا تنمو بها الكروم . وتكثر أشجار التوت كذلك ، وبفضل أوراقها يتمكن السكان من انتاج مقادير ضخمة من الحرير . وتعم جميع سكان هذا القطر درجة لا بأس بها من الحضارة ، نتيجة لكثرة اختلاطهم بالمدن ، وهى هنا عديدة لا تتباعد الا قليلا بعضها من بعض . والى هذه المدن يقبل التجار على الدوام ، حاملين بضائعهم من مدينة الى أخرى وذلك لأن الأسواق تعقد كل منها على التعاقب . وعند نهاية رحلة خمسة أيام بعد العشرة السالف ذكرها يقال ان هناك مدينة

أخرى أكبر كذلك وأكثر جمالا (من تا ان فو) . تسمى اشبالوتش (Anchbaluch) (٥) . وتمتد اليها حدود أراضى الصيد الخاصة بجلالته . ولا يجرؤ انسان على الصيد داخلها ، عدا أمراء أسرته وعدا من سجلت أسماؤهم بقائمة كبير مدربى الصقور ، فأما خارج هذه الحدود فان فى امكان جميع الافراد الذين تؤهلهم مرتبتهم مطاردة جميع القنائص بكل حرية . على أنه يحدث مع هذا ان الخان الأعظم يندر أن يمارس تسلية الصيد فى هذا الجانب من البلاد (٦) . ونتيجة لهذا ، فان الحيوانات البرية وبخاصة الأرانب تتكاثر بدرجة تتسبب فى تدمير القمح والحبوب النامية بالولاية . فلما أن بلغ هذا مسامع الخان الأعظم ، دلف الى هناك بكامل هيئة بلاطه ، فصادوا أعدادا لا تحصى من هذه الحيوانات .

الفصل التاسع والعشرون

عن مملكة تا ان فو ·

عند نهاية رحلة عشرة أيام من مدينة جوزا نصل (كما ذكرنا آنفا) الى مملكة تا ان فو ، التى تحمل مدينتها الكبرى، وهى عاصمة الولاية ، نفس الاسم · وهى من أكبر المدن رقعة وأكثرها جمالا (١) ، وتدور هنا تجارة ضخمة ، كما تصنع مجموعة منوعة من السلع ، وبخاصة الأسلحة واللوازم العسكرية الأخرى التى يعد موقعها فى هذا المكان مناسبا جدا لخدمة جيوش الخان الأعظم · وتكثر هناك بساتين الكروم ، التى تجمع منها مقادير موفورة من الأعناب · ومع أنه لا توجد داخل دائرة اختصاص تا ان فو بأكملها كروم عدا تلك المنتجة بالناحية المحيطة بالعاصمة مباشرة ، فان هناك مع ذلك مقادير كافية للولاية بأكملها (٢) · وتنمو هنا أيضا فواكه أخرى بوفرة كبيرة · وذلك كفمل شجرة التوت ومعها الديدان التى تنتج الحرير ·

الفصــل الثلاثون

عن مدينة بى آن فو ٠

عند مغادرتك مدينة تا ان فو ، وسفرك غربا فى رحلة سبعة أيام ، مخترقا اقليما بديما توجد به مدن وآماكن منيعة كثيرة تنتشر فيها التجارة وأنواع الحرف ، ويحصل التجــار المسافرون فى مختلف آرجاء الاقليم ، عــلى مكاسـب وفيرة ، تصل الى مدينة تسمى بى آن فو ، وهى مدينــة ذات ضخامة وشهرة واسعة (١) ٠ وهى تشمل بالمثل عددا جما من التجار والصناع ٠ وينتج الحرير هنا بمقادير كبيرة ٠ ولن نزيدك حديثا عن هذه الأماكن ، ولكننــا سنتحول الى الحـديث عن مدينة كاتشان فو الممتازة ، وذلك بعد أن نتجه ببصرنا أولا الى حصن منيع باذخ يسمى حصن ثاى جن ٠

الفصل الحادى والثلاثون

عن حصن ثاى جن أو تاى جن .

هناك في اتجاه شرقي من بى آن فو حصن جميل وضخم يسمى ناى جن (١) ، يقال انه بنى منذ زمن سحيق ، بناه ملك يسمى دور (٢) ويقوم داخل اسوار الحصن قصر رحيب بديع الزخارف ، تحتوى قاعدته على صور ملونه لجميع الأمراء المشاهير الذين ظلوا يحكمون بهذا المكان منذ أزمان سحيقة ، مكونة باجتماعها معرضا رائعا . وسنقص عليك الآن طرفا عجيبا مر فى حياة هذا الملك دور . فانه كان أميرا قويا ، اتخذ لنفسه أبهة كبيرة ، تقوم على خدمته شابات أوتين جمالا بارعا ، كان يحتفظ بعدد كبير منهن فى قصره .

وكان عندما يخرج فى أرجاء الحصن التماسا للترويح عن النفس ، تجر عربته هؤلاء الأوانس ، وهو أمر كان يمكنهن عمله بسهولة تامة ، نظرا لصغر حجمها . وكن مخلصات لشخصه وخدمته يؤدين كل عمل يدعو الى ارتياحه أو تسليته على أنه لم يكن فى شئون الحكم لتعوزه القوة والعنفوان ، كما أنه كان يحكم البلاد بهيبة وعدل . وكانت تحصينات قلعته قوية لا نظير لها فى القوة ، على رواية سكان البلاد .

ومع هذا فانه كان تابعا اقطاعيا لأون خان ، الذى كان يعرف كما ذكرنا آنفا باسم بريسترجون ، ولكن نزعته الكبرياء فثار عليه . فلما بلغ هذا مسامع القس يوحنا (أو البريسترجون) داخله حزن شديد ، لاحساسه بأن من العبث ، الزحف على القلعة لحصانة موقعها ، أو حتى القيام

بأى عمل عدائى عليها • وظلت الأمور على تلك الحال ردحا من الزمان، حتى مثل بين يديه ذات يوم سبعه فرسان من رجال حاشيته ، وأعلنوا تصميمهم على محاولة اعتقال شخص الملك دور واحضاره حيا الى جلالته • وشجعهم على ذلك وعد بمكافأة سنية • وطبقا لذلك انطلقوا الى حيث يقيم الأمير ، وتظاهروا بأنهم جاءوا من بلاد بعيدة وعرضوا عليه أن يكونوا فى خدمته •

وأدوا وجباتهم فى خدمته ببالغ القدرة والنشاط، حتى اكتسبوا تقدير سيدهم الجديد ، الذى غمرهم بعظيم العطف والرعاية ، الى حد أنه حينما كان يخرج للهو بالصيد ، كان يصحبهم على الدوام معه •

وذات يوم ، وقد شغل الملك بالطراد ، وعبر نهرا فصل ما بينه وبين بقية حاشيته ، الذين بقوا على الضفة المقابله ، أدرك هؤلاء الفرسان ان الفرصة سنحت لهم انئذ لتنفيذ خطتهم • فاستلوا سيوفهم ، وأحاطوا بالملك واقتادوه بالقوة نحو بلاد القس يوحنا (بريسترجون) ، دون أن يتهيا له الحصول على اية مساعدة من رجاله • حتى اذا بلغوا قصر ذلك العاهل ، أمر فألبس أسيره أحقر الثياب ، وأمر به قصدا الى اذلاله بالمهانة ، فجعل راعيا لقطعانه ، فظل فى هذه الحال التعس سنتين ، واتخذت احتياطات دقيقة للحيلوله دون فراره • وعند نهاية تلك المدة أمر به البريسترجون فأحضر بين يديه ثانية ، وهو يرتجف من خوفه من أنهم سيعدمونه • على أن البريسترجون عمد ، على العكس من ذلك ، بعد ان وجه اليه أشد النصح وأقسى اللائمة ، حذره من أن تدفعه مكابدة الكبرياء والصلف الى الانحراف عن الولاء له مستقبلا ، ثم منحه العفو ، وأمر به فألبس الثياب الملكية ، وأعاده الى امارته مصحوبا بحرس شرف كريم • واحتفظ الأمير منذ تلك اللحظة على الدوام بولائه ، وعاش فى صداقة ووفاق مع القس يوحنا • والذى أوردته هو ما قصه على الناس فى موضوع الملك دور (٣) •

الفصل الثانى والثلاثون

عن النهــر العظيـم الفاخر المسمى كاراموران ·

اذا آنت غادرت حصن ثاى جن ، وسرت حوالى عشرين ميلا ، بلغت نهرا يســمى نهر كاراموران (١) ، وهــو بالغ الضخامة ، من حيث كل من اتساعه وعمقه ، بحيث لا يمكن إقامة قنطرة صلبة عليه · وهو يفرغ مياهه فى المحيط ، كما سنبين ذلك فيما بعد بتفصيل أوفى (٢) · وتقوم على ضفتيه مدن وقلاع كثيرة ، يسكن فيها عدد من التجــار المشــتغلين بالتجارة ، عــلى نطاق واســع · وتنتج المنــاطق المحيطة به الزنجبيل ، كما تنتج الحرير أيضا بمقادير ضخمة · أما طيورها فكثرتهــا لا تصــدق ، وبخاصــة التــدرج الفزان Pheasant (٣) وهى تباع بسعر ثلاثة طيور لكل غروت بندقى · وهنا ينمو أيضا نوع من القصب بوفرة لا نهــاية لها ، وبعضها يبلغ محيطه قدما وبعضها الآخر قدما ونصفا ، ويستخدمه السكان فى أنــواع مختلفــة من الاســتخدامات النافعة (٤) ·

الفصل الثالث والثلاثون

عن مدينـة كاتشان فو .

بعد أن تعبر هذا النهر وتفيض في رحلتك مدة ثلاثة أيام تبلغ مدينة تسمى كاتشان فو (١) ، سكانها من عبـدة الأوثان . وهم يقومون بتجارة جسيمة ، ويعملون في عدد كثير من الصـناعات . وينتج الاقليم بوفـرة هائلة كلا من الحرير والزنجبيل ، والخلنجان (٢) ، وسنبل الطيب ، وكثير من العقاقير التي يكاد يجهلونهـا في هـذا الجزء من العـالم (يعني أوربا) . وهنا ينسج الناس الأنسجة الذهبية ، فضلا عن كل أنواع القماش الحريري . وسنتحدث في المكان التالي عن كن زان فو ، الفاخرة الذائعـة الصيت ، بالمملكة التي تحمل نفس الاسم .

الفصل الرابع والثلاثون

عن مدينة كن زان فو ٠

عند مغادرتك كاتشان فو ، ومضيك فى رحلة ثمانية ايام في اتجاه غربى ، تلتقى على الدوام مع بلدان ومدن تجارية ، وتمر من خلال حدائق كثيرة وأراض ذات زرع ، مع وفرة التوت وهو الشجرة التى تسهم فى انتاج الحرير ٠ والسكان على وجه الجملة يعبدون الأصنام ، على أنه يوجد هنا أيضا مسيحيون نسطوريون (١) ، وتركمان (٢) ، ومسلمون ٠ وتوفر ضوارى ذلك الاقليم صيدا ممتازا لمن شاء الصيد ، كما أن أضربا كثيرة من الطير تصاد أيضا ٠

وعند نهاية تلك المراحل الثمانى تصل الى مدينة كن زان فو (٣) ، التى كانت فى قديم الزمان عاصمة لمملكة فخمة ومترامية الأطراف وقوية وكانت مقرا لعدد كبير من الملوك ، ذوى الأصل النبيل والامتياز فى القتال (٤) ٠ ويحكمها في الزمن الحاضر ، ابن من أبناء الخان الأعظم ، يسمى مانجالو ، أنعم عليه أبوه بالملوكية (٥) ٠ وهى قطر ذو تجارة عظيمة يمتاز بمصنوعاته ٠ وينتج به الحرير الخام بمقادير ضخمة وتنسج أنسجة الذهب وجميع أنواع الأقمشة الأخرى ٠

وبهذا المكان أيضا يعدون لكل المعدات اللازمة لتجهيز جيش ٠ وجميع أنواع المواد التموينية موجودة بوفرة ويمكن الحصول عليها بسعر معتدل ٠

والسكان على الجملة يعبدون الأوثان ، على أن بها بعض النصارى والتركمان والمسلمين (٦) • وهنـاك فى سـهل منبسط يبعد قراية خمسة أميال من المدينة ، يقـوم قصر جميـل ، هـو قصر الملك مانجـالو ، الذى زين بكثـير من النافورات والنهيرات، داخل المبانى وخارجها على حد سواء •

وهناك أيضا حديقة أنيقة يحيط بها سور مرتفع ، به مزاغل (مطلات ذات فتحات) ، وهـو يحيط متسـعا ذرعه خمسة أميال ، يحفظون فيه للهو والرياضة جميع انـواع الحيوانات المتوحشة ، ما بين بهيمة وطير • ويقوم في وسطه هذا القصر المسيج الذى لا يمـكن أن يفوقه قصر آخـر فى السيمترية والجمـال • وهـو يحـوى كثيرا من القـاعات والغرفات ، المزدانة بتصاوير من الذهب وأبدع اللازورد ، كما أنه محلى بوفرة عظيمة من الرخام • وتأسيا بسنة والده، يحكم مانجالو البلاد بالقسطاس المستقيم ، وهو موضع محبة شعبه • كما أنه شديد الشغف بالقنص والتصقر •

الفصل الخامس والثلاثون

عن حدود كاثاى ومانجى .

اذا واصلت رحلتك ثلاثة أيام غربا من مقر الحكم فى مانجالو ، فانك لا تفتأ تجد مدنا وقلاعا ، يعيش سكانها على التجارة والصناعة وفيها كثرة موفورة من الحرير ، ولكنك تدخل عند نهاية هذه المراحل الثلاث الى منطقة مكونة من جبال ووديان تقع داخل ولاية كن كن ــ Kun-Kin (١) .

ومع ذلك ، فان هذه الشقة لا يعوزها السكان ، وهم من عبده الاوثان ويزرعون الارض . وهم يعيشون ايضا على الصيد والقنص ، وذلك لان الارض كثيرة الاجام . وفيها توجد كثير من الحيوانات الضارية ، كالاسود (الببور) والدببه والوشق والأيل الأسمر والظبى والوعل وغيرها كثير ، وكلها يستفيدون منها ايما افادة .

وتمتد هذه المنطقة الى مسافة رحلة عشرين يوما ، يمتد فيها الطريق بأكمله فوق جبال وعبر وديان وغابات ، ولكن تتناثر فيه على الدوام المدن التى يجد فيها المسافرون كل وسائل الراحة . حتى اذا انتهت رحلة العشرين يوما هذه نحو الغرب ، وصلت الى مكان يسمى آتش بالوتش مانجى ، ومعناها المدينة البيضاء (٢) على حدود مانجى ، وهناك تصبح أرض المنطقة مستوية وتكون شديدة الازدحام بالسكان . ويعيش السكان من التجارة والفنون اليدوية .

وتنتج البلاد مقادير ضخمة من الزنجبيل الذى يحمل من خلال جميع نواحى ولاية كاثاى ، مدرا على التجار مكاسب عظيمة (٣) • وينمو بالاقليم القمح والأرز وغيرهما من الحبوب بوفرة وبمعدل انتاج معقول ، ويستمر هذا السهل المغطى بالقدر الكثيف من المساكن لمدة مرحلتين ، لا تلبث بعدها حتى تصل الى جبال عالية ووديان وغابات • فاذا رحلت بعد ذلك عشرين يوما ممعنا فى المسيرة غربا ، لقيت باستمرار بلادا يسكنها قوم يعبدون الأوثان ، ويعيشون على ما تنتج أرضهم وعلى ما يقتنصون من صيد أيضا •

وهنا أيضا تجدون بجانب الحيوانات البرية التى عددت أعلاه ، أعدادا غفيرة من ذلك النوع الذى ينتج المسك •

٠٠٦

الفصل السادس والثلاثون

عن ولاية سن دن فو ، وعن نهر كيان العظيم ٠

بعد أن تقطع هذه المراحل العشرين مارا خلال منطقة جبلية ، تصل الى سهل على حدود مانجي ، توجد به ناحية تسمى سن دن فو ، وهو الاسم الذى تتسمى به أيضا المدينة العظيمة الفاخرة وهى العاصمة التى كانت فى سالف الأوان مقرا لحكم كثير من الملوك الأثرياء والأقوياء (١) ٠ ومحيط المدينة عشرون ميلا ، ولكنها فى الزمن الحاضر مقسمة بسبب الظروف التالية : كان للملك الراحل العجوز ثلاثة أبناء ، ولما كانت رغبته أن يتولى كل منهم الحكم بعد وفاته ، فأنه قسم المدينة بينهم ، وفصل كل قسم منها عن الأجزاء الأخرى بأسوار ، وان ظلت فى مجموعها محوطة بتحويطة عامة ٠ وتبعا لذلك أصبح هؤلاء الاخوة الثلاثة ملوكا ، وأخذ كل منهم نصيبا له ، شقة ضخمة من الأراضى ، وذلك نظرا لشدة اتساع ممتلكات أبيهم وواسع ثرائها ٠ ولكن الخان الأعظم لما فتح المدينة قضى على هؤلاء الأمراء الثلاثة واستولى على ميراثهم (٢) ٠

وتستمد المدينة المياه من أنهار ضخمة كثيرة ، تنزل من الجبال البعيدة فتحيط بها وتمر من خلالها فى اتجاهات متعددة ٠ وبعض هذه الأنهار قد يبلغ نصف ميل عرضا ، وبعضها الآخر مائتى خطوة ، كما أنها شديدة العمق وقد بنيت فوقها بعض القناطر الحجرية ، وكلها ضخم وجميل

الشكل وعرضها ثماني خطوات ، بينما طولها يتراوح عظما وصغرا حسب اتساع النهر ٠

ويقوم على كل من جانبيها من أولها الى آخرها صف من العمدان الرخامية تدعم السقف ، وذلك لأن القناطر لها هنا أسقف بالغة الرشاقة مبنية من الخشب المحلى بطلاءات وتصاوير باللون الأحمر ومغطاة بالقرميد ٠ وتوجد على طول القنطرة بأكمله أجنحة ودكاكين أنيقة ، تدور فيها جميع أنواع التجارة (٣) ٠ وهناك مبنى أكبر من المباني الاخرى ، يحتله الموظفون الذين يجمعون الرسوم المفروضة على المواد التموينية والسلع التجارية ، فضلا عن فرضه على الأفراد الذين يعبرون القنطرة ٠

ويقال ان جلالته يحصل ، بهذه الطريقة ، يوميا على مبلغ مائة بيزنطي من الذهب (٤) ٠ وهذه الأنهار اذ توجد مجاريها أسفل المدينة تساهم في تكوين النهر الجبار المسمى كيان (٥) ، الذي يمتد مجراه حتى يصب ماءه في المحيط مسافة تعادل مسيرة مائة يوم (٦) ، وسننتهز فرصة تالية للحديث عن خواصه في قسم تال من هذا الكتاب ٠

وتقع على هذه الأنهار والأجزاء المجاورة لها مدن كثيرة ومواقع حصينة ، كما أن السفن هناك كثيرة ، وتنقل فيها مقادير ضخمة من التجارة من المدينة واليها ٠ وسكان الولاية من عبدة الأوثان ٠ فاذا أنت رحلت من هناك سافرت خمس مراحل ، منها جزء على امتداد سهل ، وجزء آخر مخترقا أودية ، حيث ترى كثيرا من القصور المنيفة والقلاع والمدن الصغيرة ٠ ويعيش السكان بما يزرعون من زراعة ٠ كما توجد في المدينة صناعات ، أخص بالذكر منها الأنسجة

الرفيعة ولا سيما الكريب أو الشـــاش الغزى (٧) • وتعيث
فى هذا القطر ، شأن النواحى التى سبق ذكرها ، ضوار منها
الأسد (الببر) ، والدب وغيره من الحيوانات المتوحشة •
وعنـــد نهاية رحلة هـــذه الأيام الخمســـة تبلغ اقليم التبت
اليباب المقفر •

الفصل السابع والثلاثون

حول ولاية التبت ·

نزل الخراب المطبق بالولاية المسماة بالتبت (١) فى الآونة التى دفع فيها مانكوخان جيوشه الى تلك البلاد · فأنت تمضى مسافة رحلة عشرين يوما ، وتشهد مالا حصر له من المدن والقلاع فى حالة خراب ، وكانت نتيجة شدة النقص فى السكان ، أن تكاثرت الحيوانات الضارية . وبخاصة الببور الى حد جعل التجار وغيرهم فى خطر كبير أثناء فترة الليل ·

واذن فليسوا فحسب مضطرين الى حمل زادهم معهم، بل انهم ليجبرون عند وصولهم الى محطات التوقف الى استخدام صنوف الحذر ، وعمل الاحتياطات التالية حتى لا تلتهم الضوارى أحصنتهم ·

ويوجد القصب (الخيزران) بهذه المنطقة وبخاصة الى جوار الأنهار ويبلغ طوله عشر خطوات ومحيطه ثلاث راحات (أشبار) وثلاثة أشبار كذلك فى المسافة بين كل عقدة (أو مفصل) وأخرى · ويربط المسافرون عندما يقترب المساء العديد من هذا الخيزران وهو فى حالته الخضراء ويضعونها على مسافة معينة من مستقراتهم ، ويوقدون حولها نارا ، حتى تنفجر بفعل الحرارة محدثة دويا هائلا (٢) · ويبلغ من شدة الدوى أن يسمع على مبعدة ميلين ، وهو أمر يبعث الذعر فى الحيوانات الضارية ويدفعها الى الفرار من الجزيرة كلها ·

ويزود التجار أنفسهم بأصفاد من حديد ، ليربطوا خيولهم ، والا قطعت شكالها وفرت لا تلوى على شيء ، ان لم تربط بهذه الوسيلة ، اذا أفزعتها الفرقعة ، والحق انه حدث ، نتيجة لاهمال هذا الاحتياط ، أن كثيرا من أصحاب الخيل فقدوا خيلهم •

وهكذا تمضى فى رحلته عشرين يوما مخترقا أرضا قفرا مهجورة من السكان ، دون أن تجد خانا ولا مؤونة ، اللهم الا ربما واحدة فى مدى ثلاثة أو أربعة أيام ، وعندها تنتهز الفرصة لتستكمل النقص فيما تحتفظ به من ضروريات وعند نهاية تلك المدة تشرع فى استكشاف قلة قليلة من القلاع والمدن الحصينة ، بنيت على مرتفعات صخرية ، أو على قمم الجبال وتدخل بالتدريج فى منطقة مأهولة ومنزرعة ، لا يعود يتبقى بها أى خطر من الضوارى المفترسة •

وهناك عادة مخزية ، لا يمكن أن تصدر الا عن عماية الوثنية ، وتنتشر بين شعب هذه المناطق ، الذين يكرهون الزواج من الشابات ما دمن عذراوات ، ولكن يشترطون ، على عكس ذلك ، أن تكون لهن علاقات سابقة مع كثير من أفراد الجنس الآخر ، وهم يؤكدون أن ذلك مما يسر آلهتهم ، وأن المرأة التى لم تحظ بصحبة الرجال امرأة عديمة القيمة (٣) •

وتبعا لذلك فانه عند وصول احدى قوافل (٤) التجار ، وبمجرد أن يقيموا خيامهم لقضاء الليل ، تحمل الأمهات ذوات البنات اللائى بلغن سن الزواج ، بناتهن الى ذلك المكان ، وتقوم كل واحدة منهن ، فى كفاحها فى سبيل الحصول على الايثار والتفضيل ، بالتوسل الى الغرباء بقبول ابنتها والاستمتاع بصحبتها لأى منهم مادام موجودا فى المنطقة المجاورة (٥) •

فمن كانت منهن ذات جمال يزكيها ، وقع عليها الاختيار بطبيعة الحال ، فأما الباقيات فيعدن الى منازلهن مخيبات المسعى محزونات ، بينما تواصل الأولى الجميلة مكثها مع الرحالة ، حتى يحين موعد رحيلهم • وعند ذلك يعيدونهن الى امهاتهن • ولا يحاولون البتة آخذهن معهم • على انه ينتظر من التجار مع هذا أن يهدوا اليهن هدايا من حلى صغيرة او خواتم أو غيرها من وسائل التعبير عن التقدير والمجاملة لتأخذها الفتيات الى بيوتهن • ومتى أعددن بعد ذلك للزواج ، لبسن كل هذه الحلى حول أعناقهن أو غيرها من أجزاء أجسامهن ، وهنا تعد من تبين أكبر عدد من هذه الحلى أنها استلفتت انتباه أكبر عدد من الرجال ، فهى على هذا الأساس موضع أعلى تقدير عند الشبان الذين ينشدون زوجات ، ثم انها لا تستطيع أن تجلب لزوجها بائنة أعظم قبولا فى نفسه من مجموعة الهدايا •

وعند الاحتفال بالمراسم الشرعية لزواجها ، تعرض طبقا لذلك هذه الهدايا على الحشد المجتمع ، فأما الزوج فيعد الهدايا آية على أن الاصنام جعلتها فاتنة فى اعين الرجال • ومنذ تلك الساعة لا يجرؤ انسان على التدخل فى شئونها كامرأة أصبحت زوجا لرجل آخر ، وهى قاعدة لا يكسرها انسان أبدا • وهؤلاء الناس الوثنيون غادرون قساة الأكباد ، اذ لا يعدون السرقة جريمة أو معرة ، فانهم أكبر لصوص فى العالم (٦) • وهم يعيشون على مطاردة القنائص وصيد الطيور • وكذا على ما تنتج الأرض من ثمار •

وهنا توجد الحيوانات التى تنتج المسك ، وتكثر مقاديره كثرة تجعل رياه تفوح بكل أرجاء القطر • اذ يحدث مرة كل شهر أن يفرز الافراز ويشكل نفسه ، كما أوضحنا آنفا ، فى صورة خراج أو بثرة مملوءة بالدم ، قرب السرة ، فيصبح الدم الذى يخرج بهذه الطريقة ، نتيجة للامتلاء

المفرط هو المسك (٧) . ويكثر الحيوان بكل أرجاء هـــذا الاقليم ، وتنفتق الرائحة وتعمه عادة . ويســمى الحيــوان بلغة الأهالى هناك جودرى Gudderi (٨) ، ويصاد بواسطة الكلاب . ولا يستخدم هؤلاء القوم عملة مسكوكة ، ولا حتى عملة الخان الأعظم الورقية ولكنهم يستخدمون المرجان عملة لهم (٩) وثيابهم خشنة متواضعة ، اذ تصنع من الجلدالمدبوغ أو الأدم (الجلد) الخام أو الخيش .

وليس لهم لغة خاصة بولاية التبت ، التى تتاخم مانجى . وكانت هذه فى المــاضى اقليما بلغ من عظمــه وأهميته أن تقسم الى ثمانى ممالك ، تحوى الكثير من القلاع . وأنهارها وبحيراتها وجبالها كثيرة العدد .

وفى الأنهار ، يوجد التبر بمقادير ضخمة جدا (١٠) ولا يقتصر الأمر على استخدام المرجان ، سالف الذكر ، عملة فقط ، بل ان النساء يستعملنه أيضا عقودا لأعنــاقهم وبه يزينون أصنامهم (١١) وتقوم صناعات الخملة (القطيفة) وأقمشة الذهب، كما أن البلاد تنتج كثيرا من العقاقير التى لم تجلب الى بلادنا وهؤلاء القوم سحرة ، ويستطيعون بواسطة فنهم الجهنمى القيام بأفانين سحرية خارقة وخادعة الى أقصى حد مما لم يسمع الناس بمثله أو يروه أبدا .

وهم يجعلون العواصف تهب مصحوبة بوميض البرق والصواعق ، وينتجون آثارا أخرى معجزية كثيرة . وهم فى مجموعهم شعب تحيط به الأحوال السيئة .

ولديهم كلاب بحجم الحمير (١٢) وهى من القوة بحيث تستطيع اصطياد جميع أنواع الحيوانات الوحشية ، وبخاصة الثيران التى تســمى « بيامينى » (١٣) ، وهى شــــديدة

الضخامة بالغة الشراسة · وتربى هنا بعض من خيرة أنـــواع صقور الحر وكذلك الصقور وهى سريعــة الطــيران جدا ، ويستمتع الأهالى بواسطتها برياضــة قنص طيبة ، وولاية التبت هــذه خاضــعة للخــان الأعظم ، هى وجميع الممالك والولايات التى ورد ذكرها من قبل · وتعقب هــذه الولاية ولاية كاين دو ·

الفصل الثامن والثلاثون

عن ولاية كاين دو .

ان كاين دو ولاية غربية ، كانت خاضعة فيما سلف لأمرائها الوطنيين ، ولكنها منذ أن ضمت الى أملاك الخان الاعظم ، أصبحت يحكمها الحكام الذين يعينهم . على انه لا يجوز لنا مع ذلك أن نفهم أنها تقع فى الجزء الغربى (من آسيا) ، وانما هى فقط تقع موقعا غربيا بالنسبه لاتجاه طريقنا من القسم الشمالى الشرقى . وسكانها عباد أوثان ، وهى تشمل كثيرا من المدن والقلاع ، كما أن المدينة العاصمة التى تقع عند بداية الولاية تسمى أيضا : كاين دو (١) .

وتوجد بالقرب منها بحيرة كبيرة مالحة ، يوجد بها الكثير الموفور من لآلىء ذات لون أبيض ، غير أنها ليست بالمستديرة (٢) .

ويبلغ من عظم الكمية الموجودة فعلا ، أنه لو أن جلالته سمح لكل فرد بالبحث عن اللؤلؤ ، لأصبحت قيمته زهيدة ، ولكن صيده محرم على كل من لم يحصل على ترخيص منه . والجبل الموجود بالمنطقة ينتج حجر التركواز (أى الفيروز)، الذى لا يمكن تشغيل مناجمه الا بنفس الاذن .

وألف سكان هذه المنطقة تلك العادة الشائنة المخجلة من أنهم لا يعدون من المساس بالشرف فى شىء أن يسمحوا لمن

يمرون مسافرين من خلال بلادهم بالاتصـال بزوجاتهم او بناتهم أو أخواتهم ، ولكنهم على العكس من ذلك ، عند وصول الغرباء ، يحاول كل صاحب دار أن يصـطحب أحـدهم الى بيته ، ثم بعد أن يسلمه جميع اناث العائلة يتركه فى موقف سـيد البيت ، وينصرف • ومادام الغـريب فى البيت يرفع اشارة فى النافذة ، كقبعته أو أى شىء آخر ، ومادامت هـذه الاشارة مرفوعة فى البيت يظل الزوج غائبا عنه • وتنتشر هذه العادة بكل أرجاء الولاية • وهم يفعلون ذلك تكريمـا لأوثانهم ، معتقدين أنهم بهذا الترفق وكرم الضيافة اللذين يقدمان للرحالة ، تحصل البركة ، وأنهم سيكافأون على ذلك بقدر موفور من ثمار الأرض •

واليكم الطريقة التى تصنع بها النقود أو العمله التى يستخدمونها : فانهم يصوغون ذهبهم قضبانا صغيرة ، و(د (تقطع القضبان أطوالا معينة) فانها تتداول طبقا لوزنها ، بدون أى دمغ (٣) • وتلك هى عملتهم الكبرى • فأما الصغرى فانها على النحو التالى : توجد بهـذا القطر ينابيع مالحـة ، يستخرجون منها الملح بغلى الماء فى أوعية صغيرة (٤) ، فاذا مضت ساعة على الماء وهو يغلى ، أصبح نوعا من العجينة • تشكل فى صورة أقراص ، قيمة كل قرص منها بنسان •

وهذه الأقراص وهى مسطحة من أسـفل ومحدودبة فى جانبها الأعلى ـ توضع على قراميد ساخنة قرب نار مشتعلة ، حتى تجف وتصلب • وعلى هذا النوع الأخـير من النقـود يوضع خاتم الخان الأعظم ، ولا يجوز أن يعده انسان آخـر عدا موظفيه • وتعد كل ثمانين من هذه الأقراص معـادلة لساجيو Saggio من الذهب (٥) •

ولكن عندما يحمل المتجرون المتسببون الصغار هـذه الأقراص الى ديار سكان الجبال ، والمناطق الأخرى يقل تردد الناس عليها ، يحصلون على ساجيو من الذهب مقابل ستين

او خمسين او حتى آربعين من أقراص الملح ، على ضئورة تتناسب وما يجدون عليه الاهالى من قلة التحضر وشدة البعد من المدن ومدى تعودهم على المكث فى مكان واحد ، وذلك نظرا لان من تحيط بهم ظروف كهذه ، لا يستطيعون على الدوام الحصول على سوق لذهبهم ومسكهم وغيرهما من السلع • ومع هذا فانه حتى بهذا السعر يحصل على رزق طيب ، كل من يجمع تبر الذهب من قيعان الأنهار كما ذكرنا آنفا •

ويسافر نفس هؤلاء التجار على هذا النحو عينه فى الأجزاء الجبلية وغير الجبلية من بلاد التبت ، التى سبق ذكرها ، حيث تكون لنقود الملح عملة تعادله • وهم يحصلون على مكاسب عظيمة ، وذلك لأن هؤلاء الريفيين يستهلكون الملح فى طعامهم ويعدونه شيئا ضروريا لا يستغنى عنه ، وذلك بينما يقتصر سكان المدن فى نفس الفرض على استخدام الأجزاء المكسرة من الأقراص مستخدمين الأقراص الصحيحة نقودا متداولة • وهنا أيضا تقتنص أعداد كبيرة من الحيوان المسمى بالجودرى، الذى ينتج المسك، كما أن تلك السلعة وفيرة نسبيا (٦) • وتصاد من البحيرة أسماك كثيرة ذات أنواع ممتازة • وتوجد بالبلاد ببور ودببة وغزلان ووعول وظباء • وهناك كثرة عظيمة من الطيور المختلفة الأنواع • ولا تصنع (الخمر) بها من العنب بل من القمح والأرز ، مع مزجها بخليط من التوابل ، وهو شراب ممتاز •

وتنتج هذه الولاية أيضا القرنفل • وشجرته قصيرة وتشبه أغصانها وأوراقها مثيلاتها من الغار ، ولكنها أطول قليلا وأضيق ـ وأزهارها صغيرة بيضاء ، شأن القرنفل نفسه ، لكنها عندما تنضج يسمر لونها • وينمو هناك الزنجبيل وكذلك القرفة الصينية أو الدار صينى بوفرة ،

فضلا عن كثير من العقاقير الأخرى ، التى لا ينقل منها شىء البتة الى أوروبا .

وعند مغادرة مدينة كاين دو ، تمتد الرحلة خمسة عشر (٨) يوما حتى التخم المقابل من الولاية ، تلتقى فى أثنائها بمساكن مهياة لأغراض الطراد وصيد الطيور . ويتبع الأهالى الأعراف والعادات التي أسلفنا اليك صفتها .

وعند نهاية هذه الأيام الخمسة عشر ، تصل الى نهر برييوس الكبير الذى يحد الولاية والذى توجد فيه مقادير كبيرة من التبر (٩) . وهو يصب مياهه فى المحيط . وسنترك الأن هذا النهر ، اذ ليس لدينا مزيد عنه تجدر ملاحظته ، ثم نمضى الى الحديث عن ولاية كارايان .

الفصل التاسع والثلاثون

عن ولاية كارايان العظيمة وعن ياتشى قصبتها ومدينتها الكبرى .

بعد عبور النهر سالف الذكر ، تدخل ولاية كارايان ، وهى من بالغ السعة والترامى بحيث قسمت الى سبع حكومات (١) . وهى تقع ناحية الغرب ، والسكان هناك يعبدون الأوثان ، كما أنها خاضعة لسلطان الخان الأعظم ، الذى أجلس عليها ملكا ، ابنه المسمى سن تيمور ، وهو أمير ثرى قوى جليل وهب ما لا آخر له من الحكمة والفضيلة ، وعلى يديه تحكم المملكة بعدالة عظيمة (٢) . وعند الابتعاد عن هذا النهر بمسيرة خمسة أيام ، فى اتجاه الغرب ، تمر من خلال اقليم آهل بالسكان تماما ، وترى كثيرا من القلاع . ويعيش السكان على تناول اللحم بأنواعه وعلى ما تثمر الأرض من ثمار . وهم يتحدثون بلغة خاصة بهم ، من العسير على الغريب أن يتعلمها . وتربى أحسن الخيل بهذه الولاية (٣) .

وعند نهاية هذه الأيام الخمسة تصل الى قصبتها التى تسمى ياتشى ، والتى هى مدينة ضخمة وفاخرة (٤) . وبها يوجد التجار والصناع مع سكان مخلطين ، يتكونون من الوثنيين (من الأهالى) ، والنساطرة المسيحيين ، والمسلمين أو العرب ، ولكن الطبقة الأولى هى أكثر هؤلاء عددا . والأرض خصبة يكثر بها انتاج الأرز والقمح ومع هذا فان الناس لا يستخدمون خبز القمح ، الذى يعتقدون أنه غير

صحى ، ولكنهم يأكلون الارز بدلا منه ، كما يصنعون من القمح ، بعد اضافة التوابل اليه ، خمرا صافية فاتحة اللون، لذيذ المذاق جدا (٥) ٠

وهم يستخدمون بدلا من النقود ، المحار الخزفى أو الودع الأبيض ، الذى يوجد فى البحر ، كما أنهم يلبسون هذا الصدف أو المحار نفسه زينة حول أعناقهم (٦) ٠ وكل ثمانين محارة تعادل فى القيمة ساجيو واحدا من الفضة أو غروتين بندقيين ، كما تعادل ثمانية ساجيو من الفضة الخالصة ، ساجيو واحدا من الذهب النقى (٧) ٠ وتوجد فى هذا الاقليم أيضا ينابيع ملحة ، ينتج منها جميع الملح الذى يستخدمه السكان ٠ والرسوم التى تجبى على هذا الملح تدر دخلا ضخما على الملك ٠

ولا يعد الأهالى أنهم أضيروا ، اذا اتصل رجال آخرون بزوجاتهم ، شريطة أن يكون الفعل بارادة المرأة ٠ وهنا توجد بحيرة يقارب محيطها مائة ميل ، تصادفها مقادير ضخمة من أنواع مختلفة من السمك ، منه ما هو كبير الحجم ٠

وجرت عادة الناس بتناول لحم الطيور (الدواجن) والغنم والثيران والجاموس نيئا غير مطهو ، ولكنه معالج بالطريقة التالية : فهم يقسمون اللحم الى جزئيات صغيرة جدا ، ثم يضعونه فى خليط من الماء والملح ، مع اضافة كثير من توابلهم ٠ وهم على هذا النحو ٠ يعدونه لأفراد الطبقة العليا ، ولكن الطبقات الفقيرة تنقعه ، بعد الفرم ، فى صلصة الثوم ثم يأكلونه كأنما هو مطبوخ ٠

الفصل الأربعون

عن الولاية المسماة كارازان .

اذا أنت غادرت مدينة ياتشى ، وسافرت عشرة أيام فى اتجاه الغرب ، وصلت الى ولاية كارازان ، وهو أيضا اسم عاصتها (١) . والسكان هنا عباد أوثان . والبلاد تابعة لمتلكات الخان الأعظم ، ويتولى المهام الملكية فيه ابنه المدعو كوجاتن (٢) . ويوجد الذهب فى الأنهار ، على شكل جزئيات تبر صغيرة أو كتل ، كما أن منه عروقا فى الجبال .

وكانت نتيجة المقدار الكبير الذى يحصل عليه منه ، أن صاروا يقدمون ساجيو من الذهب بستة ساجيو من الفضة . وهم يستخدمون بالمثل الصدف سالف الذكر نقودا ؛ وهو لا يوجد ، مع هذا ، فى هذا الجزء من العالم ، ولكنه يستجلب من بلاد الهند . وكما أسلفت اليك فان هؤلاء القوم لا يتخذون من العذارى زوجات بتاتا .

وهنا تشاهد ثعابين هولة ، طول الواحد منها عشر خطوات ، ومحيط الجسم منها عشرة أشبار . ولها فى مقدم جسمها قرب الرأس قدمان قصيرتان ، بهما ثلاثة مخالب كمخالب النمر ؛ وعينان أكبر من رغيف الأربعة بنسات (Pone da quattro denari) . وهما تحملقان ببريق حاد وفكاه من عظم السعة بحيث تبتلعان انسانا ، وأسنانه كبيرة وحادة ؛ كما أن شكلها بمجموعه رهيب ، بحيث لا يستطيع انسان ولا حيوان الاقتراب منها دون أن يمتلىء رعبا (٣) . وقد

نلتقي ببعض منها له حجم صغير طوله ثماني خطوات أو ست أو خمس ، واليكم الطريقة التي تقتنص بها : ففي النهار تتوارى بسبب شدة القيظ في الكهوف ، ثم تخرج منها ليلا ، بحثا عن الطعام ، فأيما بهيمة التقت بها واستطاعت الامساك بها ، ببرا كانت أم ذئبا أم أى حيوان آخر ، التهمتها ، وبعدها تسحب نفسها الى احدى البحيرات أو أحد ينابيع الماء أو الأنهار لتشرب . وتحدث بحركتها على هذا النحو على امتداد الشاطيء ، وثقلها الفاحش ، حزا عميقا في الأرض كأنما سحب على الرمال عرق ثقيل من الخشب . فمن كانوا يعيشون من صيدها ، ما عليهم الا قص الأثر الذى اعتادت تركه فى أغلب الأوقات فى روحاتها وغدواتها ، فيثبتون في الأرض قطعا كثيرة من الخشب، مسلحة بخوازيق حادة من الحديد ، يغطونها بالرمل بطريقة تواريها عن الأنظار . فاذا اتخذت الحيوانات طريقها نحو الأماكن التى ترتادها عادة ، جرحتها هذه الخوازيق الحادة وأودت بحياتها سريعا (٤) .

وما أن تدرك الغربان أنه مات حتى تشرع فى النعيق ، فيكون ذلك اشارة الى الصائدين ، فيتقدمون الى حيث هو ليسلخ جلده ، مبدين حرصا فوريا على الحصول على الصفراء ، التي هى موضع أعلى التقدير فى الطب . فهى تستخدم فى حالة عضة كلب (مسعور) بدهن موضع العضة بما يعادل وزن بنس منها مذابا فى النبيذ . وهى نافعة أيضا فى التعجيل بالمخاض عندما تهاجم آلام الطلق النساء .

وتدهن بمقدار صغير منها ، الجمرات أو البثور وغيرها من أنواع الطفح الجلدى ، فتتبدد على الفور ، وهى نافعة أيضا فى أنواع أخرى كثيرة من الشكايات (الأمراض)، فأما لحم الحيوان فيباع أيضا بسعر غال ، لاعتقاد الناس بأن له نكهة أطيب من أنواع اللحم الأخرى ، كما أنه يعد عند جميع الأفراد وجبة شهية (٥) .

وخيول هذه الولاية ذات حجم كبير ، وتحمل صغيرة الى الهنـد لتباع هنـاك • ومن عادتهم حرمانهـا من عقلة من ذيلها ، لمنعها من تطويحه من جانب الى آخر ، وارغامها أن تظل الذيول مدلاة ، وذلك لأن تطويح الذيل أثناء الركوب يبدو لهم عادة قبيحة (٦) •

ويركب هؤلاء القوم خيلهم بركابات طويلة ، كما يفعل الفرنسيون فى جهتنا هذه من العالم ، وذلك بينما يجعلهـا التتار وجميع الشعوب الأخـرى تقريبا قصيرة ، لكى يتاح لهم استخدام القوس على نحو أيسر ، وذلك لأنهم ينهضون فى ركابهم على صهوات الخيل عندما يطلقون سهامهم • ولديهم جنة (دروع) كاملة من جلد الجاموس، ويحملون معهم الرماح والتروس والقوس والنشاب • وجميع سهامهم مسمومة وقد أكد لى بعضهم على أنها حقيقة أكيدة ، أن كثيرا من الأشخاص، وبخاصة من يضمرون الشر للناس ، يحملون معهم السم ، على الدوام ، وبقصد ابتلاعه ، فى حالة اعتقالهم لأية جريرة يرتكبونها وتعرضهم للتعذيب ، بحيث يمكنهم القضاء عـلى أنفسهم بيدهم بدل مكابدته • بيد أن حكامهم الذين هم على بينة من هذه الممارسة ، مزودون دائما بروث الكلاب ، الذى يلزمون المتهم بابتلاعه فور تناوله السم ، وذلك لأنه يتسبب فى أن يقىء السم(٧) ، وهكذا يصبح ترياقا جاهزا ليعمل ضـد تفانين هـؤلاء المنـاكيد • وكان هـذا الشـعب قبل دخوله فى طاعة الخـان الأعظم ، مولعا بالعـادة الوحشـية التالية : فانه متى تصادف أن غريبـا ذا صـفات ممتازة : يجمع بين جمال الشخص والشـجاعة المتـازة ، نزل ضيفا بمنزل أحدهم ، قتلوه أثناء الليل ، لا من أجل ماله ، ولكن بغية أن تظل روح المتوفى ، بما وهبت من مهارات وذكاء ، مقيمة بين ظهرانى العائلة ، وأنه يفضل مفعول هذا الكسب

المحرز ، تزدهر جميع شئونهم . ومن ثم فقد كان يعد سعيد الحظ كل فرد امتلك بهذه الطريقة روح أية شخصية نبيلة ؛ كما أن كثيرين فقدوا حياتهم نتيجة لذلك العرف . ولكن منذ أن شرع جلالته بحكم البلاد ، اتخذ الاجراءات اللازمة للقضاء على هذه الممارسة البشعة ، ونتيجة لأثر العقوبات القاسية التى كانت تنزل بمقترفيها ، توقفت تماما .

الفصل الحادى والأربعون

عن ولاية كاردانـدان ومدينـة فوتشـانج .

لو أفضنا من كارازان فى رحلة خمسة أيام باتجاه الغرب ، نبلغ ولاية كاردانداں ، وهى تابعة لمتلكات الخان الأعظم ، وتسمى قصبتها فوتشانج (١) . وعملة هذا الاقليم هى الذهب موزونا ، وكذلك الأصداف (البورسولين) .

وتتم مبادلة أوقية من الذهب على خمس أوقيات من الفضة ، والساجيو الواحد من الذهب على خمسة ساجيو من الفضة ، حيث لا توجد مناجم للفضة بتلك البلاد ولكن بها الكثير من الذهب ، ونتيجة لهذا فان التجار الذين يستوردون الفضة يحصلون على مكاسب باهظة .

واعتاد نساء هذه الولاية ورجالها ، تغطية أسنانهم بصفائح رقيقة من الذهب تشكل بدقة وأناقة وفق شكل الأسنان ، وتظل على الأسنان دائما . ويشكل الرجال أيضا خطوطا أو أشرطة قاتمة حول أذرعهم وأرجلهم ، وذلك بوخزها على الوجه التالى : فهم يربطون خمس ابر معا ، ولا يزالون يضغطونها فى اللحم حتى يخرج الدم ، وعندئذ يدعكون الثقوب بمادة سوداء ملونة ، تترك فى الجلد أثرا لا يمحى .

وتعد هذه الأشرطة القاتمة من حلية الزينة ودلائل الامتياز المشرف (٢) . وهم لا يعيرون بالا لأى شىء عدا

الفروسية ورياضات الطراد ، وكل ما انتمى الى استخدام الأسلحة والحياة العسكرية • تاركين لزوجاتهم ادارة شئونهم المنزلية كافة ، يساعدهن في أعمالهن الرقيق ، الذى اما أن يشترى أو يؤخذ أسيرا فى الحرب •

وألف هؤلاء الناس هذه الممارسة العجيبة التالية : فما أن تضع امراة طفلا وتنهض من الفراش ، وتحمى طفلهـا بالماء وتلفه بالأقمطة، حتى يشغل زوجها المكان الذى غادرته، ويأمر بوضع الطفل الى جانبـه ، ثم يتولى رعايتـه أربعين يوما • وفي الوقت نفسه ، يقوم أقارب العائلة ، وأصدقاؤها بزيارته لتهنئته ، بينما تتولى المرأة شئون البيت ، وتحمـل الى الزوج فى فراشه الأطعمة والشراب ، وترضع الوليد الى جواره ، ويأكل هؤلاء القوم اللحم نيئا ، أو مجهزا بالطريقة التى سلف وصفها ، ويأكلون معه الأرز • وخمرهم مصنوعة من الأرز ، مع خلطها بمزيج من التـوابل ، كما أنه مشروب طيب •

وليس للقوم فى هذه المنطقة معابد ولا أوثان ، ولكنهم يقدمون عبادتهم لكبير العائلة أو سلفها الأول ، الذى هم فيما يقولون ــ نظرا لاستمدادهم وجودهم منه ــ مدينون له بكل ما يمتلكون (٣) •

وليست لديهم أية معرفة أيا كان نوعها بالكتابة ، كمـا أن هذا شىء لا عجب فيه ، اذا وضعت فى الاعتبـار الطبيعة الغليظة للبلاد ، وهى شقة جبلية مغطاة بأكثف الغابات •

وفى أثناء فصل الصيف يكون الجو كئيبا وغير صحى الى حد أن يضطر التجار وغيرهم من الغرباء الى مغادرة الناحيـة للنجاة بأنفسهم من الموت (٤) •

وعندما تدور بين الأهالى صفقات تجارية وأشغال مما يستلزم منهم تنفيذ أى التزام بقيمة دين أو ائتمان ، فان

كبيرهم يتناول قطعة مربعة من الخشب ، ويقسمها الى قسمين ٠

وعندئذ تحز فيها حزوز ، تدل على المبلغ ، موضع الالتزام ، ويتلقى كل فريق قطعة من القطعتين المتقابلتين على النحو الذى يمارس فى عصا الحساب عندنا ٠ وعند انتهاء مدة المداينة ، ودفع المدين لدينه يسلم الدائن قطعته ، ويظل الجميع راضين ٠

ولا يمكن العثور فى هذه الولاية ولا فى مدن كاين دو أو فوتشانج آو ياتشى ، على أشخاص يتعاطون فن التطبيب ٠ فمتى أصيب شخص ذو حيثية بمرض ، ترسل عائلته فى طلب أولئك المشعوذين الذين يقدمون الذبائح للأصنام ، واليهم يقدم المريض بيانا بطبيعة شكايته ٠

وعندها يعطى المشعوذون التعليمات بحضور أشخاص يقومون بالدق على أنواع مختلفة من الآلات المدوية ، حتى يرقصوا ويغنوا الترانيم تكريما لأصنامهم وثناء عليها ، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى تستولى الروح الشريرة على أحدهم ، فيكفون عما يبذلونه من جهود موسيقية ٠

وعندئذ يسألون الشخص المستولى عليه عن سبب علة الرجل ، والوسيلة التى ينبغى أن تستخدم للبلوغ به الى بر الشفاء ٠ فتجيب الروح الشريرة على فم من دخلت فى جسمه ، بأن سبب المرض هو جريرة ارتكبت فى حق واحد معين من الآلهة ٠ فعندئذ يوجه المشعوذون صلواتهم الى ذلك الآله ، ضارعين اليه العفو عن الخاطىء ، شريطة أن يقدم عندما يشفى تضحية من دمه ٠

ولكن لو أدرك الشيطان أن لا احتمال للشفاء ، أعلن أن الاله غاضب غضبا شديدا بحيث لا يمكن تسكين غضبه

بأى قربان • فان حدث ، بضد ذلك ، انه قدر أن من المحتمل أن يحدث شفاء ،أمر بتقديم قربان بعدد ما من الغنم تكون رؤوسها سوداء ، وبتجمع عدد ما من المشعوذين مع زوجاتهم وأن يتم تقديم التضحية على أيديهم ، وبهذه الوسيلة فيما يقول ، يمكن استرضاء عطف الاله • فيذعن الأقارب فورا لكل ما طلب منهم ، فتذبح الغنم ، يرش دمها نحو السماء ، ويوقد المشعوذون (ذكرانا واناثا) النار ويعطرون بالبخور بيت المريض كله منتجين دخانا كثيفا بخشب الصبر • ويرشون فى الهواء المرق الذى أغلى فيه اللحم ، ومعه بعض الشراب المخمر مع التوابل ، ثم يروحون يضحكون ويغنون ويرقصون بأرجاء المكان ، بفكرة تقديم التكريم لوثنهم أو الههم •

وبعد هذا يستفسرون من الممسوس بالشيطان هل تم ارضاء الوثن بالأضحية التى قربت ، أم أن أمره هو أن يقرب قربان آخر • فاذا جاء الجواب بأن الاسترضاء كان مقنعا ومرضيا ، عمد المشعوذون من الجنسين ، ولم يكفوا أغانيهم بعد ، الى الجلوس الى الموائد ، وشرعوا فى تناول اللحم الذى قدم فى القربان واحتساء الشراب الممزوج بالتوابل ، بعد أن تجرى به اراقة مرسمية، مشفوعة بعلامات المرح العظيم •

فاذا هم فرغوا من طعامهم ، وقبضوا أجرهم ، عادوا الى بيوتهم ، واذا تم بعناية الله شفاء المريض ، نسبوا شفاءه الى « البد » الذى قدمت له التضحية ، ولكن لو تصادف أنه مات، أعلنوا عند ذلك أن المناسك ضاع أثرها بسبب من جهزوا الأطعمة حيث تجرءوا على تذوقها قبل تقديم نصيب البد : (الوثن) اليه • وينبغى أن يكون مفهوما أن المراسم الاحتفالية من هذا النوع لا تمارس عند اصابة كل فرد

بالمرض ، وانما تمارس فقط مرة أو اثنتين فى مدى شــهر من أجل الشخصيات النبيلة أو الثرية ٠

ومع ذلك فانها شائعة بين جميع السكان الوثنيين بجميع ولايات كاثاى ومانجى ، الذين يكون الطبيب شخصية نادرة الوجود بينهم ٠ وهكذا تلعب الشياطين بعماية هؤلاء القــوم المضللين التعساء (٥) ٠

الفصل الثانى والأربعون

عن الطريقـــة التى أتم بها الخان الأعظم فتح مملكتى ميين وبنجالا .

قبـل مضينا لتقـديم المزيد (من وصــف الاقليم) ، سنتحدث عن معـركة جـديرة بالذكر دارت رحاها بمملكة فوتشانج (أو أونتشانج أو يونتشانج) .

فقد حدث أنه فى عام ١٢٧٢ أرسل الخان الأعظم جيشا دخل أقاليم توتشانج وكرازان ، بقصـد وقايتهـا والدفاع عنها ضد أى هجـوم ربما حاول القيـام به الأجانب (١) ، وذلك لأنه لم يكن حتى هـذه السـاعة عين أولاده فى ولاية الحكم ، وهى السياسة التى جرى عليها فيما بعد ، كما هـو الحال مع سن تيمور ، الذى شكلت له من هذه الأماكن امارة .

عندما علم ملك ميين (١) وبانجالا (٢) ، بالهند ، وهو ملك قوى بوفرة عدد رعاياه . وترامى مملكته ، وعريض ثرائه أن جيشا من التتار وصل الى فوتشانج ، قطع على نفسه عزما على التقدم فورا لمهاجمته ، حتى يعيق بتدميره اياه ، الخان الأعظم من تكرار محاولة وضع قوة عسكرية على تخوم ممتلكاته . فجمع من أجل ذلك الغرض جيشا عرمرما ، يشمل مجموعة ضخمة من الفيلة (وهو حيوان يكثر وجوده ببلاده)، ووضعت على ظهورها مزاغل أو قلاع من الخشب ، تستطيع كل منها احتواء اثنى عشر رجلا أو ستة عشر .

وبهذه وبجيش كثير العدد من الراكبة والراجلة ، سلك الطريق المؤدى الى فوتشانج ، حيث كان ينزل جيش الخان الأعظم ، فعسكر غير بعيد منها وانتوى أن يعطى جنده راحة لبضعة أيام . ولكن ما كاد نبأ اقتراب ملك ميين ، بهذه القوة الجرارة ، يبلغ مسامع نستردين (٤) ، الذى كان يقود جند الخان الأعظم ، حتى أحس بانزعاج شديد وان كان ضابطا شجاعا ومقتدرا ، اذ لم تكن تحت امرته الا اثنا عشر ألفا من الرجال (وان كانوا بالفعل من محنكة الجند وشجعانها) ، بينما كانت عدة العدو ستين ألفا ، وذلك الى الفيلة المسلحة على الوجه آنف الوصف . على أنه لم يبد ، رغم ذلك أية دلالة على الخوف ، ولكنه بعد أن هبط سهل فوتشانج (٥) ، اتخذ موقعا كان جناحه فيه محميا بغابة كثيفة من الأشجار الكبيرة ، التى يستطيع جنده أن يأووا اليها لو هاجمتهم الفيلة هجوما عنيفا ، قد لا تستطيع جنده تحمله والوقوف فى وجهه ، ومن هناك يستطيعون ، وهم فى أمان ، مضايقتها بسهامهم . فدعا أكابر ضباط جيشه الى اجتماع ، حثهم فيه على عدم ابداء شجاعة أقل فى هذه المناسبة مما أبدوه فى جميع لقاءاتهم السابقة بالاعداء ، مذكرا اياهم أن النصر لا يتوقف على عدد الرجال وانما على الشجاعة وحسن النظام .

وأخذ يخيل لهم أن جند ملك ميين وبنجالا (البنغال) كانوا أغمارا غير مجربين ولا متدربين على ممارسة القتال ، لم تتح لهم فرص اكتساب الخبرة التى كانت من نصيبهم وتحققت لهم ، وأنه بدلا من أن ييئسهم تفوق العدو عليهم فى العدد ، ينبغى لهم أن يكونوا على ثقة باقدامهم الذى طالما وضع موضع التجربة ، وان اسمهم وحده موضع الرعب ، لا للعدو الماثل أمامهم وحده ، بل للعالم كله أيضا ، وختم أقواله بأن وعدهم أن يقودهم الى نصر أكيد . وعندما علم ملك ميين أن التتار هبطوا الى السهل ، دفع جيشه على الفور الى التحرك واتخذ مواقعه على بعد ميل تقريبا من العدو ،

وقام بتوزيع قواته ، جاعلا الفيلة فى المقدمة ، والخيالة والمشاة ، فى جناحين ممتدين خلف الفيلة ، مع ترك مسافة ضخمة بينهما ٠

وهنا اتخذ موقعه الخاص ، وتقدم لبعث الحمية فى رجاله وتشجيعهم ليقاتلوا باقدام وشجاعة ، مؤكدا لهم أن النصر حليفهم ، نتيجة لتفوقهم العددى حيث كان أربعة لواحد ، وكذا لما لديهم من هيئة جبارة من الفيلة المسلحة ، التى لن يستطيع العدو ، الذى لم يشتبك قط مع مقاتلة من هذا النوع تحمل صدمتها ولا مقاومتها بأية حال ٠

ثم أصدر أوامره باطلاق أصوات عدد رهيب من آلات الحرب ، وتقدم بجرأة بكامل جيشه ، نحو جيش التتار ، الذى ثبت فى مكانه ولم يتزحزح قيد أنملة ، وان سمح لهم بالاقتراب من خنادقه ٠

ثم انطلقوا بعد ذلك خارجين منها بروح عالية وبأشد التوق الى الاشتباك ، ولكن سرعان ما تجلى أن خيول التتار ، التى لم تعتد رؤية هذه الحيوانات البالغة الضخامة بما حملت من قلاع ، قد فزعت واستدارت محاولة الفرار ، ولم يستطع راكبوها كبحها بأى جهد بذلوه ، بينما الملك مع كامل قواته كان يكتسب أرضا جديدة فى كل لحظة ٠

وما كاد القائد الحصيف يدرك هذا الاضطراب غير المتوقع ، حتى أقدم ، دون أن يفقد حضور ذهنه ، فاتخذ على الفور اجراء سريعا بأمره رجاله بالترجل عن خيلها وسحب الخيل الى الغابة حيث ربطت الى الشجر ٠

فلما أن ترجل الرجال تقدموا على أقدامهم بغير اضاعة وقت نحو خط الفيلة وبدءوا إطلاقا سريعا للسهام ، بينما من كان ، فى الجانب الآخر ، ممن وضعوا فى القلاع ، وسائر

جيش الملك كانوا يرشقونهم بآلاف النبال فى مقابل ذلك بأعظم همة ونشاط •

بيد أن سهامهم لم يكن لها نفس وقع سهام التتار ، الذين كانوا يشدون على قسيهم بأذرع أقوى منهم •

وكانت طلقات الفريق الثانى من الاستمرار وعدم الانقطاع ، كما انه بلغ من تركيز أسلحتهم كلها (تبعا لتعليمات قائدهم) على الفيلة ، أن أصبحت هذه الحيوانات مغطاة بالسهام بسرعة ، واذ انهارت تلك الحيوانات فجأة ، فانها استدارت تدوس أصحابها فى المؤخرة ، فبثت فى صفوفهم الفوضى والاضطراب •

وسرعان ما أصبح من المحال على سائقيها سوسها ، لا بالقوة ولا ببراعة التوجيه • فأما الفيلة ، وقد برحت بها آلام جراحها ، وامتلأت رعبا من أصوات مهاجميها ، فخرجت عن كل قياد ، ثم أخذت تجرى بغير توجيه ولا تحكم من أحد فى كل اتجاه ، حتى اضطرها بالغ الهياج والخوف الى الاندفاع الى جزء من الغابة لا يحتله التتار •

وكانت عاقبة ذلك أنه نظرا لتقارب غصون الأشجار الضخمة ، فانها كسرت بدوى هائل المزاغل أو القلاع المحمولة على ظهورها ، فأضافت الى قائمة التدمير كل من كان جالسا على ظهورها •

وعندما رأى التتار هزيمة الفيلة المنكرة وتشتتها ، اكتسبوا شجاعة جديدة، حتى اذا اصطفوا فصائل وتشكيلات، فى نظام كامل وترتيب مطلق ، عادوا الى خيولهم فامتطوها ، وانضموا الى فرقهم المختلفة ، وعندئذ تجدد القتال دمويا رهيبا •

ولم تعوز الشجاعة جند الملك ، وكان هو بنفسه يمضى بين الصفوف متوسلا اليهم أن يثبتوا فى أماكنهم ولا ينزعجوا بالحادثة التى نزلت بالفيلة • ولكن التتار ، بما أوتوا من مهارة فائقة في الرماية ، كانوا أقوى منهم وأشد بأسا ، وأنزلوا بهم بلاء ورهقا الى أبعد حد ، نظرا لعدم تزودهم بالدروع والجنن التى استتر وراءها التتار • حتى اذا استنفدت السهام عند كل من الجانبين ، هرع الرجال الى سيوفهم ودبابيسهم الحديدية وتلاقوا بعنف شديد • وفى لحظة واحدة انبجست جراح رهيبة وانبترت أطراف ، وسقطت على الأرض الآلاف مشوهين معقورين ومحتضرين ، مع اراقة بالغة فى الدماء تقشعر لها الأبدان • وكذلك كان اصطكاك الأسلحة رهيبا ، وكانت الصيحات والصرخات مفزعة ، حتى ليخيل اليك أن الضجيج كان يبلغ عنان السماء •

وتصرف ملك ميين ، على أنسب وجه يتفق وشهامة ملك شجاع ، فكان يتواجد حيثما ظهر أكبر الخطر ، مشجعا جنده ، ومتضرعا اليهم الصمود فى مواقعهم بعزم • وأمر كتائب جديدة من الاحتياطى بالتقدم لمساندة من بلغ بهم الاعياء ، ولكنه عندما أدرك فى النهاية أنه أصبح من المحال مواصلة الكفاح ولا تحمل اندفاع التتار وتهورهم ، بعد أن لقى الشطر الأكبر من جنده مصرعهم أو جرحوا ، وأمسى الميدان كله مغطى بجثث الرجال والخيل ، بينما أخذ من بقوا على قيد الحياة في الانهيار ، فانه وجد نفسه أيضا مضطرا الى الفرار مع حطام جيشه ، الذين لم تنج أعداد غفيرة منهم بعد ذلك من الذبح أثناء الملاحقة •

وكانت خسائر هذه الموقعة ، التى دامت من الصباح الى الظهيرة ، فادحة على الطرفين كليهما ولكن انتهى الأمر بانتصار التتار ، وهي نتيجة نسبت بقوة ، الي عدم ارتداء

جند ملك ميين وبنجالا الدروع شأن التتار ، والى أن فيلتهم وبخاصه فيله الصف الاول ، تجردت هي أيضا من ذلك النوع من اسباب الدفاع ، والذى كان يمكنهم من تحمل أول طلقات سهام العدو ، وبذلك يتيح لهم كسر صفوفه وايقاع التشتت بينها ·

وثمة نقطة ذات أهمية أكبر ، هى أنه ما كان ينبغى للملك القيام بهجومه على التتار فى موقف تساند فيه غابه جناحه ، وانما كان الأولى به أن يحاول جرهم الى منطقة مفتوحة ، حيث لم يكن ليمكنهم مقاومة الهجمة المندفعة الأولى للأفيال المدرعة ، بينما كان يمكنه هناك بمد خيالة جناحيه أن يلتف حولهم ·

وبعد أن جمع التتار شتات قوتهم بعد الذبح الذى أعملوه فى العدو ، عادوا الى الغابة التى فرت اليها الأفيال التماسا للنجاة ، ليستولوا عليها ، فوجدوا الرجال الذين نجوا من الهزيمة فى المعركة ، مشتغلين بقطع الأشجار ووضع المتاريس فى الممرات ، بقصد الدفاع عن أنفسهم · ولكن سرعان ما حطم التتار تحصيناتهم ، وذبحوا كثيرا منهم ، واستطاعوا بالاستعانة بأشخاص لهم خبرة بشئون قياد الفيلة ، أن يستولوا على عدد منها بلغ مائتين أو أكثر ·

ومنذ تلك المعركة ، آثر الخان الأعظم على الدوام استخدام الافيال فى جيوشه ، وهو أمر لم يفعله قط قبل تلك اللحظة · وكانت نتائج ذلك النصر ، أنه استولى على جميع ميمتلكات ملك بنجالا وميين ، وضمها لممتلكاته ·

الفصل الثالث والأربعون

عن منطقة غير مسكونة ، وعن مملكة ميين ٠

اذا أنت غادرت ولاية كاردانداان ، دخلت فى منحدر هائل ، تسافر فيه بلا انقطاع ولا تغيير مدة يومين ونصف ، لا تجد أثناءها أثرا لدار ٠ ثم تصل بعد ذلك الى سهل (١) مترامى الأطراف يجتمع فيه ثلاث مرات فى الاسبوع ، عدد من المتجرين ، يهبط كثير منهم من الجبال المجاورة ، جالبين معهم ذهبهم ليبادلوا به على الفضة ، التى يجلبها معهم لتلك الغاية التجار الذين يفدون الى هناك من أقطار بعيدة (٢) ، ويقدم ساجيو واحد من الذهب مقابل خمسة من الفضة ٠

ولا يسمح للأهالى بأن يكونوا هم المصدرين لما يملكون من ذهب ، بل ينبغى أن يسلموه الى التجار ، الذين يزودونهم بما يحتاجون اليه من سلع ، ولما كان أحد ، عدا الأهالى أنفسهم ، لا يستطيع الدخول الى مناطق سكناهم ، نظرا لشدة ارتفاع مواقعها ومنعتها ، وشدة عسر الاقتراب منها ، فانه من أجل ذلك تتم الصفقات التجارية فى منبسط السهل ٠ ووراء هذه المنطقة باتجاه جنوبى نحو تخوم الهند تقع مدينة ميين (٣) ٠ وتستغرق الرحلة خمسة عشر يوما ، فى منطقة هجرها سكانها الى حد كبير ، وغابات ممتلئة بالأفيال والخراتيت ، وغيرها من الحيوانات الضارية وليس بها أثر لأى دار سكنى ٠

الفصل الرابع والأربعون

عن مدينة ميين ، وعن قبر ضخم لملكهــا .

بعد سفرة الأيام الخمسة عشر الآنف ذكرها ، تبلغ مدينة ميين ، وهي المدينة الواسعة الفخمة وحاضرة المملكة (١) . والسكان بها من عبدة الأوثان ، ولهم لغة خاصة بهم وحدهم . ويروى انه كان يتولى الحكم بهذه البلاد ملك غني وقوى ، أصدر أوامره ، وقد اقتربت منيته ، ببناء برجين هرميين من خالص الرخام في مكان دفنه ، أحدهما عند رأس قبره والآخر عند قدميه بارتفاع عشر خطوات ، ولهما ضخامة مناسبة ، وينتهي كل منهما بكرة (٢) . وكان أحد هذين الهرمين مغطى بطبقة من الذهب سمكها بوصة ، بحيث لا يبدو منه شيء عدا الذهب ، كما غطى الهرم الثاني بطبقة من الفضة ، بنفس السمك ، وقد علقت حول الكرتين أجراس صغيرة من الذهب والفضة ، تحدث رنينا كلما حركتها الريح (٣) . وكان النصب بمجموعة يؤلف شيئا فاخرا بديعا . وغطى القبر بالمثل بصفائح بعضها من الذهب والبعض الآخر من الفضة . وقد أمر الملك باعداد هذا النصب تكريما لروحه ، ورغبة في ألا تفنى ذكراه . ولما أن عقد الخان الأعظم العزم على الاستيلاء على هذه المدينة ، سير عليها ضابطا مغوارا لتنفيذ هذه المهمة ، ورافق الجيش ، بناء على رغبة أفراده الخاصة ، بعض الحواة أو المشعوذين ، الذين حفل البلاط على الدوام بعدد كبير منهم (٤) . فلما أن دخل هؤلاء المدينة ، لاحظوا الهرمين البالغي الزخرفة الثمينة ،

ولكنهم لم يمسوهما حتى يصل الى علمهم رغبة جلالته فيما يتعلق بهما • وعندما أبلغ الخان الأعظم ، أنهما أقيما تخليدا تقيا لذكرى ملك سابق ، ابى أن يأذن بانتهاكهما ولا المساس بهما بأية حال ، نظرا لما جرت عليه عادة التتار من اعتبار ازالة أى شىء تابع للموتى خطيئة فاحشة (٥) • وكانت توجد بهذا القطر فيلة كثيرة وثيران وحش (٦) ، ضخمة وجميلة ، مع الوعول والأيائل السمراء ، وحيوانات أخرى فى أعداد موفورة الكثرة •

الفصل الخامس والأربعون

عن ولاية بانجالا (البنغال) ·

تقع ولاية بانجالا على الحدود الجنوبية للهند (١) ولم تكن أدخلت (بعد) تحت سيادة الخان الأعظم فى وقت اقامة ماركو بولو ببلاطه ، (وان) شغلت العمليات الموجهة عليها جيشه زمنا كبيرا جدا ، وذلك نظرا لقوة البلاد وشدة بأس ملكها ـ كما أسلفنا لك وللاقليم لغته الخاصة ، والناس فيه عباد أوثان · ويوجد فيهم معلمون على رأس مدارس لتعليم مبادىء دينهم الوثنى فضلا عن السحر ، الذى ينتشر مذهبه بين جميع الطبقات بما فيها النبلاء ورؤساء البلاد (٢) · وتوجد هنا ثيران يكاد يبلغ ارتفاعها ارتفاع الفيلة ، ولكنها لا تضارعها ضخامة (٣) · ويقتات السكان باللحم النيىء واللبن والأرز ، التى يكثر وجودها لديهم بوفرة (٤) ويزرع بالبلاد قطن كثير ، وتزدهر التجارة · ومن نتاج الأرض يؤخذ سنبل الطيب والخلنجان والزنجبيل والسكر ، وكثير من أنواع العقاقير (٥) ، وهى ثمار ينتجع التجار هذا الاقليم من مختلف أجزاء الهند لشرائها · كما أنهم يقبلون أيضا على شراء الخصيان (الطواشية) ، الذين يوجد منهم أعداد وفيرة بالبلاد ويتخذون رقيقا ، وذلك لأن جميع أسرى الحرب يخصون على الفور ، ولما كان كل أمير وكل شخص ذى مكانة راغبا فى الحصول عليهم ليقوموا على حراسة نسائهم ، فان التجار يحصلون مكاسب ضخمة بحملهم الى ممالك أخرى ، وهناك يتصرفون فيهم بالبيع (٤) · وطول هذه الولاية مسيرة ثلاثين يوما ، وتقع على الجانب الشرقى منها بلاد تسمى كانجيجو ·

الفصل السادس والأربعون

عن ولاية كانجيجو ·

ان كانجيجو ولاية تقع فى ناحية الشرق (١) ، ويحكمها ملك · وسكانها وثنيون ، ولهم لغة خاصة ، ويقدمون الى الخان الأعظم خضوعهم بمحض ارادتهم ، ويدفعون له جزية سنوية · والملك من بالغ الولع بالملذات الحسية ، بحيث أصبح له أربعمائة زوجة تقريبا ، وكلما سمع بامرأة جميلة ، أرسل فى طلبها ، وأضافها الى العدد المجتمع لديه (٢) · ويوجد الذهب هنا بمقادير كبيرة ، وكذلك توجد أنواع كثيرة من العقاقير ، ولكن لما كانت البلاد قطرا داخليا بعيدا عن البحر ، تضاءلت الفرصة أمام بيعها · والفيلة هناك توجد بكثرة ، كما توجد بهائم أخرى · ويتغذى السكان باللحم والأرز واللبن ، وليس لديهم خمر تصنع من العنب ، ولكنهم يجهزونها من الأرز وخليط من العقاقير · والرجال والنساء جميعا يشمون مسطح أجسامهم كله بأشكال البهائم والطيور ، ويوجد بينهم وشامون لا عمل لهم الا رسم هذه الحليات بسن ابرة على الأيدى والسيقان والصدر · فاذا دعكت على هذه الثقوب مادة سوداء ملونة ، صار من المستحيل ازالة آثارها من الجلد لا بالماء ولا بغيره · والرجل أو المرأة الذى يظهر فيه أعظم قدر من هذه الصور يعد أجمل الناس ·

الفصل السابع والأربعون

عن ولاية آمو ·

تقع آمو أيضا جهة الشرق (١) ، كما أن سكانها هم من رعايا الخان الأعظم · وهم من الوثنيين ، ويعيشون على لحوم ماشيتهم وعلى ما تنتج الأرض من ثمرات · ولهم لغة خاصة · وينتج ذلك القطر كثيرا من الثيران والخيول ، التى تبـــاع للتجار المتنقلين وتحمل الى الهند · والجاموس أيضـــا كثير العدد كالثيران سواء بسواء (٢) ، وذلك نتيجة طبيعية لشدة اتساع المراعي وجودتها · ويلبس كل من الرجال والنســاء حلقات من الذهب والفضة في معاصمهم وأذرعهم وأرجلهم، ولكن حلقات الاناث أغلى ثمنا · والمسافة الفاصلة بين هــذه الولاية وبين كانجيجو ، هى مسيرة خمسة وعشرين يوما(٣)، ثم منها الى البنغال ، فى عشرين يوما · وســنتحدث الآن عن ولاية تسمى ثولومان ، تقع على مسيرة ثمانية أيام من الأولى (أى آمو) ·

الفصل الثامن والاربعون

عن ثولومان ·

تقع ولاية ثولومان الى الشرق (١) ، وكما أن سكانها عبدة أوتان · ولهم لغة خاصة ، كما أنهم من رعايا الخان الأعظم · والناس هنا طوال القامة حسنو الصورة ، ولون بشرتهم أقرب الى السمرة البنية منه الى الشقرة · وهم ذوو عدل فى معاملاتهم وشجاعة فى معترك القتال · وتقع كثير من مدنهم وقلاعهم فوق جبال سامقة · وهم يحرقون اجسام موتاهم ، فأما العظام التى لا تتحول رمادا ، فيضعونها فى صناديق من الخشب ، ويحملونها الى الجبال ، حيث يخفونها فى كهوف الصخور ، حتى لا يزعجها أى حيوان من الضوارى (٢) · وبها توجد مقادير موفورة من الذهب · ويستخدمون بدلا من العملات العادية الصغيرة ، الأصداف البورسلانية ، التى ترد من الهند ، وينتشر استخدام هذا النوع من النقود أيضا فى الولايتين سالفتى الذكر : كانجيجو وآمو · وطعامهم وشرابهم هو نفس ما يتناوله الآخرون ، وورد ذكره آنفا ·

الفصل التاسع والأربعون

عن مدن تشنتجوى وسيدين فو
وجن جوى وبازان فو ·

اذا أنت خلفت وراءك ولاية ثولومان ، واتبعت طريقا متجها صوب الشرق (١) ، فانك تسافر مدة اثنى عشر يوما فى نهر · تقع على كل ضفة من ضفتيه مدن وقلاع كثيرة ، حتى تصل فى خاتمة المطاف الى مدينـة تشنتجوى الضخمة الجميلة (٢) التى يتكون سكانها من وثنيين ، وهم من رعايا الخان الأعظم · وهم تجار وصـناع · ويصـنعون من لحاء أنواع معينة من الشجر قماشا ، جميل المنظر ، وهو الملبس الذى يرتديه الجنسان كلاهما صيفا · والرجال هنا مقاتلون شجعان · وليس لديهم أى نوع آخر من النقود عدا الـورق المختوم الذى يصدره الخان الأعظم (٣) ·

والببور فى هـذه الولاية من الكثرة ، بحيث لا يجـرؤ السكان ، من خوفهم من بطشها على المبيت ليلا خارج مدنهم ، فمن ركبوا منهم النهر ، لا يجسرون عـلى أخـذ قسط من الراحة بينما قواربهم راسية قرب الشاطىء ، وذلك لما عرف عن هـذه الحيـوانات من خـوض الماء والسبح الى الزوارق وجر الرجال منهـا ، ولذلك يجـدون من الضرورى القاء مراسيهم فى منتصف النهر ، حيث يكونون فى مأمن بسـبب عظم اتساعه (٤) · ويوجـد أيضـا بهـذا القطر ، أضخم وأشرس ما يمكن الالتقـاء به من الـكلاب : وهى من بالغ الشجاعة وشدة البأس ، بحيث يستطيع رجل يصحبه اثنـان

منها ، أن يكون أكثر من ند لأى ببر · وهو اذ يكون مسلحا بقوس وسهام ، مصحوبا بهذين الوحشين ، لو التقى ببير ، أطلق عليه كلبيه الجسورين فيتقدمان لمهاجمته على الفور · فيهرع الحيوان بالغريزة الى التماس شجرة يحمى بها ظهره ، حتى لا يتمكن الكلبان أن يصلا اليه من الخلف ، وحتى يجعل عدويه امامه · وبهذه الغاية ، فانه ما يكاد يرى الكلبين حتى ينطلق نحو الشجرة ، ولكن فى بطء وريث ، وبغير أن يجرى بأية حال ، حتى لا يظهر أمامهما أية بادرة من الخوف ، الأمر الذى لا تسمح به كبرياؤه · وفى أثناء هذه الحركة المتعمدة ، يطبق عليه الكلبان ، ويرشقه الرجل بسهامه · ويحاول هو بدوره الامساك بالكلبين ، ولكنهما من خفة الحركة بحيث يفوتان عليه غرضه ، وينسحبان الى الخلف ، بينما يعاود هو مسيرته المتئدة ، ولكن قبل أن يمكنه بلوغ موقعه ، تكون سهام عديدة قد جرحته وعضته الكلاب عضات كثيرة ، حتى يخر صريعا من الضعف ومن نزف الدماء · وبهذه الوسيلة يصاد فى آخر المطاف (٥) ·

وتقوم هنا صناعة كبيرة للحرائر ، تصدر منتجاتها بمقادير ضخمة الى أجزاء أخرى (٦) عن طريق الملاحة فى النهر ، وهو يواصل مسيره بين المدن والقلاع ، ويعيش الناس على التجارة وحدها ، ثم تبلغ بعد انقضاء اثنى عشر يوما مدينة سيدين فو ، التى سبق أن تكلمنا عنها ببيان (٧) ومن هنا نستطيع وصولا فى مدى عشرين يوما ، الى جن جوى ، التى كنا بها ، ثم نكون فى أربعة أيام أخرى بمدينة بازان فو (٨) ، التى تتبع كاثاى ، وتقع صوب الجنوب ، أثناء العودة بطريق الجهة الأخرى من الولاية (٩) · ويعبد السكان الأصنام ، ويحرقون أجساد موتاهم · ويوجد هنا أيضا مسيحيون معينون ، ولهم كنيسة (١٠) وهم من رعايا الخان الأعظم ، كما أن عملته الورقية متداولة بينهم · وهم يكسبون معاشهم بالتجارة والصناعة ، اذ يتوافر لديهم

الخزير بكثرة ، ويصنعون أنسجة مخلوطة بالذهب ، كما يصنعون منه مطارف وأوشحة بالغة الرقة . وتتبع هذه المدينة كثير من البلدان والقلاع : ويجرى بجوارها نهر عظيم ، تحمل بواسطته مقادير ضخمة من البضائع الى مدينة كانبالو ، وذلك لأنهم أوصلوها بالعاصمة بحفر كثير من الترع والقنوات . ولكننا سنغادرها الآن ، واذ نتقدم مسيرة ثلاثة أيام ، سنتحدث عن مدينة أخرى اسمها تشان جلو .

الفصل الخمسون

عن مدينة تشان جلو ٠

تعد تشان جلو مدينة كبيرة (١) ، تقع فى الجنوب ، كما أنها بولاية كاثاى ٠ وهى تابعة لسلطان الخان الأعظم ٠ والسكان يعبدون الأوثان ، ويحرقون جثث موتاهم ٠ وعملة الامبراطور المختومة جارية التداول بينهم ٠ ويصنع الناس فى هذه المدينة والمنطقة المحيطة بها مقادير عظيمة من الملح بالطريقة التالية : توجد فى البلاد تربة ملحية ، وبعدما تجمع هذه التربة أكواما ضخمة، يصبون عليها الماء ، فيتشرب جزيئات الملح أثناء مروره فى أكوام التراب وعندئذ يجمع فى قنوات ، يحمل منها الى أحواض متسعة جدا ، لا يزيد عمقها عن أربع بوصات ٠ فيغلى فيها ثم يترك حتى يتبلور ٠ والملح الذى يصنع بهذه الطريقة أبيض وجيد ، كما أنه يصدر الى مختلف الأقطار (٢) ٠ ويحصل من يصنعونه على مكاسب كبيرة ، كما يصيب الخان الأعظم منه ايرادا جسيما ٠ وتنتج هذه المنطقة نوعا من الخوخ الطيب النكهة ، وهى بالغة الكبر ، الى حد أن الثمرة الواحدة تزن رطلين وافيين من أرطال مدينة ترويس الفرنسية (٣) وسنتحدث الآن عن مدينة أخرى تسمى تشان جلى ٠

الفصل الحادي والخمسون

عن مدينة تشان جلى .

ان تشان جلى أيضا ، هي احدى مدن كاثاي (١) ، وتقع في ناحية الجنوب ، وتتبع الخان الأعظم ، وسكانها يعبدون الأوثان ، كما انهم بالمثل يستخدمون عملة الخان الورقية . وهي تبعد عن تشان جلو بمسافة رحلة خمسة أيام ، تمر خلالها بكثير من المدن والقلاع تقع هي الأخرى أيضا داخل ممتلكات الخان الأعظم . وهي مراكز لتجارة عظيمة ، والرسوم التي تجبى بها تصل الى مبالغ كبيرة (٢) . ويمر خلال هذه المدينة نهر عريض وعميق ، يسمح بنقل مقادير ضخمة من التجارة ، التي تتألف من الحرير والعقاقير وغيرهما من السلع الثمينة . والآن نغادر هذا المكان ، ونقدم بيانا عن مدينة أخرى تسمى تودين فو .

الفصل الثاني والخمسون

عن مدينة تودين فو ·

عند مغادرتك تشان جلى والسفر جنوبا مسيرة ستة أيام، تمر على مدن وقلاع كثيرة لها أهمية وعظمة كبيرة، واهلوها يعبدون الأصنام، ويحرقون جثث موتاهم · وهم رعايا الخان الأعظم كما يتقبلون نقوده الورقية عملة · وهم يعيشون على التجارة وصنع المصنوعات، والأغذية لديهم موفورة · وتصل عند نهاية هذه الأيام الستة الى مدينة تسمى تودين فو (١) كانت فى الماضى عاصمة فاخرة، ولكن الخان الأعظم أضرعها للخضوع له بحد السيف · وتحولت بفضل الحدائق التى تحيط بها، بما تزخر به من الشجيرات الجميلة والفواكه الفاخرة (٢) · وينتج الحرير هنا بمقادير عجيبة الوفرة · وتقع تحت دائرة اختصاصها احدى عشرة مدينة وبلدان ضخمة من الامبراطورية، وكلها أماكن لتجارة عظيمة · بها مقادير وافرة من الحرير · وكانت مقرا لحكم ملكها الخاص، قبل اخضاعها على يد الخان الأعظم · وفى ١٢٧٢ (٣) عين جلالته أحد ضباطه من أعلى الرتب، ويسمى لوكانسور، حاكما على هذه المدينة، وجعله قائدا على سبعين ألف راكب بقصد حماية ذلك الجزء من البلاد · وأسكر الكبر هذا الرجل عندما وجد نفسه سيدا لمنطقة غنية عظيمة الانتاج، وعلى رأس مثل تلك القوة الشديدة البأس، فأخذ يدبر خطط التمرد على مولاه · وشرع ــ وهذا اتجاهه ــ يحاول التاثير على شخصيات المدينة الرئيسيين، حتى أقنعهم بالاسهام معه فى خططه الشريرة،

وتمكن بواسطتهم من احداث تمرد بجميع البلدان والآماكن الحصينة بالولايه بأجمعها • وما كاد نبا هـــذه التصرفات الخئون يبلغ مسامع الخان الأعظم ، حتى سير على تلك الناحية جيشا عدته مئة ألف رجل ، تحت امره اثنين آخرين من نبلائه ، وكان اسم أحدهما أنجول واسم الآخر مونجاتاى • وعنــد علم لوكانسور بدنو هذه القوة ، لم يضيع وقتا وجمع جيشا لا يقل عدده عن جيش خصـــميه ، وشرع يهــاجم به بأقصى سرعة ممكنة • وجرى ذبح وتقتيل ذريع فى الجانبين ، حتى اذا انتهى الأمر بصرع لوكانسور ، لاذ جنده بأذيال الفرار • وقتل كثير منهم أثنـــاء مطاردتهم ، وأخــذ كثيرون أسرى • واقتيــد هــؤلاء الى حضرة الخان الأعظم ، فأمر باعــدام الرؤســاء ، كما أنه اذ عفا عن الآخرين ضمهم الى خدمتــه الخاصة ، فكانوا له فيما بعد على الدوام النخدم المخلصين •

الفصل الثالث والخمسون

عن مدينة سنجوى ماتو

بعد رحيلك من تودين فو لمدة ثلاثة ايام ، فى اتجاه جنوبى ، تمر على كثير من المدن العظيمة والمراكز الحصينة التي تزدهر بها التجارة والصناعة ٠ والسكان وثنيون ، كما أنهم من رعايا الخان الأعظم ٠ ويكثر بالبلاد الصيد ، ما بين أنعام وطير وتنتج مددا وفيرا من ضروريات الحياة ٠ وبعد انقضاء ثلاثة أيام تصل الى مدينة سنجوى ماتو(١)، وهى مدينة فخمة وضخمة وجميلة ، غنية بما فيها من بضاعة وتجارة وصناعة ، وجميع سكان هذه المدينة من الوثنيين ، كما انهم من رعايا الخان الأعظم ، وممن يستخدمون العملة الورقية ، ويمر فى هذه الولاية ولكن جهة الجنوب منها ، نهر كبير وعميق ، قسمه السكان الى فرعين ، أحدهما يتخذ طريقه نحو الشرق ويمر من خلال كاثاى ، بينما الآخر يتخذ طريقا غربيا ويمر متجها نحو ولاية مانجى (٢) تمخر هذا النهر أعداد من السفن هى من الكثرة ما قد يبدو بعيدا على التصديق ، ويقوم بين الولايتين كلتيهما بنقل كل سلعة استهلاكية مطلوبة ٠ والحق ان مما يبعث الدهشة مراقبة ذلك العدد الغفير والحجم الضخم الكبير للسفن ، التى لا تبرح تذهب فيه وتجىء ، محملة بالسلع التجارية ذات القيمة الكبرى(٣)٠ وبعد مغادرتك سنجوى ماتو، والسفر الى الجنوب مدة ستة عشر يوما ، لا تكف قط عن الالتقاء بمدن تجارية وقلاع ٠ والناس بكل أرجاء القطر من عبدة الأوثان ، كما أنهم من رعايا الخان الأعظم ٠ وهم يحرقون أجسام موتاهم

ويستخدمون العملة الورقية · وعند نهاية رحلة أيام ثمانية، تجد مدينة تسمى لنجوى · وهى مدينة بالغة الفخامة والعظمة ، والرجال فيها رجال حرب ، وبها من الصناعات والتجارة الكثير · كما تكثر بها الحيوانات ، والمقادير الوفيرة من كل شيء صالح للأكل والشرب · وبعد مغادرة لنجوى ، تتقدم جنوبا فى رحلة تدوم ثلاثة أيام ،مارا من خلال عدد وفير من المدن والقلاع ، وكلها تحت سيطرة الخان الأعظم · وجميع السكان وثنيون ويحرقون أجساد موتاهم· وعند نهاية هذه الأيام الثلاثة تجد مدينة مليحة تسمى بنجوى ، توجد بها جميع ضروريات الحياة ، وتقدم هذه المدينة الى الخان الأعظم دخلا ضخما · ثم تفيض منها فى رحلة يومين صوب الجنوب ، من خلال أقاليم جميلة وغنية ، الى مدينة تسمى كنجوى ، وهى ضخمة جدا عامرة بالتجارة والصناعات · وجميع سكانها وثنيون ويحرقون موتاهم ، كما أنهم يستخدمون العملة الورقية وهم من رعايا الخان الأعظم · ولديهم مقادير كبيرة من الحبوب والقمح · فأما الاقليم الذى تمر فيه بعد ذلك ، فأنت واجد فيه مدنا وبلدانا وقلاعا ، وكلابا تمتاز بالجمال وكثرة المنافع ، فضلا عن وفرة فى القمح · والناس يشبهون من سبق لنا على التو وصفهم ·

الفصل الرابع والخمسون

عن النهر الكبير المسمى قراموران، وعن مدينتي كوتي جان زو وكوان زو .

وبعد انقضاء رحلة يومين ، تصل للمرة الثانية ، الى النهر الكبير قراموران (١) ، الذى ينبع من المناطق التى كانت تابعة للبريسترجون . وعرضه ميل واحد وعمقه شديد ، وتمخر على مياهه سفن ضخمة منطلقة فى يسر بحمولتها كاملة . وتصاد منه مقادير ضخمة من الأسماك الكبيرة . وهناك مكان فى هذا النهر ، يبعد قرابة ميل عن البحر ، تقوم فيه محطة لخمسة عشر ألفا من المراكب ، يتسع كل منها لحمل خمسة عشر حصانا وعشرين رجلا ، بالاضافة الى الملاحين الذين يتولون تسييرها ، وما يلزمهم من ذخيرة وميرة (٢) . وتظل هذه السفن ، بأمر الخان الاعظم ، فى حالة مستديمة من الاستعداد لنقل جيش بأكمله الى اية جزيرة من جزر المحيط (المجاور) ، قد يتصادف أن تقع فيها ثورة ، أو للقيام بالحملات على أية منطقة أبعد شقة . وتربط هذه السفن لصق ضفة النهر ، غير بعيد من مدينة تسمى كوئى جان زو (٣) ، تقع على الضفة المقابلة منها مدينة أخرى تسمى كوان زو على أن الأولى منهما ضخمة ، والثانية صغيرة (٤) . وأنت عند عبور هذا النهر ، تدخل ولاية مانجى الفاخرة ، ولكن ينبغى ألا يفهم أن بيانا كاملا تم تقديمه حول ولاية كاثاى . اذ أنى لم أصف حتى جزءا من عشرين منها . فان ماركو بولو ، فى أثناء سفره فى الولاية ، لم يلحظ الا المدن التى وقعت فى طريقه ، حيث

حذف كل ما وقع منها فى هذا الجانب أو ذاك ، فضــلا عن أماكن أخــرى كثيرة فيما بينها ، وذلك نظــرا لأن فى سرد قصتها جميعا ما يحيل الكتاب الى عمل مفرط الطول ويعــود بالسأم على القارىء • واذ نغادر هذه الأجزاء ، فاننا من ثم سنتحول للكلام أولا ، عن الطريقة التى جرى بها الاســتيلاء على ولاية مانجى ، ثم نتحدث عن مدنها ، التى سنستفيض فى شرح فخامتها وثرائها فى الجزء التالى من حديثنا •

الفصل الخامس والخمسون

عن ولاية مانجى ، البالغة الفخامة ،
وعن الطريقة التى أخضعها بها الخان
الأعظم •

ان ولاية مانجى هى أشد ما عرف من ولايات عالم الشرق فخامة وثراء (١) • وحدث حوالى عام ١٢٦٩ ان كان ذلك الاقليم خاضعا لأمير يسمى فكفور أو مقفور (٢) ، فاق فى القوة والثراء كل أمير آخر ، حكم ذلك القطر فى مدى قرن كامل • وكان وادعا ميالا الى السلم بطبعه ، جانحا الى عمل الخير •

وبلغ من حب شعبه له ، وقوة مملكته ، التى كانت محوطة بأنهار من أضخم حجم ، أن كان يعد من المحال أن تتعرض له أية قوة على الأرض •

وكانت نتيجة ذلك الاتجاه أنه لم يوجه هو نفسه أى التفات الى الشئون العسكرية ولا شجع قومه على العلم بالتدريبات العسكرية • وكانت مدن مملكته جيدة التحصين بصورة عجيبة ، حيث كانت تحيط بها خنادق عميقة عرضها مرمى السهم ومملوءة بالماء • ولم يحتفظ بأية قوة من الفرسان ، لأنه لم يكن يخشى مهاجمة أحد له • وكان المدار الرئيسى لأفكاره هو كيف يزيد من متعته وكيف يضاعف مسراته وملذاته •

وكان يعول في بلاطه ويحتفظ حول شخصه بحوالى ألف امرأة جميلة ، كان يبتهج بصحبتهن أيما ابتهاج . كان محبا للسلام والعدل ، وكان يقيم ميزانه بدقة . وكان إتفه نوع من الظلم أو الأذى أيا كان نوعه ، اذ يقع من انسان على آخر ، يعاقب عليه بطريقة تجعله عبرة ، بغير نظر الى شخصه .

وكان من شدة وطأة عدالته في الناس ، أنه لو حدث ، أن الدكاكين الممتلئة بالبضائع ، تركت مفتوحة سهوا وعن اهمال من أصحابها ، لم يجرؤ انسان على دخولها أو سرقة أصغر سلعة فيها ــ وربما أمكن المسافرون من كل الأصناف والأوصاف المرور بكل أرجاء المملكة ، ليلا ونهارا ، على حد سواء في يسر وحرية وبغير خشية من أى خطر ، كان متدينا محسنا للفقراء والمحتاجين (٣) .

وكان يأمر بانقاذ الأطفال الذين كانت أمهاتهم التميسات يتركنهم فى العراء لعدم قدرتهن على تربيتهم ، وأن يعنى بهم ، حتى يصل عددهم الى عشرين ألفا فى كل عام (٤) .

فعندما كان الصبيان يبلغون سنا كافية ، كان يأمر بتعليمهم حرفة يدوية ، ثم يزوجهم بعد ذلك من شابات ممن يربين بنفس الطريقة (٥) .

وكان كانت طباع وعادات فكفور مختلفة عن طباع قبلاى خان ، امبراطور التتار ، الذى كانت كل متعته فى الحياة تكمن فى أفكار مدارها وطبيعتها حربية بحتة ، وفى فتح الأقطار ، وملء أسماع الدنيا بصيته . فبعد أن ضم الى ممتلكاته عددا من الولايات والممالك ، وجه أنظاره الى اخضاع مملكة مانجى ، فجمع لتلك الغاية جيشا لجبا من الراكبة والراجلة ، جعله تحت امرة قائد اسمه

تشن سان بای آن ، ومعناها في لغتنا ، ذو المائة عين (٦) وحدث هذا في عام ١٢٧٣ • حيث وضع تحت امرته عددا من السفن ، تقدم بها لغزو مانجي • وعند نزوله الى الأرض هناك ، بادر من فوره الى دعوة سكان مدينة كوئي جان زو الى الخضوع لسلطان مولاه (٧) •

فلما أن رفضوا الاذعان ، تقدم الى المدينة التالية ، بدل أن يصدر أوامره بالهجوم عليها ، وعندما تلقى هناك اجابة مماثلة تقدم نحو مدينة ثالثة ، ثم نحو رابعة ، وكانت النتيجة واحدة في جميع الحالات • حتى اذا رأى أنه لم يعد من الحكمة ترك هذا العدد الكبير من المدن وراءه ، بينما لم يكن جيشه قويا فقط ، بل انه كان يتوقع أن تنضم اليه قوة أخرى مساوية لقوته كان الخان الأعظم على وشك أن يرسلها اليه من داخلية البلاد (٨) ، عقد العزم على مهاجمة احدى هذه المدن ، حتى اذا تمكن ببذل بالغ الجهود وعظيم المهارة من اجتياح المكان ، أمر بقتل كل فرد وجد فيه بحد السيف •

وما كادت أنباء هذا الحدث تبلغ المدن الأخرى ، حتى ملأت قلوب سكانها بجزع ورعب لا مثيل لهما ، فسارعوا من تلقاء أنفسهم بتقديم خضوعهم • فلما أن تم له ذلك ، تقدم بالقوة الموحدة لجيشيه ، على مدينة كنساى الملكية ، وهي مقر حكم الملك فكفور ، الذى امتلأت نفسه باضطراب ورهبة من لم يشهد معركة في حياته قط ، ولا اشترك في أى نوع من القتال • وحمله خوفه على سلامة شخصه الى التماس النجاة باللجوء الى أسطول من السفن كان على قدم الاستعداد لهذا الغرض ، فأنزل فيه كل ممتلكاته وكنوزه وأدواته الثمينة ، وترك رعاية شئون مدينته لملكته ، مع تعليمات بالدفاع عنها حتى آخر رمق ، وهو على يقين من أن أنوثتها ستكون خير واق لها ، لو وقعت أسيرة في أيدى الأعداء •

ومن هنا انطلق الى البحر ، حتى اذا بلغ بعض الجزر ، التى تقوم فيها بعض الأماكن القوية التحصين ، بقى هناك حتى وافته منيته (٩) • وبعد أن تركت الملكة على الحال سالفة الذكر ، يقال أنه بلغ مسامعها ، أن الملك أبلغه منجموه ، أنه لا يمكن أبدا حرمانه من ولايته الا على يد رئيس تكون له مائة عين •

وتأسيسا على هذا التصريح أيقنت رغم أن المدينة كانت تزداد فى كل يوم توترا وضنكا ، انه ليس فى المستطاع أن تسقط ، اذ بدا من المحال أن يكون لأى انسان هذا العدد من الأعين • على أنها عندما سألت عن اسم القائد الذى يقود جند الأعداء ، وأبلغوها أن اسمه تشن سان باى آن ، ومعناه مائة عين ، تملكها الفزع لدى سماعها اياه ، وذلك لأنها أحست اقتناعا بأن هذا لابد أن يكون هو الشخص ، الذى قد يخلع زوجها عن عرشه ، طبقا لأقوال المنجمين • وغلبها الخوف النسوى فلم تحاول بعدها اظهار أية مقاومة ، بل عمدت على الفور الى التسليم (١٠) • حتى اذا تم للتتار امتلاك العاصمة ، لم يلبثوا حتى أخضعوا بقية الولاية (١١) •

وأرسلت الملكة الى حضرة قبلاى خان، فتلقاها بالتكريم، وخصص لها بأمره جعل يمكنها من المحافظة على كرامة منزلتها • والآن وقد ذكرنا الطريقة التى تم بها فتح مانجى، فاننا سنتحدث الآن عن مختلف مدن تلك الولاية ، بادئين بكوئى جان زو •

الفصل السادس والخمسون

عن مدينة كوئى جان زو ٠

ان مدينة كوئي جان زو مدينة بالغة الجمال والثراء ، تقع في اتجاه بين الجنوب الشرقي والشرق ، عنـد مدخـل ولاية مانجي ، حيث يمر عدد هائل من السفن على الدوام ، وذلك نظرا لأنها تقع (كما لحظنا آنفا) ، قرب ضفة نهـر قراموران (١) وتنجى الى هذه المدينة مقـادير ضـخمة من بضائع الأمانات ، لكي تنقل البضائع بذلك النهر ، الى أماكن أخرى مختلفة ٠ والملح يصنع هنا بمقادير كبيرة ، لا من أجل استهلاك المدينة نفسها ، ولكن من أجل تصديره الى أرجاء أخـرى ، ويسـتمد الخـان الأعظـم من هـذا الملح ايرادا وفيرا (٢) ٠

الفصل السابع والخمسون

عن مدينـــة باوغن ٠

عند مغادرتك كوئي جان زو ، ترحل مسيرة يوم واحد نحو الجنوب الشرقي ، عبر جسر حجرى معبد لطيف يؤدى الى ولاية مانجي ٠ وتوجـد عـــلى جانبى الجسر ، بحـيرتا مستنقعات شديدتا الاتساع ، ومياههما عميقة والملاحة فيهما ممكنة (١) ، وليس هناك عدا هذا طريق آخر يمكن بواسطته الدخول الى الولاية ٠ عـــلى أن فى الامكان الوصـــول اليهـــا بالسفن ، وبهذه الوسـيلة تمكن الضابط الذى كان يقـــود جيوش الخان الأعظم من غزوها ، بقيـــامه بالنزول بكامل قواته الى البر (٢) ٠ وبعد مسيرة اليوم الواحد ، تبلغ مدينة ضخمة تسمى باوغن(٣) ويعبد السكان الأصنام ، ويحرقون موتاهم ٠ ويستخدمون العملة الورقية ، كما أنهم رعايا الخان الأعظم وهم يكسبون معاشهم بالتجارة والصناعة : ولديهم قدر موفور من الحرير ، كما أنهم ينســـجون أقمشة الذهب وضرورات الحياة عندهم موفورة ٠

الفصل الثامن والخمسون

عن مدينة كائن ·

على مسافة مسيرة يوم من باوغن ، نحو الجنوب الشرقى ، تقوم مدينة كائن (١) الضخمة والجيدة العمارة · وسكانها من الوثنيين ، ويستخدمون العملة الورقية عملة لهم ، كما أنهم رعية الخان الأعظم · وتزدهر بينهم التجارة والصناعات · ولديهم السمك موفورا ، والصيد أيضا ، ما بين بهائم وطيور · ويكثر التدرج (الفزان) بوجه خاص ، كثرة ، تجعلك تشترى بقطعة صغيرة من الفضة تعادل فى القيمة غروتا بندقيا ، ثلاثة من هذه الطيور ، فى حجم الطاووس ·

الفصل التاسع والخمسون

عن مدينتى تن جوى وتشن جوى ٠

بعد نهاية رحلة يوم من المكان سالف الذكر ، تلتقى فيها بكثير من القرى ومساحات مترامية من الأرض المنزرعة بشدة ، تبلغ مدينة تسمى تن جوى، ليست بالغة الضخامة ، ولكنها مزودة بوفرة بجميع لوازم الحياة ٠ والقوم بها وثنيون ، ورعية للخان الأعظم ، ويستخدمون عملته الورقية ٠ وهم تجار ، ويملكون عددا كبيرا من السفن التجارية ٠ وتوجد البهائم والطير هنا بوفرة ٠ وتقع هذه المدينة صوب الجنوب الشرقي ، وأنت واجد البحر عن يسارك فى الجهة الشرقية منها ، على مسيرة ثلاثة أيام ٠ فأما الشقة الوسطى فتقوم بها كثير من مصانع الملح ، التى تصنع بها مقادير ضخمة من الملح(١)٠ ثم تجىء بعد ذلك الى مدينة تشن جوى الضخمة الجيدة العمارة ، التى منها تصدر من الملح مقادير كافية لتزويد جميع الولايات المجاورة به(٢)٠ ويجبى الخان الأعظم على هذه السلعة ضريبة تدر عليه دخلا ، لا يكاد المرء يصدق مقداره ٠ وهنا أيضا يعبد السكان الأصنام ، ويستخدمون عملة الورق ، كما أنهم رعية جلالته ٠

الفصـــل الســتون

عن مدينة يان جوى ، التى عين فيها ماركو بولو حاكما .

عند تقدمك باتجاه جنــوبى شرقى من تشن جوى تصل الى مدينة بان جوى المهمة ، وهى مدينة ينبغى أن تعد مكانا ذا شأن عظيم(١) ، نظرا لأنه يقع فى زمامها أربع وعشرون مدينة . وهى تتبع مملكة الخان الأعظم . والناس بهــا من عبدة الأوثان ، ويعيشون من التجارة والفنون اليدوية . وهم يصنعون السلاح، وجميعأنواع المهمات والتجهيزاتالحربية، ونتيجة لهذا الوضـع تعسكر كثير من الجنود بهــذا الجزء من البلاد . والمدينة مقر حكم أحد النبلاء الاثنى عشر ، الذين أسـلفنا الحـديث عنهم ، والذين يعينهم جلالتــه حــكاما للولايات (٢) ، ومن غرفة أحد هؤلاء ، قام ماركو بولو بأمر خاص من الامبراطور بعمل حاكم هذه المدينة أمد ســنوات ثلاث .

الفصل الحادى والستون

عن ولاية نان غن ·

نان غن هو اسم ولاية ضخمة وممتازة فى مانجى ، تقع جهة الغرب (١) · والقوم فيها وثنيون ويستخدمون العملة الورقية نقودا يتداولونها ، وهم من رعايا الخان الأعظم ، وأعظم ما يشتغلون به التجارة · ولديهم الحرير الخام ، وينسجون أنسجة الفضة والذهب بمقادير عظيمة ، وعلى أشكال وأنماط متنوعة · وينتج الاقليم كمية موفورة من القمح ، كما أنه يزخر كذلك بالماشية المستأنسة ، فضلا عن البهائم والطير ، التى تتخذ أغراضا للقنص والطراد ، وكثير من الببور · وهو يقدم للامبراطور دخلا وفيرا ، ولا سيما ما جاء منه من الرسوم التى تجبى على السلع الثمينة ، التى يتجر فيها التجار · وسنحدثك الآن عن مدينة سايان فو الفاخرة ·

الفصل الثانى والستون

عن مدينة سايان فو ، التى تم الاستيلاء عليها بواسطة نيقولو ومافيو بولو .

. . . .

ان سايان فو مدينة ضخمة ، بولاية مانجى ، وتقع فى دائرة اختصاصها اثنتا عشرة مدينة ثرية وكبيرة(١) . وهى مكان له تجارة عظيمة وصناعات ضخمة . والسكان يحرقون جثث موتاهم ، كما أنهم وثنيون (٢) . وهم رعايا للخان الأعظم ، ويتعاملون بعملته الورقية . والحرير الخام ينتج هناك بمقادير ضخمة ، كما أن أرق أنواع الحرير المخلوط بالذهب تنسج عندهم . ويكثر لديهم الصيد بجميع أنواعه . والمكان مزود أعظم تزويد بكل شىء ينتمى الى المدن الكبرى، كما أنها تمكنت بفضل قوتها المنيعة من الصمود أمام حصار دام ثلاث سنوات ، وهى تأبى التسليم للخان الأعظم ، حتى بعد أن تمكن من الاستيلاء على ولاية مانجى (٣) .

وكانت الصعوبات التى لاقاها الجند فى اخضاعها ، ترجع بصفة رئيسية الى عدم تمكن الجيوش من الاقتراب منها ، الا فى الناحية الشمالية ، أما نواحيها الأخرى ، فنظرا لاحاطة الماء بها (٤) ، وعن طريقه كانت المدينة تتلقى الأمداد باستمرار التى لم يكن فى طوق قوات الحصار منعها .

فلما أن أبلغ نبأ العمليات الى جلالته أحس بألم مفرط، من أن يصمد هذا المكان وحده بهذا العناد ، بعد أن أرغمت

جميع أرجاء البلاد على الطاعة • فلما أن بلغ النبأ مسامع الأخوين نيقولو ومافيو ، وكانا آنذاك نزيلين بالبلاط الامبراطورى (٥) تقدما على الفور الى الخان الأعظم ، واقترحا عليه أن يسمح لهما بانشاء آلات ، مما يستخدم ببلاد الغرب ، وتستطيع القاء أحجار زنتها ثلاثمائة رطل ، يمكن لها تدمير مباني المدينة وقتل سكانها •

واستمع الخان الأعظم إلى مذكرتهما باهتمام ، فوافق على الخطة بحماس ، وأصدر أوامره بأن يوضع تحت اشرافهما أكفأ وأقدر الحدادين والنجارين ، وكان فيهم بعض النصارى النساطرة ، الذين أثبتوا غاية الكفاية في الميكانيكا (٦) •

ولم تنقض بضعة أيام حتى أتموا صنع مجانيقهم ، وفق التعليمات التي زودهم بها الآخوان ، حتى اذا تمت تجربتها بحضرة الخان الأعظم، وكامل أعضاء بلاطه ، تهيأت الفرصة لمشاهدتها وهي تقذف أحجارا ، تزن كل منها ثلاثمائة رطل •

وعندئذ أنزلت الى ظهور السفن وحملت الى رجال الجيش • فلما أن نصبت أمام مدينة سايان فو ، سقط أول حجر قذف من أحدها ، بثقل فادح وعنف فظيع على مبنى من المباني ، فحطم جزءا كبيرا منه وأسقطه الى الأرض •

وبلغ من رعب الأهالي من هذا الويل الذى بدا لهم كأنما هو أثر صاعقة نزلت بهم من السماء (٧) أن فكروا على الفور في ضرورة التسليم السريع • وبناء على ذلك بعث الأهالى بأشخاص فوضوهم في الاتفاق ، فقبل منهم خضوعهم بنفس الشروط التى منحت لبقية أجزاء الولاية •

وكانت هذه النتيجة السريعة لما أبداه هذان الشقيقان البندقيان من مهارة ، أن زادت شهرتهما والثقة بهما في رأى الخان الأعظم وجميع رجال بلاطه (٨) •

الفصل الثالث والستون

عن مدينة سن جوى ، وعن نهر كيانج العظيم جدا .

اذا أنت غادرت مدينة سايان فو ، وتقدمت بمسيرة خمسة عشر يوما نحو الجنوب الشرقى ، بلغت مدينة سن جوى ، وهي وان لم تكن كبيرة الا أنها مركز تجارى عظيم (١) . فان عدد السفن التى تنتمى اليها هائل مذهل ، وذلك نتيجة لقرب موقعها من نهر كيانج ، الذى هو أعظم نهر فى العالم ، حيث يكون عرضه فى بعض الأماكن عشرة أميال وفى أماكن أخرى ثمانية وفى أخرى ستة (٢) . وطوله حتى المكان الذى يصب فيه مياهه فى البحر ، يزيد على رحلة مائة يوم (٣) . وهو مدين بحجمه العظيم الى العدد الجم من الأنهار الأخرى الصالحة للملاحة ، التى تفرغ مياهها فيه ، والتى تقع منابعها فى أقطار قاصية .

وتقع على ضفافه مجموعة ضخمة من المدن البلدان الكبيرة ، كما أن أكثر من مائتين منها مع ست عشرة ولاية (٤) ، تشترك فى مزايا الملاحة فيه ، التى يبلغ نقل التجارة بواسطتها مبلغا قد يبدو مما لا يصدقه عقل من لم تتح لهم فرصة مشاهدته .

والحق اننا متى تأملنا طول مجراه ، وكثرة عدد الأنهار التى تتصل به (كما سبقت الاشارة اليه) ، لم ندهش لأن كمية وقيمة السلع المستخدمة فى تموين هذه الكثرة الهائلة

من الأماكن القائمة حوله بكل اتجاه ، تصبح شيئا لا سبيل الى تقديره وحسبانه · ومع هذا فان السلعة الرئيسية هى الملح ، الذى لا ينقل فحسب بواسطة نهر كيانج ، والأنهار المتصلة به ، الى المدن الواقعة على ضفافها ، بل ومنها بعد ذلك الى جميع الأماكن الواقعة بداخل البلاد (٥) ·

وحدث ذات مرة ، بينما كان ماركو بولو بمدينة سن جوى ، أنه شاهد هناك مالا يقل عن خمسة عشر الف سفينة ، ومع هذا فهناك مدن أخرى على امتداد النهر ، يكون العدد فيها اكبر كثيرا(٦) ويغطى كل هذه السفن ضرب من السطح Deck ولها سارية ذات شراع واحد (٧) · وحمولتها على الجملة أربعة آلاف قنطار ، أو كوينتال بندقى، وقد تصل الى اثنى عشر ألف قنطار ، وهى الحمولة التى تستطيع بعض السفن شحنها (٨) ·

وهم لا يستخدمون حبال القنب الا فى القلوع والسوارى (ما بين حبال ثابتة ومتحركة) · ولديهم أعواد يبلغ طولها خمس عشرة خطوة ، مثل التى سبق وصفها ، فيشقونها بكامل طولها ، قطعا رقيقة جدا ، فاذا فتلوا هذه بعضها مع بعض ، كونوا منها حبالا طولها ثلاثمائة خطوة (٩) ·

والحبال تصنع بمهارة بالغة جدا ، بحيث تضارع فى المتانة الأمراس (الحبال) المصنوعة من القنب · وبهذه الحبال تجر السفن على طول امتداد الأنهار ، بواسطة خيول عدتها عشرة أو اثنا عشر لكل سفينة (١٠) سواء أكانت صاعدة ضد التيار أم ماضية فى الاتجاه المقابل ·

ويوجد بكثير من الأماكن قرب ضفاف هذا النهر تلال ومرتفعات صخرية صغيرة ، بنيت عليها معابد للأبداد (الأوثان) وغيرها من العمائر ، وانك لتجد تعاقبا مستمرا من القرى والأماكن المأهولة ·

الفصل الرابع والستون

عن مدينــة كاين جوى ٠

ان كاين جوى مدينة صغيرة على الضفة الجنوبيــة للنهر آنف الذكر (١) ، حيث تجمع فى كل عام، كمية ضخمة جدا من القمح والأرز ، تنقل أكبر كمية منها الى مدينة كانبالو ، ميرة وتموينا لمؤسسات الخان الأعظم وقصوره (٢) ، اذ أن خط المواصلات مع ولاية كاثاى ، يمر من هــذا المــكان ، بواسطة الأنهار والبحيرات وقناة عريضــة وعميقة ، أمــر بحفرها الخان الأعظم ، حتى تستطيع السفن المرور من نهر كبير الى آخر ، ومن ولاية مانجى ، بالطــريق المــائى حتى كانبالو ، بغير القيام بأى جزء من الرحلة بحرا (٣) ٠

وهذا العمل الباهر يستحق كل اعجاب ، وليس ذلك للطريقة التى يجرى امتداده بها فى أرجاء البلاد ، ولا شدة اتساع مداه ، بقدر ما هو المنفعة التى تعود منه على تلك المدن التى تقع على مجراه ٠ وعلى ضفاف القناة أقيمت أيضا شرفات فسيحة وقوية أو حواجز (جسور) يصــبح السفــر برا عليها وبفضلها مريحا تمام الراحة ٠ وتوجد فى منتصف النهر ، قبالة مدينة كاين جوى ، جزيرة ، تتكون كلهــا من الصخر قد بنى عليها معبد ودير عظيم ، يقيم به مائتا راهب، على ما قد يصح أن نسميهم ، ويؤدون الصــلوات للأوثان ، وهذا هو المكان الرئيسى بين العدد الكبير من المعابد والأديرة الأخرى (٤) ٠ وسنحدثك الآن عن مدينة تشان غيان فو ٠

الفصل الخامس والستون

من مدينة تشان غيان فو ٠

ان تشان غيان فو مدينة تقع فى ولاية مانجى (١) ، سكانها عبدة أوثان ، ورعايا للخان الأعظم ، ويستخدمون عملته الورقية ٠ وهم يكسبون معايشهم بالتجارة والصناعة، كما أنهم قوم أثرياء ٠ وهم ينسجون أنسجة الحرير والذهب ٠ ورياضة الخلاء هناك ممتازة أعظم ما يكون الامتياز بما حوت من جميع صنوف الصيد ، كما أن مواد التموين هناك موفورة ٠

وبهذه المدينة ثلاث كنائس للمسيحيين النساطرة ، بنيت فى عام ١٢٧٨ ، عندما عين جلالته نسطوريا يدعى مارساتشيس ، ليتولى الحكم بها مدة ثلاث سنوات ٠ وهو الذى أسس هذه الكنائس ، حيث لم يكن هناك قبل ذلك أية كنيسة ، وهى لا تزال موجودة الى يومنا هذا (٢) ٠ واذا نحن غادرنا هذا المكان ، فاننا سنتكلم الآن عن تن جوى جوى ٠

الفصل السادس والستون

عن مدينة تن جوى جوى ٠

عند مفارقتك تشان غيان فو ، ورحيلك أربعة أيام صوب الجنوب الشرقي ، تمر على كثير من المدن والمواقع المحصنة ، سكانها وثنيون ، يعيشون من الحرف والتجارة ، وهم من رعايا الخان الأعظم ، الذين يستخدمون عملته الورقية ٠

وعند نهاية هذه الأيام الأربعة تصل الى مدينة تن جوى جوى ، وهي مدينة كبيرة وجميلة (١) ، تنتج الشيء الكثير من الحرير الخام الذى تنسج منه نسائج مختلفة صنوفها أو أنماطها ٠ ولوازم الحياة موفورة هنا ، كما أن مختلف ضروب الصيد تنتج للقوم رياضة ممتازة ٠

وكان السكان هناك جنسا مرذولا ، مجردا من الانسانية وفي الوقت الذى أخضع فيه تشنسان بايان ، أى ذو المائة عين ، اقليم مانجي ، أرسل أشخاصا بأعيانهم من النصارى الآلانيين (٢) ، بصحبة جماعة من بني قومه ، لكي يستولوا على هذه المدينة ، فما كادوا يظهرون تلقاءها ، حتى أذن لهم بالدخول بلا مقاومة ٠

ونظرا لأن المكان كان محاطا بسور مزدوج ، أحدهما داخل الآخر ، فان الآلانيين احتلوا التحويطة الأولى ، التي وجدوا بها مقدارا كبيرا من الخمر ، ونظرا لما قاسوه من

التعب والحرمان ، فانهم كانوا فى لهفة الى نقع غلتهم ، فأقبلوا بلا روية على الشراب بافراط ، حتى غلبهم النعاس بعد أن مالت برءوسهم السكرة • وما كاد أهالى المدينة ، الذين كانوا داخل السور الثانى ، يرون أن أعداءهم كانوا يرقدون فى نعاس على الأرض ، حتى انتهزوا الفرصة وأعملوا فيهم فتكا وذبحا ، ولم يتيحوا لواحد منهم أن ينجو•

وعندما علم تشنسان بايان بمصير كتيبته ، بلغ حنقه وغضبه أقصى درجة ، وأرسل جيشا آخر لمهاجمة المكان • فلما تم الاستيلاء عليه ، أمر باعمال السيف فى جميع السكان كبيرهم وصغيرهم ، غير مفرق بين الجنسين ، متخذا ذلك عملا انتقاميا •

الفصل السابع والستون

عن مدينتى سن جوى وفاجيو ٠

ان سن جوى مدينة ضخمة وفاخرة ، محيطها عشرون ميلا (١) ٠ والسكان وثنيون من رعايا الخان الأعظم ، ويستخدمون عملته الورقية ٠ ولديهم مقادير هائلة من الحرير الخام ويصنعونه قماشا، لا لاستهلاكهم الخاص فقط، اذ أنهم جميعا يرتدون ثيابا من حرير ، ولكن من أجل أسواق أخرى ٠ وفيهم تجار لديهم ثروات طائلة ، كما أن عدد السكان من الضخامة بحيث يثير الدهشة ٠

على أنهم مع هذا شعب جبان ، لا يشغلون أنفسهم الا بتجارتهم وصناعتهم ٠

والحق انهم يبدون فى هذين المضمارين قدرة فائقة ، ولو أنهم كانوا من المغامرة والرجولية والروح العسكرية بقدر براعتهم ، فضلا عن ضخامتهم العددية الهائلة لما أمكنهم فحسب اخضاع الولاية (مانجى) بأكملها ، بل كانت تدفع أنظارهم الى ما وراء ذلك بكثير ٠

وبينهم كثير من الأطباء الذين أوتوا مهارة فائقة ، ممن يستطيعون التحقق تماما من طبيعة أية علة تصيب انسانا ، ويعرفون كيف يصفون الأدوية الناجعة (٢) ٠

وهناك كذلك أشخاص متفوقون كأساتذة فى العلم ، أو هم ـ كما قد نسميهم ـ فلاسفة ، وغيرهم مما يمكن

تسميتهم باسم السحرة أو العرافين (٣) • وينمو الراوند على الجبال القريبة من المدينة نموا عالى الكمال ، ومنها يوزع بكل أرجاء الولاية (٤) وينتج الزنجبيل أيضا بمقادير كبيرة ، ويباع بسعر بخس حتى أن زنة أربعين رطلا من جذوره الطازجة ، يمكن الحصول عليها بما يعادل فى عملتهم غروتا بندقيا فضيا •

وتوجد فى زمام ودائرة اختصاص سن جوى ست عشرة مدينة وبلدة كبيرة وغنية ، تزدهر بها التجارة والصنائع • ومعنى اسم سن جوى « مدينة الأرض » ، كما ان اسم كن ساى مؤداه « مدينة السماء » (٥) •

والآن سنترك سن جوى ، ونتحدث عن مدينة أخرى ، لا تبعد عنها الا مسافة يوم واحد فقط ، وتسمى فاجيو، حيث توجد أيضا وفرة هائلة من الحرير الخام ، وحيث يوجد عدد جم من التجار فضلا عن الصناع • وتنسج هنا حراير من أجود الأصناف ، ثم تحمل بعد ذلك الى جميع أرجاء الولاية (٦) •

ونظرا لأنه ليست هناك أية أحوال أخرى جديرة بالملاحظة، فاننا سننتقل الى وصف المدينة الرئيسية والعاصمة لولاية مانجى ، وهى المسماة كين ساى •

الفصل الثامن والستون

حول مدينــة كين ساى العظيمة الرائعــة .

ق ـ ١ ـ : عند مغادرتك فاجيو ، تمر فى مدى رحلة ثلاثة أيام ، بمدن وقلاع وقرى كثيرة العدد وكلها آهلة تماما بالسكان وواسعة الثراء ، والقوم بها وثنيون ورعايا الخان الأعظم وهم يستخدمون العملة الورقية ولديهم مقادير وافرة من المواد التموينية .

وعند انتهاء الأيام الثلاثة تصل الى مدينة كين ســاى العظيمة الفخمة ، وهو اسم معناه « المدينة السماوية » وهو اسم تستحقه بجدارة لما اجتمع لها من امتياز وشهرة على كل ماعداها من مدن العالم ، من ناحية العظمة والجمال ، فضلا عن مباهجها الوفيرة ، التى قد تدفع ساكنها أن يظن نفســه مقيما فى الفردوس (١) . وكثيرا ما تردد ماركو بولو (٢)، على هذه المدينة ، فقام بعناية ودأب بمشاهدة كل الأحــوال المتعلقة بها والتحرى عنها ، واثباتها كلها فى مذكراته ، التى نقلت عنها التفاصيل التالية بايجاز .

وطبقا للتقدير العادى المعروف فان محيط هذه المدينة مائة ميل (٣) . وشوارعها وقنواتها رحيبة ، وفيها الميادين أو الأسواق التى لابد لها من أن تكون مفرطة الرحابة ، لكى تكون بالضرورة متناسبة فى رحابتها مع الاحتشاد الهــائل للناس الذين يترددون عليها . وهى تقع بين بحيرة ذات مياه

عذبة بالغة الصفاء فى ناحية منهـا (٤) ، وبين نهر عظيم الضخامة فى ناحيتها الآخرى ، جعلوا مياهه ، تشق عددا من القنوات ، ما بين كبيرة وصغيرة ، تمر من خلال كل حى من أحياء المدينة ، حاملة منها كل القاذورات الى البحيرة ، ومنها الى البحر فى خاتمة المطاف (٥) ٠

وبينما يسهم هذا كثيرا فى نقاء الهواء ، فانه يهيىء مواصلة مائية ، تضاف الى متيلتها البرية ، تؤدى الى جميع أجزاء المدينة ، هذا الى أن القنوات والشوارع على اتسـاع كاف ، للسـماح بمرور الزوارق فى الأولى والعـربات فى الثانية ، مرورا ميسرا ، حاملة السـلع اللازمة لاسـتهلاك السكان (٦) ٠

والشائع أن عدد الكبارى بجميع أحجامها يبلغ اثنى عشر ألفـا (٧) ، وجعلوا القنـاطر التى بنيت فوق الترع الرئيسية ولها ارتباط بالشـوارع الكبرى ، عقـودا بالغة الارتفاع ، بنيت بدرجة عالية من المهارة ، حيث تسـتطيع السفن بسواريها أن تمر من تحتها (٨) ، بينما تمر العربات والخيول فى الوقت نفسه فوق هاماتها ، اذ ما أحسن التوافق بين المنحدر البادىء من الشارع وبين ارتفاع العقد ٠ فلو أنها لم تكن فى الحقيقة بمثل هذه الكثرة ، لما كان هنـاك يسر فى العبور من مكان الى آخر ٠

ق ـ ٢ ـ : وتوجد خارج المدينة محيطة بهـا فى ذلك الجانب ، حفرة طولها أربعون ميلا وهى شديدة الاتسـاع وممتلئة بالمياه التى تصل اليها من النهر سالف الذكر ٠ وقد احتفر هذه الحفرة ملوك الولاية السابقون ، حتى يستطاع متى فاض النهر على جانبيه ، تحويل المياه الزائدة الى هذا المجرى ، ولتصبح فى الـوقت نفسـه وسـيلة للدفاع (٩) ٠ والتراب الذى احتفر من هنـاك تم القـاؤه فى الناحيـة

الداخلية ، فتراكم حتى أصبح شبيها بآكام تلال صغيرة كثيرة تحيط بالمكان ·

ويوجد فى داخل المدينة عشرة ميادين أو أسواق رئيسية ، فضلا عن عدد لا يحصى من الدكاكين التى تقوم على امتداد الشوارع · وطول كل جانب من هذه الميادين نصف ميل (١٠) ، كما يوجد أمامها الشارع الرئيسى ، الذى عرضه أربعون خطوة ، والذى يمتد فى خط مستقيم من طرف المدينة الى طرفها الآخر · وتعبره كثير من الكبارى المنخفضة والمريحة ·

ويبعد الواحد من هذه الأسوق عن الآخر أربعة أميال (ومساحتها جميعا ميلان) وتجرى ترعة كبيرة جدا فى اتجاه مواز للشارع الرئيسى ، ولكنها فى الجانب المقابل للميادين، وبنيت على الضفة القريبة منها مخازن فسيحة من الحجر ، لتكون فى خدمة التجار الوافدين من الهند وغيرها من البلاد، ومعهم ما يحملون من بضائع ومتاع ، حتى ينزلوا منزلا مناسبا ومريحا لهم فيما يتعلق بالأسواق (١١) ·

ويحتشد فى كل من هذه الآسواق ، فى ثلاثة أيام من كل أسبوع ، جمع من الناس يتراوح عدده بين أربعين الى خمسين ألف شخص ، ممن يشهدون الأسواق ويزودونها بكل سلعة من السلع الغذائية يمكن أن يرغبها الناس · فهناك مقادير وفيرة من جميع أنواع الصيد مثل الأيائل والوعول والايائل السمر والارانب البرية والارانب العادية ومعها الحجل والتدرج (الفزان) والدراج (الفرانكولين) والسمانى والدجاج العادى والديوك المخصية ، وعدد هائل من البط والأوز لا يكاد يمكن التعبير عنه ، وذلك لأنه ما أسهل ما تفرخ وتربى على شواطىء البحيرة ، حتى انك لتستطيع بقيمة غروت فضى بندقى أن تشترى زوجا من الأوز وزوجين من البط (١٢) ويوجد بها كذلك المجزر الذى يذبحون فيه

ما يأكلون من ماشية، كالثيران والعجول والجديان والحملان، لتزويد موائد الأغنياء وكبار الحكام • فأما أبناء الطبقات الدنيا ، فانهم لا يأنفون من تناول أى نوع آخر من اللحم ، ومهما يكن نجسا ، بغير أدني تمييز(١٣) • وتمتلىء الأسواق فى كل المواسم بأنواع كثيرة من الأعشاب والفواكه ، وبخاصة كمثرى ذات حجم خارق الضخامة ، تزن الواحد منهـا عشرة أرطال، وباطنها أبيض كالعجين ولها رائحة عطرة جدا(١٤) •

وهناك أيضا خوخ ، يظهر فى موسـمه ، من النـوعين الأصفر والأبيض كليهما (١٥) ، وله نكهة سكرية لذيذة • ولا ينتج العنب هناك ، ولكنه يجلب زبيبا مجففا ومن نـوع جيد جدا ، من أصقاع أخرى • وينطبق هـذا أيضـا عـلى النبيذ ، الذى لا يجد تقديرا من الأهالى ، نظرا لتعودهم على مشروبهم الخاص المستخرج من الأرز والتوابل •

وتستجلب كل يوم الى المدينة من البحر ، الذى يقع منها على خمسة عشر ميلا ، مصـعدة فى النهر مقـادير هائلة من السمك ، كما أنه توجد كثرة موفورة منه أيضا فى البحيرة ، تتيح العمل فى كل الأوقات لأشخاص ، مرتزقهم الوحيد هـو صيد السمك • وتختلف أنواعه حسب فصول السنة ، كمـا أنها تصبح ضخمة سمينة نتيجة للنفايات التى تنقل الى هناك من المدينة • وانه ليخيل اليك حين تشـهد المقـادير الهائلة المستجلبة من السمك ، أن من المحال أن تباع ، ومع ذلك فان كل المقدار ينفد فى بضع ساعات ، اذ ما أعظم عدد السـكان هناك ، بل حتى ما أعظم عدد الطبقات التى تستطيع ماليـا الاستمتاع بمثل هذا النوع من أطعمة الترف ، وذلك لأن الأسماك واللحوم تؤكل فى نفس الوجبة •

وكل ميدان من ميادين الأسواق العشر ، محاط ببيوت سكنى عالية (١٦) يوجد فى الطابق السفلى منها دكاكين ، تتم فيها جميع أنواع الصناعات ، وتباع فيها جميع أنواع

السلع التجارية ، التى منها على سبيل المثال لا الحصر : التوابل والعقاقير والحلى الصغيرة واللآلىء • وهناك دكاكين معينة لا يباع بها الا خمر البلاد ، التى يدأبون باستمرار على تخميرها وتقديمها طازجة الى زبائنهم بسعر معتدل •

والشوارع المتصلة من الحمامات ، التى يقوم على الخدمة فيها خدم من الجنسين ، للقيام بعمليات التطهير للرجال والنساء الذين يترددون عليها ، والذين تعودوا منذ طفولتهم على الاغتسال بالماء البارد ، الذى يعتقدون أنه عظيم الفائدة للصحة • ومع هذا فتوجد فى هذه الحمامات مخادع مزودة بالماء الدافىء ، ليستخدمها الغرباء ، الذين لا يستطيعون تحمل صدمة الماء البارد ، نظرا لعدم تعودهم عليه • ويقوم الجميع يوميا بغسل أجسامهم وبخاصة قبل تناول الطعام •

ق ــ ٣ ــ : وفى شوارع أخرى ، توجد مساكن البغايا ، اللواتى هن هنا فى اعداد غفيرة لا أجد فى نفسى الجراة على ذكرها ، وهن لا تتواجدن فحسب فى الميادين ، وهى المكان الذى يحدد لسكناهن عادة ، بل فى كل أجزاء المدينة ، مزينات بالحلى الكثيرة ، متعطرات بأقوى العطور ، شاغلات لبيوت جيدة الأثاث ، تخدمهن كثير من الخادمات(١٧) •

وقد برعت هؤلاء النسوة فى فنون الحياة وبلغن التمام فى الغزل ومعسول الكلام ، التى يصحبنها بعبارات تتلاءم وكل أصناف الأشخاص الى حد أن كل أجنبى ذاق مرة واحدة أفاويق سحرهن ، يظل فى حالة افتتان ، ويصبح مسحورا بفنون الموسية الكاذبة ، بقوة لا يستطيع ازاءها الفكاك من أسرهن • فاذا عادوا الى بلادهم ، سكارى بهذه المتع الحسية ، قرروا أنهم كانوا فى كن ساى أى « المدينة السماوية » ، ويتلهفون شوقا الى الزمان الذى يتهيأ لهم فيه العودة الى زيارة الفردوس •

وتوجد بشوارع أخرى ، مساكن الأطباء والمنجمين ، الذين يتولون تعليم القراءة والكتابة ، وفنون أخرى كثيرة غيرهما • ولهم شقق أيضا فى البيوت التى تحيط بالأسواق • وتوجد فى جانبين متقابلين من كل من هذه الميادين ، عمارتان ضخمتان ، يقيم بهما موظفون يعينهم الخان الأعظم ، لكى يقضوا فورا فى أى خلافات قد تنشب بين التجار الأجانب ، أو بين سكان المكان •

ومن واجبهم التحقق من أن الحرس القائمين على مختلف القناطر الكثيرة (وسيرد الحديث عنهم فيما بعد) موزعون كما ينبغى كل فى منطقته ، فاذا اكتشفوا اهمالا ، عاقبوا المذنب حسبما يتراءى لهم (١٨) •

وتوجد على كل من جانبى الشارع الرئيسى ، الذى أسلفنا اليك أنه يمتد من أقصى المدينة الى أقصاها ، بيوت وقصور عظيمة الضخامة ، تحوى الحدائق ، كما تقوم بالقرب من هذه مساكن الصناع ، الذين يعملون فى مختلف حرفهم بالدكاكين ، وانك لترى فى كل ساعات النهار جماهير غفيرة من الناس يغدون ويروحون ، كل فيما همه من مشاغل، بحيث ان تزويد هؤلاء بالقدر الكافى من الطعام ، ربما عد من المستحيلات (١٩) ، ولكنك لا تلبث حتى تكون فكرات أخرى عندما تلاحظ أنه فى كل يوم سوق ، تكتظ الميادين بالتجار الذين يغطون المكان كله بالسلع المجلوبة بالعربات والسفن ، التى يجدون لها كلها سوقا رائجة • ولو أخذنا على سبيل المثال سلعة واحدة هى الفلفل ، فربما أمكن تكوين فكرة عن المقدار الكامل للمواد التموينية واللحم والخمر ومواد البقالة ، وما أشبهها اللازمة لاستهلاك سكان كن ساى، فمن هذا الفلفل ، علم ماركو بولو من موظف يعمل فى جمارك الخان الأعظم ، أن المقدار اليومى هو ثلاثة وأربعون حملا ، وكل حمل يتكون من مائتين وثلاثة وأربعين رطلا (٢٠) •

ق ـ ٤ ـ : وسكان المدينة من الوثنيين . وهم يستخدمون العملة الورقية نقدا . والرجال والنساء شقر البشرة ولهم ملاحة وجمال . وتكتسى غالبيتهم العظمى دائما بالحرير، ويرجع ذلك الى المقادير الهائلة من تلك المادة التى تنتجها أرض كن ساى ، وذلك فضلا عما يستورده التجار من الولايات الأخرى (٢١) . على أن هناك بين الحرف اليدوية ، التى تمارس بالمكان ، اثنتى عشرة حرفة تعد أعلى من الأخرى ، نظرا لأنها أعم نفعا ، وقد جعل لكل منها ألف مصنع (ورشة) ، وجعل معدل كل مصنع عشرة من العمال يعملون فيه أو خمسة عشرة أو عشرين ، كما ان عددهم قد يصل فى حالات قليلة الى أربعين ، برياسة معلمهم الخاص . والرؤساء الأثرياء فى هذه المصانع لا يعملون بأيديهم ، بل يتخذون على العكس مظاهر الرقة ويفتعلون المظهرية .

وتمتنع زوجاتهم عن العمل بدرجة سواء . وهن على جانب كبير من الجمال كما أوضحنا ، كما أنهن يربين على عادات رقيقة متراخية (٢٢) . ويكاد ما ينفقون على ثيابهم من طائل النفقات وكلها من الحرير والجوهر ، أن يتجاوز كل خيال .

ومع أن قوانين ملوكهم القدماء كانت تحتم أن يحترف كل مواطن مهنة أبيه ، الا أنه كان يسمح لهم متى أحرزوا الثراء ، بالانقطاع عن مواصلة العمل اليدوى ، شريطة احتفاظهم بالمؤسسة واستخدامهم لأشخاص ليعملوا فى حرف آبائهم (٢٣) . وبيوتهم جيدة البناء ثرية الزينة بالأشغال المحفورة . ولشد ما يبتهجون بحليات من هذا النوع وبالتصاوير والمبانى المزخرفة الجميلة ، حتى ان المبالغ التى يغدقونها على مثل هذه الأشياء تعد طائلة .

وطبع أهالى كن ساى بالسليقة على المسالمة والهدوء . وتمثلا بمثال ملوكهم السابقين الذين لم يكونوا هم أنفسهم

أهل حرب ، اعتاد القوم عادات السكينة والهدوء ، فاستخدام الأسلحة شيء غير معروف لديهم ، كما أنها لا وجود لها في منازلهم (٢٤) ٠

وهم قوم لا ينشب بينهم شجار محتدم (٢٥) وهم يديرون شئونهم التجارية والصناعية بكامل الصراحة والأمانة (٢٦) ٠ وهم يتعايشون فيما بينهم بمودة متبادلة ، ومن يسكنون نفس الشارع الواحد ، من الرجال والنساء يبدون بمظهر عائلة واحدة لمجرد ظرف الجوار القائم بينهم ٠ واذا نظرت الى عاداتهم المنزلية وجدتهم خلوا من الغيرة او الشك في زوجاتهم ، اللائي يقدمون اليهن احتراما عظيما ، كما أن أي رجل يعد دنيئا ان هو جرؤ على توجيه عبارات غير محتشمة الى امرأة متزوجة ٠ وهم يقدمون آيات المودة الحميمة أيضا للغرباء الذين يزورون مدينتهم ابتغاء التجارة ، حيث يكثرون من دعوتهم الى بيوتهم ، مظهرين نحوهم اهتماما منطويا على كرم الضيافة ويزودونهم بأصدق نصيحة ومساعدة في صفقاتهم التجارية ٠

وهم في الحين نفسه يكرهون مشهد الجند ، بغير استثناء جرس الخان الأعظم من تلك النظرة ، وذلك لأنهم يثيرون في أنفسهم تذكر أنه على يد هؤلاء حرم الشعب من حكم ملوكهم وحكامهم الوطنيين ٠

ق ــ ٥ ــ : وتوجد على ضفاف البحيرة كثير من العمائر الجميلة الفسيحة التي يملكها علية القوم وكبار الحكام :

وهناك بالمثل أبداد كثيرة (أي بيوت أصنام) ، بما يتبعها من أديرة يشغلها عدد من الرهبان ، الذين يقومون بالصلوات للأصنام (٢٧) ٠ وتوجد قرب المنطقة الوسطى جزيرتان ، يقوم في كل واحدة منها بناء بديع ، به عدد لا يصدقه عقل من الأجنحة والسرادقات المنفصلة ٠ كلما أراد

سكان المدينة اقامة حفل قران ، أو عمل حفلة ضيافة باذخة ، لجأوا الى احدى هاتين الجزيرتين ، حيث يجدون تحت تصرفهم ووفق هواهم كل شيء يمكن أن يحتاج اليه الأمر ، كالأوعية والفـوط ومفـارش الموائد وما شـابه ذلك ، وهي تشترى وتختزن هناك على حساب المواطنين عامة ، وهم الذين تولوا كذلك تشييد المباني •

وربما تصادف أن يجتمع هنـاك في وقت واحد مائة مجموعة ، تحتفل بزواج او غير ذلك من الاحتفالات ، ومع ذلك فهم جميعا يزودون بغرفات أو جواسق منفصلة ، وكل شيء منظم بحكمة حتى انهم لا يتدخلون مع بعض ولا يضايق بعضهم بعضا • وبالاضافة الى هذا فان على البحيرة عـددا عظيما من سفن النزهة أو مراكب (ذهبيات) الاحتفالات، التي يقدر انها تتسع لما يتراوح بين عشرة الى خمسة عشر الى عشرين شخصا ، اذ آن طولها ما بين ١٥ الى ٢٠ خطوة ولهـا سطح واسع منبسط ، وليست عرضة أن تميل الى أى جانب من جانبيها أثناء عبورها في الماء • فمن كانت تلذ لهم المتعة والتسلية ويهتمون بالاستمتاع بها ، اما بصحبة نسائهم أو رفاقهم من الذكور ، فانهم يستأجرون واحـدة من هـــذه « الذهبيات » أى سفن النزهة ، التي تجعل على الدوام عـلى أحسن نظام ووضع ، وتزود بما يلزمها من مقاعد ومناضد ، فضلا عن جميع ماعدا ذلك من أنواع الأثاث اللازم لاقامة حفلة أو مأدبة •

وللغرف الذهبية سقف مسطح أى سطح علوى ، يتخذ عليه الملاحون أماكنهم ، ويدفعون الذهبيات بواسطة المدارى الطويلة التي يغرسونها في قاع البحيرة (وهي لا تزيد في عمقها عن قامة أو قامتين) وهم لا يزالون يدفعون بالذهبية قدما حتى يصـلوا الى البقعـة المقصـودة • وهـذه الغرف (أو الكابينات) مطلية من الداخل بألوان منوعة وبضروب من الأشكال والرسوم ، ثم ان جميع أجزاء المركب مزينـة

كذلك بالدهان (٢٨) • وفى كل من جانبى الذهبية نوافذ يمكن فتحها واغلاقها ، وذلك بقصد اعطاء المتنزهين ، وهم جلوس الى الموائد ، فرصة النظر فى كل اتجاه ، وامتاع أبصارهم بتنوع وجمال المشاهد الطبيعية أثناء مرورهم من أمامها •

ولا شك أن امتاع الأنفس المتاح بهذه الطريقة ، على صفحة الماء ، يفوق كل امتاع يمكن أن ينال من التسليات على سطح الأرض ، وذلك أنه نظرا لأن البحيرة تمتد امتداد طول المدينة بأكمله ، فى جانب، فانك تحصل وأنت واقف فى السفينة على مسافة معينة من الشاطىء على منظر يجمع كل ما حوت من عظمة وجمال ، كل قصورها ومعابدها وأديرتها وحدائقها ، مع أشجار من أضخم حجم تنمو على الشاطىء حتى سيف الماء ، بينما أنت مستمتع فى الوقت نفسه بمنظر السفن الأخرى التى من نفس النوع ، وهى لا تنقطع عن المرور دوما الى جوارك ، محملة بجماعات ممن ينشدون اللهو والمتعة •

والحق أن سكان هذا المكان ، لا يفكرون فى شىء ، بمجرد أن تنتهى أعباء اليوم أو تتوقف مصافقاتهم التجارية، عدا قضاء الساعات الباقية من اليوم فى حفلات المسرة والمجون ، مع زوجاتهم أو خليلاتهم ، اما فى هذه «الذهبيات» واما فى أرجاء المدينة فى عربات يحسن الآن أن نقدم عنها كلمة ، باعتبارها احدى تسليات هذا الشعب •

وينبغى أن يلاحظ ابتداء ، أن شوارع كن ساى مرصوفة كلها بالأحجار والطوب ، وكذلك أيضا جميع الطرق الرئيسية التى تمتد من هناك من خلال ولاية مانجى ، وبهذا يستطيع المسافرون السفر الى كل أرجائها بغير تلويث أقدامهم بالثرى ، ولكن نظرا لأن سعاة بريد صاحب الجلالة ، الذين ينقلون على ظهور الجياد بسرعة عظيمة ، لا يستطيعون

استخدام المنطقة المرصوفة ، فان جزءا من الطريق يترك من أجلهم ــ في أحد جانبيه ــ غير مرصوف • فأما عن الشارع الرئيسى بالمدينة ، وهو الذى تحدثنا عنه آنفا ، بأنه يمتد من أقصاها الى أقصاها ، فانه مرصوف بالأحجار والطوب بعرض عشر خطوات من كل جانب ، وذلك لأن الجزء المتوسط بينهما يملأ بالحصى ، ويزود بمصارف معقودة لحمل مياه الأمطار التى تسقط ، الى القنوات المجاورة ، حتى تظل جافة على الدوام • وعلى هذه الحصباء تمر العربات على الدوام رائحة وغادية • وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلى ، ولها أستار ونمارق (شلت) من حرير ، وتتسع لستة أشخاص • واعتاد كل من الرجال والنساء الذين يشعرون بميل الى انتهال متعة لأنفسهم ، تأجيرهم يوميا لتلك الغاية ، ومن ثم فانك قد ترى فى كل ساعة من ساعات النهار أعدادا غفيرة منها تساق فى الجزء الأوسط من الشارع (٢٩) •

وينطلق بعضهم لزيارة حدائق معينة ، حيث يتولى من يديرون المكان ادخال الجماعة الى أماكن للخلوة ظليلة أعدها القائمون على الحدائق لتلك الغاية ، وهنا يستمتع الرجال طوال النهار بصحبة نسائهم ، ويعودون الى بيوتهم فى وقت متأخر ، بنفس الطريقة التى جاءوا بها •

ق ــ ٦ ــ : ومن عادة سكان كن ساى ، متى ولد لهم طفل ، أن يدون والداه على الفور ، اليوم والساعة والدقيقة التى تمت فيها ولادته • ثم يسألان أحد المنجمين عن علامة أو هيئة السماء التى ولد تحتها الطفل ، فيعمدان كذلك الى كتابة اجابته بكل عناية • حتى اذا شب وترعرع وهم بأن يقوم بأية مغامرة تجارية ، أو رحلة أو عقد زواج ، حملت تلك الوثيقة الى المنجم ، فاذا فحصها ووزن كل الظروف نطق ببعض كلمات تكهنية معينة ، يوليها هؤلاء الناس ، الذين يجدون الأحداث تبررها فى بعض الأحيان ، ثقة كبرى • ويلتقى المرء فى كل سوق بأعداد كبيرة من هؤلاء

المنجمين أو بعبارة أخرى السحرة ، ولا يعقد أى زواج حتى يصدر فيه رأى من أحد أفراد تلك المهنة ٠

ومن عاداتهم أيضا ، عند وفاة أية شخصية كبيرة وغنية ، مراعاة المراسم التالية : فان أقارب المتوفى ، أناثا وذكرانا يرتدون ثيابا خشنة ، ويرافقون جثمانه الى المكان المعد لاحراقه ٠ ويصحب موكب الجنازة أثناء سيرها موسيقيون يعزفون على آلات موسيقية منوعة ، وترتل الصلوات للأوثان بصوت مرتفع ٠ حتى اذا وصلوا الى الموضع المعهود ألقوا فى النار قطعا كثيرة من الورق القطنى Catton Paper ، رسمت عليها بالألوان صور تمثل خدما ذكورا واناثا ، وخيولا وجمالا ، وحريرا مشغولا بالذهب ، فضلا عن صور النقود الذهبية والفضية ٠ وهم يفعلون هذا نتيجة لاعتقادهم ، أن المتوفى سيملك فى العالم الآخر كل هذه اللوازم الضرورية لراحته ، فيكون له الخدم والحيوان فى حالتهم الطبيعية من لحم وعظام فضلا عن النقود والحراير ٠ وما أن تلتهم النار كومة الحريق وما عليها حتى تتعالى أصوات جميع الآلات الموسيقية فى وقت معا ، محدثة ضجيجا عاليا متواصلا مدة طويلة ، وهم يتخيلون أنهم بهذه المراسم يحملون أوثانهم على استقبال روح الرجل الذى حولت جثته الى رماد ، حتى يعاد خلقها فى العالم الآخر ، وتدخل ثانية الى مجال الحياة ٠

ق ــ ٧ ــ : وتوجد بكل شارع من شوارع هذه المدينة مبان حجرية أو أبراج ، يستطيع السكان أن ينقلوا اليها أمتعتهم ابتغاء الأمن والسلامة ، فى حالة شبوب حريق فى أى حى ، (وهو شىء ليس بأية حال غير مألوف ، لأن معظم البيوت مبنية من الخشب) ٠ وهناك لائحة تنظيمية أصدرها جلالة الخان الأعظم ، تقضى باقامة حرس مكون من عشرة خفراء ، فى مكان مسقوف ، فوق جميع القناطر الرئيسية ، وهم يتناوبون الخدمة ، فيعمل خمسة منهم نهارا ويعمل

خمسة ليلا • وقد زودت كل غرفة من غرف الحرس هـــذه
بآلة خشبية مدوية فضلا عن آلة أخـرى من المعـدن ومعهما
ساعة مائية (Hovido Clepsydra) يتم بواسطتها معرفة
ساعات النهار والليل (٣٠) وما تكاد الساعة الأولى من الليل
تنقضى ، حتى يدق أحـد الحـراس دقة واحـدة عـلى الآلة
الخشبية ، وكذلك على الصنج المعدنى Becino فيعد ذلك
اعلانا لأهالى الشوارع المجاورة بأن الساعة هى الأولى • فاذا
انتهت الساعة الثانية ، صدرت دقتان ، وهكذا دواليك ، مع
زيادة عدد الدقات كلما تقدمت الساعات (٣١) • ولا يسمح
للحرس بالنوم ، وينبغى أن يظلوا دائما فى حالة انتباه •
وما تكاد الشمس فى الصباح تهم بالشروق ، حتى تدق دقة
واحدة ، كما حدث عند المساء ، وهكذا يتوالى الدق تصاعديا
من ساعة الى ساعة • ويمر بعض هؤلاء الحراس فى الشوارع
بشكل داورية ، لمراقبة اذا كان لدى أى شخص نور أو نار
متقدة بعد الساعة المحددة لاطفـائهما • فان هم اكتشـفوا
شيئا من هذا القبيل ، ألصقوا علامة على الباب، وفى الصباح
يؤخذ رب الدار الى الحكام ، فينزلون به العقـاب ، ان لم
يتمكن من تبيان عذر مشروع لمخالفته • وان هم وجـدوا
شخصا خارج الدور فى وقت غير مناسب، اعتقلوه وحبسوه ،
ثم حملوه فى الصباح الى نفس هذه المحكمة • وان هم لاحظوا
أثناء النهار أى شخص غير قادر عن عرج أو آية علة أخـرى
على العمل ، وضعوه فى أحد المستشفيات ، التى يوجد منها
عديد بكل جزء من أجزاء المدينة ، مما أسسه الملوك الخوالى،
ويتلقى الهبات السخية • فان هو شفى أرغم عـلى العمـل
باحدى الحرف • وبمجرد أن تظهر النار وقد شبت باحدى
الدور ، فانهم يبـادرون الى الانذار بقـرع الآلة الخشبية
وعندئذ يهرع الحراس من جميع القنـاطر الواقعـة داخل
دائرة معينة الى التجمع لاطفائها ، وكذا لانقاذ أمتعة التجار
وغيرهم ، بنقلها الى الأبراج الحجرية ، التى سبق ذكرها •

وقد تنقل البضائع أحيانا الى القوارب أيضا ، فتحمل الى الجزر الواقعة وسط البحيرة • وحتى فى مثل هذه الاحوال لا يجرؤ السكان على مغادرة بيوتهم لو شبت النار اثناء الليل ، ولا يستطيع التواجد الا من تنقل بضائعهم فعلا ، ومعهم الحراس الذين تجمعوا للمساعدة ، وعددهم يندر أن يقل عن مجموعة تتراوح بين ألف وألفين من الرجال • وفى حالات اندلاع الشغب أو الثورة بين المدنيين ، تصبح خدمات شرطة الحراسة هذه ضرورية أيضا ، ولكن بالاضافة الى هؤلاء ، يحتفظ جلالته فى المدينة وبالقرب منها بفريق ضخم من الجنود على قدم الاستعداد ، ما بين مشاة وراكبين ، وهو يقلد القيادة عليهم أكفأ ضباطه ممن يمكنه أن يضع فيهم أعظم الثقة ، وذلك بسبب فرط أهمية هذه الولاية ، وبخاصة عاصمتها الفاخرة ، التى تفوق فى عظمتها وثرائها كل مدينة أخرى فى العالم• ومن أجل أغراض العسس الليلى، تقام أكوام ترابية ، يبعد الواحد منها عن الآخر حوالى ميل، قد أقيم على قمتها اطار من خشب ، به أحد الألواح المدوية ، اذا دقه الحارس الواقف هناك بهراوة ، سمعت الضجة من بعد عظيم• واذا لم تتخذ احتياطات من هذا القبيل فى حالات شبوب النار ، تعرض نصف المدينة للفناء ، كما ان فائدتها واضحة أيضا اذا شبت فتنة بين الناس ، وذلك لأنه متى أعطيت الاشارة ، يتقلد الحراس القائمون على القناطر المتعددة أسلحتهم ، وينطلقون الى البقعة التى تستدعى وجودهم •

ق ــ ٨ ــ : وعندما أخضع الخان الأعظم ولاية مانجى لطاعته ، وكانت حتى ذلك الحين مملكة واحدة ، رأى من المناسب تقسيمها الى تسعة أجزاء (٣٢) ، عين على كل منها ملكا أو نائب ملك ، يتولى وظيفة الحاكم الأعلى لذلك القسم، ويقيم ميزان العدل بين الناس (٣٣) • ويقدم هؤلاء تقريرا سنويا لمندوبين ينوبون عن جلالته ، عن مقدار الايرادات

(الدخل) ، وكذلك عن كل أمر آخر يدخل في اختصاصهم . ثم انهم يغيرون كل ثلاث سنوات ، شأن جميع من عداهم من الموظفين العموميين . ويسكن أحد هؤلاء نواب الملك التسعه بمدينة كن ساى وبها يعقد بلاطه ويشمل سلطانه ما يربو على مائة واربعين مدينة وبلدا، وكلها الضخمة والغنية(٣٤) ولا يجوز ان يعجب أحد لهذا العدد ، متى وضع في اعتباره انه في ولاية مانجى بأكملها لا يوجد اقل من اتنتى عشرة مائة مدينة ، تضم عددا ضخما من السكان المجدين الأثرياء.(٣٥) . ويحتفظ جلالته بكل منها حسب حجمها وما عدا ذلك من ظروفها ، بحامية تأتلف في بعض الاماكن من ألف جندى ، وفي بعضها الآخر من عشرة آلاف ، او عشرين ألفا ، حسبما يرتأى في المدينة ومدى قوتها من حيث سكانها .

وينبغي ألا يتبادر الى أذهاننا أن هؤلاء الجند هم جميعا من التتار . اذ انهم على العكس يأتلف معظمهم من أهالى ولاية كاثاى . فأما التتار فهم على وجه الجملة فرسان راكبة، والراكبة لا يمكن أن تعسكر بالقرب من تلك المدن التى تقوم بالأجزاء المنخفضة المستنقعية من الولاية ، ولكنها تقيم فقط في المواقع ذات الأرض الجافة المتماسكة ، حيث يمكن تدريب هذا النوع من الجند تدريبا سليما . فأما المناطق المنخفضة ، فيرسل الامبراطور اليها الكاثايانيين ، كما يرسل من يبدى ميلا عسكريا من أبناء ولاية مانجى ، اذ جرت عادته بأن يجرى اختيارا سنويا بين جميع رعاياه لأحسن ذى أهلية لحمل السلاح ، فيلحقهم بالخدمة في حامياته العديدة ، التى يمكن اعتبارها جيوشا بالغة الكثرة . وهو لا يستخدم الجند المختارة من ولاية مانجى للعمل بمدنهم الأصلية ، التى بها ولدوا ، وانما هو بضد ذلك يسيرهم الى مدن أخرى ، ربما كان بعدها رحلة عشرين يوما، حيث يظلون أربع أو خمس سنوات بلا انقطاع ، يسمح

لهم بعد انقضائها بالعودة الى مواطنهم ، ثم يرسل غيرهم للحلول محلهم • وتنطبق هذه القاعدة على آهالى كاتاى أيضا • ويخصص الشطر الأكبر من ايرادات المدن التى تدفع فى خزانة الخان الأعظم ، للانفاق على هذه الحاميات • فاذا حدث أن كانت مدينة فى حالة عصيان ، (وليس ذلك بالحدث النادر بين هؤلاء القوم ، حين يبلغ بهم السخط المفاجىء ، أو السكر الشديد فيعمدون الى قتل حكامهم) ، أرسلت اليها على الفور مفرزة (آلاى) من حامية باحدى المدن المجاورة مع أوامر بتدمير المكان ، الذى ارتكبت فيه تلك الاعمال المتهورة ، وذلك لانه يكون من العمليات المرهقة تجريد جيش من ولاية أخرى قد يستغرق شهرين فى مسيرته ، ومن أجل هذه الأغراض ، تعول مدينة كن ساى على طول المدى حامية من ثلاثين ألف جندى ، كما أن أقل عدد ينزل بأى مكان لا يقل عن ألف جندى (٣٦) •

ق ــ ٩ ــ : بقى علينا الآن أن نتحدث عن قصر بديع البنيان ، كان فيما سلف مقرا لحكم الملك فقفور ، الذى أحاط أسلافه بالأسوار العالية قطعة أرض محيطها عشرة أميال وقسموها الى ثلاثة أجزاء • فالمنطقة الواقعة فى الوسط يدخل اليها بواسطة بوابة عالية ، يقع على كل جانب منها صف أعمدة فاخر ، يقوم على شرفة (تراس) مسطحة ، قد دعمت سقوفها صفوف من أعمدة ، زخرفت بوفرة بأجمل زخارف اللازورد والذهب ــ على أن صف الأعمدة المقابل للمدخل ، فى الجانب الآخر من الفناء ، كان أفخم من الصفوف الأخرى ، حيث كان سقفه مزينا زينة غنية وأعمدته مذهبة وقد زينت الجدران من الداخل بتهاويل : (تصاوير بالزينة والنقوش الملونة) بديعة ، تمثل تواريخ من خلا من الملوك (٣٧) • وهنا ، كان الملك فقفور يعقد كل عام بلاطه ، فى أيام معينة ومكرسة لعبادة أوثانهم ، كما كان يدعو كبار نبلائه الى وليمة ومعهم كبار الحكام والأثرياء من أهالى

مدينة كن ساى ٠.وربما اجتمع تحت أبهاء الأعمدة هذه فى وقت واحد عشرة آلاف شخص يجلسون الى الموائد جلوسا يناسب مقام كل منهم ٠ وكانت هذه الاحتفالات تدوم عشرة ايام أو اثنى عشر ، وكانت الفخامة والترف اللذان يتجليان فى تلك المناسبة ، من الديباج والذهب والأحجار الكريمة ، يفوقان كل خيال ، وذلك لأن كل ضيف كان بدافع المباهاة ، يحاول أن يجلى من ألوان الترف والزينة كل ما تستطيع موارده السماح به ٠

وكان هناك خلف بهو الأعمدة ٠ سالف الذكر ، أو مثيله المواجه للمدخل الأكبر ، جدار له ممر ، يفصل هذا الفناء الخارجي للقصر عن فناء داخلي ، كان يشكل ضربا من رواق معمد (Cloister) ضخم ، صفوف أعمدته تحمل سقيفة معمدة Portico تحيط به وتؤدى الى أجنحة مختلفة لاقامة الملك والملكة ٠ وقد زينت هذه العمدان بنفس الطريقة ، مثلها مثل الجدران أيضا ٠ ومن هذا الرواق المعمد ، كنت تدخل الى ممر مغطى أو دهليز ، عرضه ست خطوات ، وهو من الطول بحيث يصل الى حافة البحيرة ٠ وعلى جانبى هذا الدهليز مداخل متناظرة تؤدى الى عشرة أفنية ، جعلت بشكل أروقة أعمدة طويلة ، تحيط بها سقائفها المعمدة ، ولكل رواق أعمدة أو فناء خمسون جناحا ، لكل منها حديقته الخاصة ، وهى مسكن ألف شابة ، كان الملك يحتفظ بهن فى خدمته (٣٨) ٠ وجرت عادته أن يخرج التماسا لبعض اللهو والتسلية على صفحة البحيرة ، مصحوبا بملكته أحيانا ، وبجماعة من هؤلاء النسوة فى أحيان أخرى ، فى ذهبيات مغطاة بالحرير ، ولزيارة معابد الأبداد (الأوثان) المقامة على شواطئها ٠ فأما القسمان الآخران من سراى الحريم تلك فقد نسقا غياضا وبساتين ، وحياضا من الماء وحدائق جميلة زاخرة بأشجار الفاكهة ، وكذلك أيضا تحويطات

حاوية لجميع أنواع الحيـوانات التي تتخـذ هدفا للقنص ، كالظباء والغزلان والوعول والأرانب البرية والمنزلية ٠

وهنا كان الملك يسلى نفسـه أيضا ، بصحبة فتياته ، بعضهن في عربات وبعضهن على صهوات الخيول ٠ ولم يدن يسمح لاى شخص ذكر بالوجود بين هذه الجماعات ، على ان هؤلاء البنات كن مدربات على فن السباق مع الكلاب ومطاردة الحيوانات التي أوردنا ذكرها ٠ فاذا مسهن التعب من هـذه الرياضة ، انسحبن الى البساتين القائمة على ضفاف البحيرة ، وهناك يتجردن من ثيابهن ويندفعن الى الماء في عرى تام ، وهن يسبحن هنـا وهنـاك بروح رياضية ، فيتجه بعضهن ناحية ويتجه البعض الآخر وجهة أخرى ، بينما يظل الملك مشاهدا للعرض كله ٠ فاذا انتهى ذلك عدن الى القصر ٠ وكان الملك يأمر أحيانا بتقديم طعامه اليه في هذه الرياض، حيث كانت أوراق الأشجار الباسقة تلقى ظلا ظليلا ، وهناك يقوم على خدمته هؤلاء الفتيات أنفسهن ٠ وهكذا كان يضيع وقته في استمتاعه بمفاتن نسائه الموهنة للقوى ، وهو في جهل تام بكل ما يتصل بالشئون العسكرية ، وكانت عاقبة ذلك أن عاداته المنحلة وجبته مكنا الخان الأعظم من حرمانه من ممتلكاته الفاخرة وطرده من عرشـه مصـحوبا بالمهـانة والعار كما أسلفنا اليك ٠

وقد روى لى كل هـذه التفاصيل وأنا بتلك المدينـة ، تاجر غني من كن ساى ، علت به السن كثيرا في ذلك الحين ، وكان خادما موضع ثقة الملك فقفور ، كما كان عليما بكل ظرف من ظروف حياته (٣٩) ٠ ولمعرفته بالقصر في حالته الأصلية ، فانه أبدى رغبة في مصاحبتي لمشاهدته ٠ ونظرا لأن القصر في الوقت الحاضر هو مقر حكم نائب الملك للخان الأعظم ، فان صفوف الأعمدة ظلت عـلى حالها الذى كانت عليه فيما سلف ، ولكن غرف الحريم أهملت حتى تخربت ،

ولم يبق منها ظاهرا للعيان الا أساساتها • ودب البلى بالمثل الى السور الذى كان يحيط ببستان القنص والحدائق • ولم يعد يوجد بها حيوان ولا شجر •

ق - ١٠ - : ويقع البحر على مسافة خمسة وعشرين ميلا من هذه المدينة فى اتجاه شمالى بشرق ، وتقع بالقرب من البحر بلدة تسمى جان بو ، توجد بها ميناء مفرطة الامتياز ترتادها جميع السفن التى تجلب البضائع من الهند (٤٠) • ويكون النهر الذى يمر أمام مدينة كن ساى هذه الميناء ، عند النقطة التي ينتهى فيها الى البحر • وتستخدم الزوارق بلا انقطاع فى حمل البضائع أعلى وأسفل النهر • والبضائع المعدة للتصدير تشحن فى السفن المتجهة الى مختلف أرجاء الهند وكاثاى •

ولما تصادف أن كان ماركو بولو بمدينة كن ساى فى الوقت الذى يجرى فيه كتابة التقرير السنوى الى مندوبى جلالته بمقدار الايرادات وعدد السكان ، فقد أتيحت له فرصة ملاحظة أن السكان سجلوا على أنهم مائة وستون « تومانا » من الأفران أو المواقد ، أعنى من العائلات المقيمة تحت سقف واحد ، ولما كان التومان « Toman » الواحد عشرة آلاف ، أستتبع ذلك انه لابد أن المدينة بأكملها كانت تضم مليونا وستمائة ألف عائلة (٤١) ، ولم يكن بين هذا الخضم الزاخر من الناس الا كنيسة واحدة للنصارى النسطوريين • ويطالب كل والد عائلة ، أو كل رب بيت ، بأن يضع على باب بيته مكتوبا ، يحتوى بدقة على اسم كل فرد فى عائلته ، ذكرا كان أو أنثى ، وكذا عدد ما يملك من خيل • فاذا مات شخص أو غادر المكان شطب اسمه ، واذا ولد مولود أضيف الى القائمة • وبهذه الوسائل يصبح كبار ضباط (أو موظفى) الولاية وحكام المدن على علم فى جميع الأوقات بعدد السكان بالضبط • وتراعى نفس التنظيمات بكل أرجاء ولاية كاثاى

وكذا مانجى (٤٢) • وبالمثل ، يلزم جميع أصحاب الخانات والفنادق العامة بأن يكتبــوا فى ســجل آســماء من ينزلون عندهم بصفة مؤقتة ، محددين يوم وساعة نزولهم ورحيلهم، حيث تسلم صورة من هذا البيان يوميا الى حكام (مأمورى) الناحيــة الذين أســلفنا اليك أنهم يقيمــون فى ســاحات الأسواق • وجرت العادة بولاية مانجى ، عند طبقة الأهالى الأصليين ، الذين لا يستطيعون اعالة عائلاتهم ، أن يبيعوا أطفالهم للأغنياء حتى يجدوا الطعام والتربيــة عــلى وجه أفضل ، مما يتيحه لهم املاقهم •

الفصل التاسع والستون

عن ايرادات الخان الأعظم ٠

سنتحدث الآن عن الايراد الذى يحصل عليه الخان الأعظم من مدينة كن ساى والأماكن الواقعة داخل دائرة اختصاصها، وهى التى تؤلف القسم (أو المملكة) التاسع من مانجى ٠ ونقول ابتداء انه يجبى على الملح ــ وهو أشد المواد انتاجا ــ رسوما سنوية مقدارها ثمانـون تومانا من الذهب ، وكل تومان يعادل ثمانين ألف ساجيو ، كما أن كل ساجيو يعادل تماما فلورينا فلورنسيا ذهبيا ، وبذا يصل الدخل الى ستة ملايين وأربعمائة ألف دوقية (١) ٠

ونجم هذا الانتاج الهائل عن قرب الولاية من البحر ، وكثرة عدد البحيرات الملحة ، أو المسـتنقعات ، التى تتبلور فيها المياه أثناء حرارة الصيف ، ومنها يستخرج مقدار من الملح ، يكفى حاجة خمسة من الأقسام الأخرى بالولاية(٢)٠ وهنا تزرع وتصنع مقادير ضخمة من السكر (٣) ٠ وهى تدفع شـأن أنـواع البقالة الأخـرى ثلاثة وثلث فى المائة ضرائب ٠ وتجبى الضريبة نفسها عـلى النبيذ ، أو الشراب المخمر المصنوع من الأرز ٠

وبنفس هـذه الشاكلة تدفع طبقات الصـناع الاثنتا عشرة ، التى تحدثنا عنها آنفا ، بأن لكل منها ألف دكانة ، وكذلك التجار ، ومن يستوردون البضائع الى المدينة ابتداء ، عدا من يحملونها منها الى المناطق الداخلية، أو من يصدرونها

بحرا ، رسما قدره ٣⅓ فى المائة ، على أن البضائع الواردة بحرا من الأقطار والأقاليم النائية كالهند مثلا تدفع عشرة فى المائة ٠

وهكذا بالمثل شأن جميع السلع المحلية بالبلاد ، كالماشية وما تنتج الأرض من خضر ، والحرير ، فانها تدفع مكسا قدره العشر للملك ٠ ونظرا لأن الحساب تم اجراؤه بحضرة ماركو بولو ، فقد أتيحت له فرصة الاطلاع على أن ايراد جلالته ، بغض النظر عن الدخل الناتج من الملح آنف الذكر، بلغ فى السنة مبلغ مائتين وعشرة تومان (حيث يبلغ كل تومان ثمانين ألف ساجيو من الذهب) ، أو ستة عشر مليونا وثمانمائة ألف دوقية (٤) ٠

الفصل السبعون

عن مدينة تابن زو ٠

اذا أنت غادرت مدينة كن ساى ، ورحلت رحلة يوم واحد نحو الجنوب الشرقى ، مارا على الدوام ببيوت وفيلات وحدائق ذات بهجة ، يزرع بها كل أنواع الخضر بوفرة ، تصل الى مدينة تابن زو ، وهى مدينة بالغة السعة والجمال وتقع فى دائرة اختصاص كن ساى (١) ٠ ويعبد السكان الأوثان ، ويستخدمون العملة الورقية ، ويحرقون جثث موتاهم ، كما أنهم رعايا للخان الأعظم ، ويحصلون على معايشهم بالتجارة والحرف اليدوية ٠ والآن ، وليس هذا المكان بحاجة الى أى مزيد من التفات خاص ، فسنتحول الى الحديث عن مدينة أوجويو ٠

الفصل الحادى والسبعون

عن مدينة أوجويو ٠

ومن تابن زو ، تصل متى رحلت لمدة ثلاثة أيام فى اتجاه الجنوب الشرقى الى مدينة أوجويو (١) ، فان زدت توغلا فى الاتجاه نفسه ، بمسيرة يومين ، مررت على مجموعة جمة ومتعاقبة من المدن والقلاع والأماكن الآهلة بالناس ، ويبلغ من شدة قرب احداها من الأخرى ، أن تبدو لعين الغريب كأنما هى مدينة واحدة ممددة ٠ وكلها تابعة لكن ساى ٠ والناس هناك عبدة أوثان ، كما أن القطر يقدم ضروريات الحياة بوفرة زاخرة ٠ وهنا توجد أعواد خيزران أعظم ضخامة وطولا ، مما سبقت ملاحظته ، فمحيطها أربعة أشبار وارتفاعها خمس عشرة خطوة (٢) ٠

الفصل الثانى والسبعون

عن مدن جن جوى وزن جيان وجيبه زا ٠

لو تقدمت أماما مسيرة ثلاثة أيام فى نفس الاتجاه ، لبلغت مدينة جن جوى (١) ، فاذا لم تبرح تتقدم نحو الجنوب الشرقى ، لم تكف قط عن الالتقاء بمدن مملوءة بالسكان ، الذين يعملون فى أشغالهم والذين يزرعون الأرض ٠ ولا توجد أغنام فى هذا الجزء من ولاية مانجى ولكن توجد ثيران وأبقار وجواميس وأعناز كثيرة ، كما يوجد من الخنازير عدد لا يحصى (٢) ٠ وعند نهاية اليوم الرابع تصل الى مدينة زن جيان ، وهى مبنية على تل يقف منعزلا وسط مجرى النهر ، وهو يبدو - اذ ينقسم الى فرعين - كأنما يضمها بين ذراعيه ٠ ويتخذ هذان المجريان المائيان طريقين متضادين ، حيث يواصل أحدهما طريقه الى الجنوب الشرقى ويتجه الآخر الى الشمال الغربى (٣) ٠ والمدن آنفة الذكر تقع هى أيضا تحت سلطان الخان الأعظم ، كما أنها تتبع كن ساى ٠ ويعبد الناس الأصنام ويعيشون على التجارة ٠ والبلاد زاخرة بالصيد الوفير ، ما بين بهيمة وطير ٠ فاذا تقدمت أكثر مسيرة ثلاثة أيام وصلت الى مدينة جيبه زا المترامية الفخمة ، وهى آخر مدينة تدخل فى زمام سلطة كن ساى الادارية (٤) ٠ فاذا أنت غادرت هذه المدينة ، دخلت مملكة أو نيابة ملك أخرى تابعة لمانجى ، تسمى كون تشا ٠

الفصل الثالث والسبعون

عن المملكة او نيـــابة المملكة فى كون تشــا ، وعاصـمتها المســـماة فوجيو ٠

عند مغادرة آخر مدينة بمملكة أو نيابة مملكة كن ساى وهى المسماة جييه زا ، تدخل قرينتها كون تشا (١) ، التى قصبتها ومدينتها الكبرى هى فوجيو (٢) ٠ وفى مدى رحلة ستة أيام عبر هذا الاقليم ، باتجاه جنوبى بشرق ، فوق تلال وعلى امتداد وديان (٣) فانك لا تبرح تمر على بلدان وقرى، تتوافر بها ضروريات الحياة ، كما أن هناك الكثير من حيوانات الصيد وبخاصة الطيور ٠ والناس من الوثنيين ومن رعايا الخان الأعظم ، كما أنهم يشتغلون بالتجارة والصناعة ٠

وتوجد بهذه الاصقاع نمـــور (ببور) عظيمة الحجم والقوة ٠ ويزرع بها الزنجبيل وأيضا يزرع بها(٤) الخلنجان بمقادير وفيرة ، فضلا عن عقاقير أخرى (٥) مقابل ما يعادل فى القيمة غروتا بندقيا فضيا من العملة الصينية يمكنك الحصول على زنة ثمانين رطـلا من الزنجبيل ، اذ ما أكثر ما تشيع زراعته هناك ٠ وهناك أيضا نبات له جميع صفات الزعفران الحقيقى ، فله نفس الرائحة ونفس اللون ، ومع ذلك فهو ليس زعفران حقيقيا ٠ وهو يجد من القوم تقديرا عظيما ، ولما كان عنصرا لا يخلو منه طبق من أطباقهم ، فان له ، بسبب ذلك ، سعرا مرتفعا (٦) ٠

وبسكان هذا الصقع من البلاد ولع شـــديد بأكل لحم البشر ، حتى ليعدونه أشهى من أى لحم آخر ، شريطة ألا

يكون سبب موت الشخص ، هو المرض ، وعندما يتقـدمون للقتال ، يرخون شعرهم مرسـلا عـلى آذانهم ، ويصبغون وجوههم بلون أزرق زاه • ويتسلحون بالحراب والسيوف ، ويزحفون سيرا على الأقدام جميعا فيما عدا قائدهم الذى يمتطى حصانا • وهم جنس بشرى بالغ الغاية فى التوحش، حتى لقد يحدث أنهم عندما يقتلون أعداءهم فى المعارك ، يحرصون على شرب دمائهم ثم يعمدون بعد ذلك الى التهـام لحومهم واذ نترك هذا الموضوع ، فاننـا سنتحدث الآن عن مدينة كوى لن فو •

الفصل الرابع والسبعون

عن مدينة كوى لن فو •

. . اذا تمت رحلة الأيام الستة ، (الوارد ذكرها في الفصل السابق) ، تبلغ مدينـــة كوى لن فو ، وهي مدينـــة عظيمة السعة ، بها ثلاث قناطر جميلة جدا ، يربو طول كل عـــلى مائة خطوة ، وعرضها ثماني خطوات (١) • ونســـاء هـــذا المكان على جانب كبير من الجمال ، ويعشن في حالة من اليسر المترف • وينتج هنا قدر كبير من الحرير الغفل ، كمـــا أنه تصنع منسوجات حريرية مختلفة الأنواع • وتنســـج أقمشة القطن بها أيضا ، من خيوط ملونة (٢) ، وهي تحمل لتباع الى كل أجزاء ولاية مانجي • ويشتغل الناس أوسع اشـــتغال بالتجارة ، ويصدرون مقادير من الزنجبيل والخلنجان • وقد أبلغت ، وان لم أر الحيوان رأى العين ، أنه يوجد بهذا المكان نـــوع من الدجاج المنزلي ، ليس له ريش ، اذ يغطي جلده شعر أسود ، يشابه فراء القطط (٣) • ولا مراء أن شيئا كهذا يكون خارقا • فان تلك الدجاجة تبيض كغيرها من الدجان كما انها شهية لذيذة الطعم • ثم ان كثرة الببور تجعل السفر عبر البلاد محفـــوفا بالخطـــر ، ما لم يخرج في الرحلة عدد من الناس مجتمعين •

الفصل الخامس والسبعون

عن مدينة اون جوين ٠

عند مغادرتك مدينة كوى لن فو ، ورحيلك ثلاثة أيام، لا تبرح أثناءها تمر أمام بلدان ومعاقل ، يسكنها وثنيون ، وبها من الحرير مقـادير موفورة ، ويصـدرونه بمقـادير ضخمة ، تبلغ مدينة أون جوين (١) ٠ ويشتهر هذا المكان بصناعة سكر عظيمة تقوم فيه ، ومنها يرسـل الى مدينـة كانبالو ليتزود به البلاط الامبراطورى ٠ وقبل وقوعها تحت سيطرة الخان الأعظم ، لم يكن الناس على دراية بصناعة سكر ممتاز النوع ، وكانوا يغلونه بطريقة بعيدة كل البعد عن الكمال ، بحيث انه متى برد ظل في صـورة عجينـة بنيـة قاتمة (٢) ٠ ولكن تصادف أنه فى المدة التى انتقلت فيهـا هذه المدينة الى حكم جلالته ، أن كان بالبلاط بعض أشخاص من بابل (٣) ، حذقوا تلك الصناعة ، فلما أن أرسـلوا الى المدينة تولوا تعليم الأهالى طريقة تكرير السكر بواسـطة رماد بعض أنواع من الخشب (٤) ٠

الفصل السادس والسبعون

عن مدينة كان جيو

بعد قطع خمسة عشر ميلا آخرى بنفس الاتجاه ، تبلغ مدينة كان جيو ، التي تتبع مملكة أو نيابة مملكة كون تشا، وهي احدى الأقسام التسعة في مانجي (١) . ويرابط في هذا المكان جيش جرار يتولى حماية البلاد ، ويكون دائما على استعداد للعمل ، في حالة اقدام أية مدينة على اظهار أدنى بادرة عصيان . ويمر في وسطها نهر عرضه ميل واحد ، تمتد على ضفتيه من الجانبين عمائر متسعة ورشيقة . وتشاهد أمام هذه العمائر أعداد كبيرة من السفن راسية وهي تحمل مقادير ضخمة من البضائع ، وبخاصة السكر ، الذي تصنع منه هنا أيضا مقادير ضخمة . وتصل الى هذا الميناء سفن كثيرة من الهند ، قد شحنها بالبضائع التجار ، الذين يحضرون معهم تشكيلات ثمينة من الجواهر واللآلىء ، التي يحصلون من بيعها على مكاسب عظيمة . ويصب هذا النهر مياهه في البحر، غير بعيد من الميناء المسمى زائي تون . والسفن القادمة من الهند ، تصعد في النهر حتى تلك المدينة، التي تمتلىء بكل أنواع الميرة والتموين ، وبها حدائق بهيجة تنتج فواكه ممتازة .

الفصل السابع والسبعون

عن مدينة ومرفا زائى تون ومدينة تن جوى ٠

عنـد مغادرتك مدينـة كان جيو وعبورك النهر بغيـة التقدم فى اتجاه جنوبى شرقى ، تسافر لمدة خمسة أيام عبر منطقة آهلة جيدا بالسـكان ، بينما أنت تمر بمـدن وقلاع ومساكن ضخمة ، مزودة بوفرة بجميع أنـواع الأطعمـة ٠ ويمر الطريق فوق التلال ، وعبر سهول ومن خـلال غابات يوجد بها كثير من تلك الشـجيرات ، التى يسـتخرج منهـا الكافور (١) ٠

وتزخر البلاد أيضا بالقنابص والسكان وثنيون ٠ وهم من رعايا الخان الأعظم ، كما أنهم يقعون فى زمام كان جيو ٠ وبعد مسـيرة خمسـة أيام تبلغ مدينـة زائى تـون الفخمة والجميلة ، التى لها مرفأ على ساحل البحر ، يشتهر برسـو السفن ، المحملة بالبضائع ، التى توزع بعد ذلك بكل أرجاء ولاية مانجى (٢) ٠

ومقادير الفلفل المصدرة هناك ، هى من بالغ الضخامة، بحيث ان ما يحمـل الى الاسـكندرية ، لتزويد الأصـقاع الغربية من العالم بما يلزمهـا من فلفـل ، يعد قدرا تافها بالمقارنة ، ولعله لا يزيد عن واحد فى المائة ٠

ومن المحال علينا نقل فكرة عن احتشاد التجار ، تراكم البضـائع ، بهـذه الميناء التى تعد واحدة من أعظم موانى

العالم وأشدها سعة ويسرا . ويحصل الخان الأعظم من هذا المكان على دخل ضخم ، وذلك نظرا لان على كل تاجر ان يدفع عشرة في المائة ضريبة على مقـدار ما يستثمر من الأموال ، وهم يدفعون نولون السفن بواقع ثلاثين في المائة على البضائع الممتازة وأربعة وأربعين على الفلفل ، فأما خشب الصبر ، وخشب الصندل ، وغير ذلك من العقاقير ، فضلا عن السلع التجارية عامة ، فعليها أربعون في المائة ، بحيث انه عندما حسب التجار حسابهم ، وجدوا تكاليفهم ، بما في ذلك رسوم الجمارك والنقل ، ترتفع الى نصف قيمة البضاعة ، ومع هذا فان مكسبهم من النصف المتبقى لهم هو من الضخامة ، بحيث تراهم يميلون دوما الى العـودة الى السـوق نفسها محملين مقادير أخرى من البضاعة .

والبلاد بهيجة جدا والقـوم من الوثنيين ، ولديهم من لوازم الحياة الضرورية الكثير الموفور ، وهم قوم مسالمون ، كما أنهم مغرمون براحة البال والتنعم بأنواع المتعة . ويصل الى هذه المدينة أشخاص كثيرون من داخل بلاد الهند بقصد تزيين أجسامهم بالوشم بالابر (على الشـاكلة التى سـبق وصفها) ، لأنها مشهورة بكثرة عدد فنانيها المهرة في هـذا العمل (٣) .

والنهر الذى يجرى قدام ميناء زائى تون كبير وسريع، كما أنه فرع من النهر الذى يمر الى جوار مدينة كن ساى(٤)، وعند المكان الذى ينفصل فيه عن المجرى الرئيسى ، تقـوم مدينة تن جوى .

وليس لدينا مزيد من الملحوظات حول هذا المكان عدا أن الفناجين أو السـلاطين والصـحون المصـنوعة من خـزف البورسلين انما تصنع هناك (٥) وقد فسرت العملية بأنهـا تتم على النحو التالى : فانهم يجمعون نوعا معينا من الثرى ، من منجم ، ثم يكومونه كومة كبيرة ويتركونه معرضا للريح

والمطر والشمس ، مدة ثلاثين أو أربعين عاما ، لا تمتد اليه يد أثناءها • وبهذه الطريقة يصبح ناعما ولائقا وصالحا لآن تصنع منه الأوانى سالفة الذكر •

ثم يطلى بما يرونه مناسبا من ألوان ويحرق الفخار بعد ذلك بأفران وقمائن • وتبعا لذلك فان الآشخاص الذين يقومون بمشروع استخراج الثرى ، يجمعونه لأولادهم وأحفادهم • وان مقادير كبيرة من ناتج تلك الصناعة لتباع بالمدينة كما انك تستطيع الحصول على ثمانية فناجين خزفية مقابل غروت بندقى واحد •

والآن ، اليك نيابة مملكة كون تشا ، احدى الأقسام التسعة بمانجى ، ومنها يحصل الخان الأعظم على ايراد وافر يكاد يعادل ايراده من كن ساى • فأما الأقسام الباقيةالأخرى فلن نتعرض لها بحديث ، لأن ماركو بولو لم يزر بنفسه آية واحدة من مدنها ، كما فعل مع مدن كن ساى وكون تشا •

وينبغى أن يلحظ أن لغة عامة واحدة تسود بكل أرجاء ولاية مانجى ، كما تعمها طريقة كتابة مشتركة واحدة ، ومع هذا فان هناك اختلافا فى اللهجات بمختلف أجزاء البلاد ، يماثل الاختلاف الواقع بين اللهجة الجنوية والميلانية والفلورنسية ولهجات الولايات الايطالية الأخرى ، التى يمكن سكانها أن يتفاهموا فيما بينهم ، وان كان لكل منهم لغة حديثه الخاصة •

واذ لم يتمكن ماركو بولو حتى الآن من اتمام الموضوعات التى انتوى الكتابة عنها ، فانه سيختم هذا الكتاب الثانى ؛ ويبدأ كتابا آخر يحمل أوصاف أقاليم بلاد الهند وولاياتها ؛ مقسما اياها الى الهند الكبرى ، والصغرى والوسطى ، التى زار منها أجزاء وهو يعمل فى خدمة الخان الأعظم ، الذى

أمره بالشخوص الى هناك في مناسبات مختلفة للعمل ، كما زارها فيما بعد ، مصحوبا بأبيه وعمه ، في رحلة عودتهم ، عندما قاموا بمرافقـة الملكة الموجهـة الى الملك أرغـون ٠ وستتاح له فرصـة رواية كثير من الظروف الخـارقة التى شهدها بنفسه شخصيا بتلك الأقاليم ، ولكنه لن يفوته فى الحين نفسـه ملاحظة أحوال أخرى أبلغه نبأها أشـخاص جديرون بالثقة ، أو أشير له اليهـا عـلى الخريطة البحرية لسواحل الهند (٦) ٠

هوامش الجزء الثانى

● هوامش الفصل الأول

(١) كان لقب كا آن Kaan هو اللقب الذى وجـــه جنجيز ولده وخليفته أو غداى (أو كتاى) الى التلقب به ، والذى تفسره القواميس ، كما يفسره نصنا هنا ، بعبارة خان الخانان أو أمير الأمراء .

(٢) الأرجح أنه كان الامبراطور الخامس وليس السادس . اذ يبدو أن مؤلفنا أدخل باطو فى تعداده للأباطرة ، وكان أكبر أحفاد جنجيز سنا ، ولكنه تنازل عن حقه فى الحكم ايثارا لمانكو ابن أخيه .

(٣) ان حكم قبلاى امبراطورا للصين ، لم يكن مفهوما أنه بدأ حتى عام ١٢٨٠ ، عندما تم فتح الولايات الجنوبية ، وأديل من الأسرة القديمة وقضى عليها .

(٤) ان الحق فى وراثة الملك (حسب أفكارنا المعاصرة) كان ينبغى أن يكون محصورا فى أحد أبناء مانكو ، الذى كان اسم أكبرهم آسوتاى ، ولكن هذا الادعاء الوراثى كان يتعدل عند المغول حسب الظروف ، كما أن الملك المحتضر كان يعين على الجملة ، اسم فرد العائلة الذى كان يراه أكثر أفراد العائلة أهلية ، من ناحية سنه ومواهبه ، لحمل مقاليد الحكم أو بعبارة أدق « لقيادة الجيوش » ، وهو تعيين لم يكن بد من أن يخضع لموافقة أو رفض رؤساء القبائل ، الذين تنعقد منهم جمعية عظمى أو مجلس « دايت » ، تسمى كورولتاى Kurultai وتبعا لذلك فانا نجد أنه بينما كانت وراثة العرش موضع نزاع الى حين بين قبلاى وأخيه الأصغر ، فان أبناء مانكو ، بدلا من تأكيد حقوقهم الفعلية ، انضموا الى من ظهـــر فى النهاية أنه أضعف العمين .

(٥) يعنى بذلك منذ فترة توليـــه عرش امبراطورية الصين ، فى ١٢٨٠ أو بعبارة أدق ، عقب وصول مؤلفنـــا الى بلاطه ، اذ حـدث فى ١٢٦٢ ، أنه خرج بشخصه لملاقاة أخيه ارتيجيوجا أو أرتجبغا .

(٦) تعبر الترجمة اللاتينية عن علاقة القربى بين نايان وقبلاى بكلمة باتروس Patruus وهى فى الخلاصات الإيطالية Avo . فى نسخة راموسيتو ياربا tarba وهى كلمة تخبرنا القواميس أنهـــا المصطلح اللومباردى الدال على العم « Zio » لكن لما كان أصغر منه بثلاثين أو أربعين سنة (حسبما ورد ذكره هنا) فانه يكاد يكون من المستحيل أن تكون

بينهما تلك الدرجة من القرابة ، كما يصبح من المعقول الظن بأن العبارة الأصلية لابد أنها تعرضت لسوء الفهم من المترجمين • وربما كان ـ مع قدر أكبر من المعقولية الظاهرية التى يمكن اساغتها ـ يدعى ابن أخ له ، على أن القرابة الواقعية كانت أبعد من هذا كثيرا اذ كان سلفهما المشترك هو والد جنجيز خان • وكان قبلاى حفيدا لذلك العاهل ، ونايان ابن حفيد بلكاتاى شقيقه • وبناء على هذا فانهما كانا أبناء عمومة من الدرجة الثانية متباعدين درجة واحدة ، حسب طريقة التعبير الانجليزية •

(٧) كانت الممتلكات التى ورثها هذا الأمير عن سلفه ، الأخ الرابع لجنجيز خان ، تقع ببلاد التتار الشرقية ، وكما كانت ممتلكات قايدو تشتمل على الجملة المنطقة الواقعة غرب الصحراء الكبيرة وجبال آلتاى فى اتجاه قشغر • وكان هؤلاء الرؤساء ملزمين ، بطبيعة الحال ، بتقديم ولائهم الاقطاعى للشخص الذى كان يعد رأس العائلة ، ولذا يقال عنهم انهم كانوا الأتباع الاقطاعيين لقبلاى •

(٨) انها بلاد التركستان ، أو الاقليم الذى تملكه القبائل التركية ، الذين أطلق عليهم اسم التتار هم وحدهم فى الآونة الأخيرة •

(٩) ان استخدام جند من هذا الوصف (المقابل لبستانية السراى السلطانية التركية) ، ليدل على الانحطاط الواضح فعلا الذى تطرق الى ذلك النظام القوى الذى مكن للتتار اخضاع جيرانهم المتمدينين والمترفين ، ولكنه لم يكن محيص من أن يصبح مسترخيـــا قد ران عليــه الخمول والانغماس في النعيم شأن الشعب المغزو سواء بسواء •

(١٠) ينبغى لنا أن نفهم أن المقصود بهذه الولايات الصين الشمالية والجنوبيـــة ، اللتين يفصــــل بينهما نهر هوانج هو الكبير فى الجانب الشرقى ، كما تفصلهما الحدود الجنوبية لشن سى فى الجانب الغربى •

(١١) لم يكن الأمر قاصرا على أن شطرا كبيرا من السكان، سيما سكان الصين الجنوبية ، كان شديد التعلق والولاء للعترة العريقـــة لملوكهم ، بل أيضا أنه كان يقيم بجميع الولايات الغربيـــــة ، متشيعون عديدون للفروع المتنافسة من أسرة قبلاى عينها ، وكلهم متلهف على انتهـــاز جميع الفرص لاثارة الفتن •

(١٢) ان هذه التفاصيل ، القوية الأرجحية فى حد ذاتها ، لا يمكن ، فى اعتقادى ، العثور عليها عنـد أى كاتب أصيل آخر • ولابد أن قبلاى إتبع سياسة الاحتفاظ بجنده التترية منفصلة ومتميزة جهد الطـــاقة عن الصينية ، ولذلك ، فبدلا من انزالهم بالمدن الكبرى ، كانوا يعسكرون

على مسافة بضعة أميال منها ، وبذلك يحتفظ لهم بحالة مشابهة على الأقل لحياتهم الرعوية السابقة ، بينما تحيط بهم أسرايهم وقطعانهم ٠

(١٣) ولم تجر العادة قبل ذلك أبدا باستخدام الفيلة بالصين ، لا في معترك القتال ولا مواطن الاستعراض ، ولكن لابد أنه (في أثنــاء العمليات التي أتمها قبلاي وهو قائد في جيش أخيــه) بولاية يونان ، المتاخمة لآفا ، وفي أقطار أخرى تكثر بها هذه الحيوانات الكريمة ، أصبح ضريا تماما بالخدمات التي يمكن أن تؤديها هذه الحيوانات أداء نافعـا ، كما أنه يتجلى في فصل تال ، أنه حدث قبــل المدة التي نتحدث عنهــا بثلاث سنوات فقط ، أن قبلاي أخذ عددا من الفيلة من ملك ميين أو آفا (وهو الملك الذي هزمه قواده في ١٢٨٣) واستخدمها في جيوشـــه ٠ وهذا التوافق بين الظروف شيء يجدر ألا تفوتنا ملاحظته ٠

(١٤) على أن تفاصيل المعركة ، كما وردت في النص ، لا تتفق تماما مع البيان الذي أورده ده جني ، ولكن لا عجب في ذلك متى وضـعنا في اعتبارنا ، كم يندر أن يتطابق وصفان لأية معركة كبيرة ٠ وربما جاز لنا أن نقرر أنه يبدو أن ماركو بولو كان موجودا هناك ٠

(١٥) ان مثلة هذا التظاهر بتجنب سفك الدم أثناء عملية ازهاق روح شخص ذي مكانة عالية وحرمانه من الحياة ، مسألة تلاحظ في كثير من الحالات ، ولعلها هي مرد استخدام وتر القوس في السراي السلطانية التركيـــة ٠

(١٦) ليس في الامكان في أية خريطة عصرية أو بيـــان معاصر عن بلاد التتار الشمالية تحقيق أسماء هذه القبائل ، التي لعلها توقفت منذ أمد طويل عن الاحتفاظ بنفس تسمياتها ٠ ومما زاد الأمر عسرا ، التحريف الفظيع للكلمات في الترجمات والاصدارات المختلفة ٠

(١٧) هذه هي أول مرة يتحدث فيها مؤلفنا عن اليهود ببلاد التتـار أو الصين ٠ فأما عن وجودهم بالصين ، في زمن مبكر ، فأمر لا مجال فيه للشك ٠ فروايات الرحالة المسلمين في القرن التاسع ، تنبؤنا أنه في المذبحة التي حدثت بمدينة كانفو ، عندما فتحها عنوة زعيم ثائر ، بعــد حصار عنيد ، هلك كثير من أبناء تلك الملة ٠

● هوامش الفصل الثانى

(١) يستقيم هذا السلوك نحو معتنقى النظم الدينية العديدة ، تماما مع خلق قبلاى الذى كانت السياسة فيه هى الظاهرة الرئيسية · اذ كان هدفه أن تظل جميع طبقات رعاياه فى حالة مزاجية طيبة وبخاصـــة كل سكان العاصمة ومن يحيطون بالعرش والبلاط ، بامتاعهم بحرية اتباع مناسكهم الدينية الخاصة من غير مضارة ، وباشباع غرور كل طائفة منهم باقتناعها بفكرة أنها تستأثر بحمايته الخاصة · وكانت كثير من أسـمى الوظائف فى الدولة ، المدنية منها والعسكرية ، فى أيدى المسلمين ·

(٢) الواقع أنه لا من يعتنقون الاسلام يعدون محمدا الها ولا اليهود يعدون موسى ربا ، ولكن لا يجوز أن ينتظر من امبراطور تترى أن يدرك الفروق اللاهوتية بصورة بالغة الدقة ·

(٣) هذه الكلمة ، التى يرجح أن النساخين حرفوها كثيرا ، لابد أن المقصود منها هو أحد الألقاب العديدة لبوذا أو فو ، الذى يشيع بين المغول، وفى بلاد الهند أيضا ، تسميته باسم شاكيا مونى ، كما يسمى فى سيام سومونا كودوم ·

هوامش الفصل الثالث

(١) من المحتمل أن قبلاى بتأسيسه لمجلس من هذا القبيل ، لم يكن الا متمشيا مع نظام الحكومة الصينية السابقة أو القديمة ، الذى كان يضع مختلف شئون الدولة ، تحت ادارة محاكم متميزة تسمى (بو Pû) كان يضاف فى أولها الى كل واحدة منها كلمة أخرى ، تعبر عن الطبيعة الخاصة للقسم أو الشعبة التابعة لها · يقول دوهالد : « كانت المحكمة الملكية الرابعة ، تسمى بنج بو ، أى محكمة الجيوش · وهى ميليشيا الامبراطورية كلها وما يلحق بها من ولايات ويخضع لهذه المحكمة ضباط الحرب العموميون والخصوصيون » · الخ · (مج ٢ ص ٢٤) فان كان الملك رجل حرب ، يدين بامبراطورية الصين لسيفه ، فربما جاز فعلا أن تعد هى الأولى فى الأهمية ، وان كانت الآن أقل مرتبة من محاكم ثلاث أخرى ·

(٢) انظر الهامشة (١) ص ١٦ حيث أدلينا ببيان عن هذه اللوحات أو البراءات ، التى تسمى تشى كوواى « tchi-Kouei » طبقا للهجاء الفرنسى للكلمة ·

(٣) الصورة الصينية التى تمثل أسدا ، شأن السنجا « Singa » فى الميثولوجيا الهندوكية التى يبدو أنها نقلت عنها ، ذات شكل قبيح مشوه ، بعيد كل البعد عن شكل الحيوان الحقيقى ويجد القارىء صورة له فى كتاب استاونتون« Acc. of Macartis Embassy »(مج ٢ ص ٣١١) كما أن الشكل ليس غريبا عن مجموعاتنا الخزفية ·

وسنتحين عما قليل فرصة لاظهار انه حيثما تحدث مؤلفنا عن الأسد بوصفه حيوانا حيا ، وهدفا لرياضة الصيد ، فينبغى أن يكون المقصود هو « الببر Tiger » .

(٤) لما كانت « ساجيو » البندقية معادلة لسدس أوقية ، فان هذه البراءات كانت تزن اذن عشرين أوقية ، كما تزن الأخريات نسبيا الى وزن يصل الى خمسين أوقية ·

(٥) فى كثير من أجزاء الشرق ، تعد الشمسية أو المظلة ذات النصاب الطويل ، التى يحملها تابع من علامات رفعة الشأن ، بل انها تدل على السيادة والولاية متى كان لها لون معين ، ويعدد دوهالد فى وصفه لموكب لسونج تو احدى الولايات أو نائب الملك فيها ، يعدد بين الشارات : « شمسية من الحرير الأصفر ذات ثلاث طبقات » .

(٦) يذكر دوهالد النسر بين الحليات الزخرفية الشعارية التى يرتديها كبار الضباط ، ولكن ربما كان المقصود بذلك هو السنقر ، وهو طائر يلقى تقديرا أكثر بوصفه أداة للرياضة الملكية .

⊙ هوامش الفصل الرابع

(١) يقول ده جنى انه : « تزوج زوجات كثيرات ، تحمل خمس منهن لقب الامبراطورة » ، ولكن الراجح أنه لم يكن يجتمع له فى وقت واحد (مهما كثر عددهن) ، أكثر من أربع ، كما أن شرعية العدد الأخير ، الذى لا يبدو أن النظم الصينية القديمة تقره ، ربما أوحى بها العرف الاسلامى ويذكر البروفيسور ماجالهانز ثلاث ملكات بنسبهن الى الامبراطور كانج هى ، كما أن قصر الامبراطور السابق كيين لونج كان يتألف ، بالمثل ، من سيدة واحدة تحمل لقب الامبراطورة ، وملكتين من الدرجة الثانية ، وسبت من الدرجة الثالثة .

(٢) وطبقا لقوانين الصين ، كما ينبئنا دوهالد ، فان أسن الأبناء (أو ابن الزوجة العليا) ، وان كان له حق ادعاء الأفضلية ، الا ان حقه فى وراثة العرش ليس غير قابل للالغاء . وانا لنجد بين أسلاف قبلاى ، كذلك ، فى الامبراطورية المغولية ، أمثلة للتجاوز عن الحق الوراثى واهماله ، كما أن أوغداى (اقطاى) نفسه عينه أبوه خانا أعظم ، مؤثرا له على جاغتاى ، الابن الأكبر من هنا ينبغى أن يكون مفهوما أن مؤلفنا يريد أن يقول ، ان الابن الأول الذى يولد لأية واحدة من الامبراطورات الأربع كان يعتبر الوارث العتيد فرضا ، ولما كانت فى الواقع هى الحال فيما يتعلق بأكبر أبناء قبلاى ، الذى كان خلافته على العرش لو أنه عاش بعد أبيه ، أمرا لا شك فيه ، فان المشاعر السائدة فى البلاط ربما أسىء فهمها بطبيعة الحال ، فزعم أنها هى العرف المقرر فى الامبراطورية .

(٣) يبدو أن هذا العدد جسيم جدا ، ولكن لا يصح لنا أن نقيس الاسرافات الصادرة عن السلطان الهائل المطلق الذى لا يحده شىء ، بأى معيار لأفكارنا المعاصرة . فربما كان كل ما فى الأمر بالاضافة الى التابعات الانثيات والطواشية ، صغارهم وكبارهم — أن حرس شرف عسكرى كبير العدد ، ربما كان ملحقا ببلاط كل امبراطورة . ومع ذلك فان طبعة البندقية المبكرة تذكر عددا أخفض كثيرا « Ciascuna de queste quatro donne » ويذكر العلامة مارتينى ، أناثا عديدات ، دون مرتبة السرارى المحظيات ، يوجدن لخدمة القصر .

(٤) الاقليم الذى يدعى هنا أنجوت يسمى فى نسخ أخرى بأسماء أوريجياش ، وأوريجيات وأنجراس . وليس هناك شك فى أن المقصود به

هو بلاد شعب اغور أو ايغور أو يويغور ، الذين كانوا يمتلكون فى زمن جنجيز خان أقاليم تورفان وهامى أو كاميل ، وكانوا يعتبرون على الدوام متفوقين من حيث أشخاصهم ومزاياهم ، على جميع أمم بلاد التتار الأخرى .

(٥) ان كان المقصود بوزن الذهب ذاك القيراط المكون من أربع حبات ، فلا شك أن القيمة المقدرة للجمال كانت خفيضة جدا فى ذلك العصر والقطر ، وذلك لأن عشرين قيراطا من الذهب ، أى ثمانين حبة ، مقدرا بأربعة جنيهات استرلينية للأوقية ، لا ترقى الى أكثر من ثلاثة عشر شلنا واربعة بنسات . ولكن أغلب الاحتمال أن كلمات مؤلفنا تعبر عن بعض الأوزان الصينية (هى التأيل أو الميس فيما يحتمل ، وهو وضع يرفع التقدير الى جوالى ثمانية أو تسعة من الجنيهات الاسترلينية) ، ولعل الإصطلاح الأجنبى ترجم خطأ الى كاراتو . (ويقول المترجم : ان هذا هو تقدير نسبى على أساس التقدير الشرقى المقوم بأربعة وعشرين قيراطا أى منتهى غاية الكمال ، وهى مسألة نسبية تنسب الى هذه الأربعة والعشرين ولا دخل للذهب ولا قيمته المادية فى هذا الموضوع مطلقا) .

(٦) من هنا يتضح إن قبلاى وان تبنى العادة الصينية من استخدام الخصيان مرافقين أو حراسا لنسائه (أنثياته) ، فانه رغم ذلك لم ينس طباعه الرجولية الأصلية ، بحيث يدنيهن من شخصه .

● هوامش الفصل الخامس

(١) على أن جوبل وده جنى يسميان هذا الأمير تشنجكن وتشنكن ، ربما كانت هذه هى الطريقة التى كان الصينيون ينطقون بها الاسم ، هم يختمون كل أحاديات المقطع - فى لغتهم اما بحـــرف علة أو حـــركة (vowel) واما بحرف أنفى (nazal) ، ولكن الاسم كمـــا ورد فى معظم رجمات مؤلفنا أصح كما هو واضح ، لأنه هو نفس اسم السلف الأكبر للأسرة ، كما أنه قيل نصا فى الخلاصة البندقية المبكرة ما يلى :
« Soprimo hebbe nome Chinchis Chan per amor de Chinchis ».

(٢) واضح ان الاسم المكتوب هنا ثيمور وتيموز فى نسخ أخرى ، هو الاسم التترى الشهير تيمور ، وان لم يحـــرز الفاتح العظيم المسمى بذلك الاسم قمة شهرته الا بعد انقضاء قرن من الزمان •

(٣) ويعدد ده جنى عشرة من أبنائه ولدوا له من خمس امبراطورات، ويذكر أن ولايـــات شنسى وستشيوين والتبت يحكمها منجكولا ، الابن الثالث • ويلاحظ البروفسور ماجالهانز عادة ارسال أمراء العائلة الملكية الى الولايات بلقب ملوك ، ولكن سلطتهم كانت فى أثناء حكم كانج هى سلطة اسمية محضـــة •

● هوامش الفصل السادس

(١) الذى جرى بصورة نسبية مع الامتداد الشاسع للامبراطورية بأكملها فى تلك المدة ، هو ان كاثاى أو الصين الشمالية ، سماها مؤلفنا ولاية ، وان كانت فيها عاصمة تلك الامبراطورية ومقر الحكم ٠

(٢) ان هذه الأبعاد ، حين تطبق على قصر وان كان لامبراطور الصين ،لتبدو لأول نظرة مبالغا فيها ، ولكن الصعوبة الظاهرية انما تنشأ من الخطأ فى تطبيق أحد المصطلحات حيث سمى بالقصر ، ذلك المكان الذى كان فى واقع الأمر تحويطة حول حديقة ملكية ومعسكر ٠

(٣) تشمل المساحة المخصصة للأجناد فى هذا المسطح ثمانية وعشرين ميلا مربعا ٠ ولأن عددهم كان بطبيعة الحال عظيما جدا ، ولأنهم كانوا فى الأغلب الأعم من الفرسان ، فان الثكنات أو الظلل اللازمة لايوائهم كان لابد أن تشغل متسعا هائلا من الأرض وفى الجزء الأول من القرن الماضى كانت الخيالة المعسكرة فى مدينة بيكين وما حولها تقدر بثمانية آلاف ٠ فعلى فرض أنها كانت تقارب ١١٢ ألفا فى عهد قبلاى ، فان هذا التقدير لن يسمح الا بميل مربع واحد لكل أربعة آلاف فارس ٠

(٤) ولما كانت هذه التحويطة الثانية لا تحتوى مستودعات الأسلحة (الترسانات) ، الملكية فحسب ، وعددها ثمانى ، وهى اللازمة لكل نوع من أنواع المخازن العسكرية ، وانما كانت تشكل أيضا حديقة للغزلان ، فليس ثم أى عجب فى اتساعها ٠ ومع هذا فليس من السهل التوفيق بين موقعها بالنسبة للمدينة وبين بعض الظروف المذكورة هنا ، على أنه ينبغى لنا أن نظن أن التحويطة الجوانية (الوارد وصفها بعد) ، التى كانت تحوى السراى الحقة ، كانت تقع صوب الجانب الشمالى لتلك الحديقة ، كما كانت فى الوقت نفسه مجاورة للسور الجنوبى للمدينة ٠

(٥) لاتزال عادة الاحتفاظ ببوابات خاصة ليستخدمها الامبراطور وحده فقط مرعية الى اليوم ٠

(٦) ينبغى أن يقصر اسم « السراى » على هذه التسويرة الأخيرة ، وعندما نقرأ وصف « ميدان أصفهان » ، أو قصر الاسكوريال بأفنيته الاثنين والعشرين ، فاننا لن نعد مساحة الميل المربع الواحد اتساعا شاذا لكى تشغله المبانى المتنوعة اللازمة لمنشأة كمقر قبلاى وينبغى أن يلاحظ

فى الحين نفسه، أن هناك اتفاقا عجيبا بين المقياس المذكور هنا وبين المقياس المخصص للقصر الحديث فى الأوصاف التى حصلنا عليها من الجزويت · (الآباء اليسوعيين) ·

(٧) من المشهور أن من عادة ملوك الشرق ، منذ أقدم العصور ، أن يهبوا خلعا من الثياب لمن يريدون أن يخصوهم بالتكريم والاصطلاح الفارسى « الخلعة » يطبق فى الجملة على هذه الثيــاب ، التى تتألف فى الأجزاء الشمالية من آسيا من معاطف فراء ، وثياب من قماش أو حرير ، فى المناخات المعتدلة والدافئة وانا لنقرأ عن توزيع أعداد ضــخمة منها فى مناسبات الانتصارات العظيمة ، أو توديع سفارات مهمة ، وربما كان هذا هو السر فى ضــخامة خزائن الملابس أو المبانى الضرورية لما يسمى هنا ثياب الامبراطور النفيسة « Paramenti » ، التى قد تضم أيضا الشعارات والرموز الملكية التى تحمل فى مواكبهم الفاخرة ·

(٨) وسيتجلى فى اللوحات المصورة المصاحبة لبيانات الســفارات المختلفة الى بكين ، أن أرضية السرايات وان كانت مرتفعــة عن مستوى الأرض ، فانها تتألف من طابق واحد فقط وارتفاع السقف المزخرف انما هو ظاهرة عجيبة فى فن عمارة هؤلاء الناس ·

(٩) تقول نسخة راموسيو ان ارتفاع الشرفة يبلغ « عشرة أشبار Dieci Palmi أى حوالى سبعة أقدام (لأن الشبر تسع بوصات) ، ولكن الارتفاع فى الخلاصات هو : ذراعان ونصف « doi brassa emezo » ، أى حوالى ضعف ذلك الارتفاع ، وذلك ما يتفق على أفضل وجه مع الأوصاف الحديثة · وتؤدى جميع بيانات المبشرين والرحالة الى اظهار أنه من حيث التشييد ، والمواد المستخدمة وأسلوب الزخرفة ، قد وجدت مشابهة تامة بين مبانى قبلاى ، كما وصفها مؤلفنا ، وبين مبانى كانج هى وكيين لونج ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ·

(١٠) ويضيف دوهالد : « ان طول هذه القاعة هو حوالى مائة وثلاثين قدما ، كما أنها مربعة تقريبا · وكسوة الجدران مشكلة كلهــا نحائب مبرنقة باللون الأخضر ومملوءة بالأفعوانات الذهبية : والأعمدة التى تدعم السقف من الداخل يتراوح محيطها من أسفل ما بين ستة وسبعة أقدام · وهى مكسوة بطبقة من عجينة ذات صباغ أحمر صقيل » · (مج١ ص ١١٧) ·

(١١) تغطى الأسقف دائما بالزليج (القرميد) المحروق ، وهو فى المبانى الرئيسية ذو صقال متزجج له لون زاه · فأما المستخدم منــه فى القصور فى أيامنا هذه فهو مقصور على اللون الأصفر وحده ، غير أن هذا البروتوكول ربما لم يكن يستمسك به بدقة فى ظل أسرة يوون · «والجميع

مغشى بزليج مزجج (Glazed tiles) بلون أصفر بالغ الجمال ، بحيث لا يبدو من بعيد تقريبا أقل بريقـــا ، مما لو كان مذهبا » • انظر دوهالد مج ١ ص ١١٦ •

(١٢) يستخدم راموسيو لفظة Vitreate التى ترجمناها Glazing أي تركيب الزجاج مع أنه ليس هناك سبب يدعو الى الظن بأن الزجاج كان يستخدم فى النوافذ ببلاد الصين فى ذلك الزمن • وربما كان المعنى هو أن المادة الصافية المستخدمة زجاجا (وربما كانت هى الطلق أو صفائح المحار) كانت تعالج برقة ومهارة بالغة (cosi ben fatte è cosi sottilmente) بحيث تصبح لها شفافية البلور • ويقول ده جنى : « تزود نوافذ المنازل بالمحار الرقيق والشفاف الى حد ما ، أو بالورق » • (مج ٢ ص ١٧٨) ويذكر استونتون أن قمرات بعض اليخوت أو الصنادل كان لها أنواح من الزجاج ولكن من المحتمل أنها كانت صناعة أوربية •

(١٣) على أنه فى السراى العصرية ، توصـــف المبانى المعدة لهذا الغرض (وان كان ذلك وصفا غير صحيح) بأنها محيطة بالفناء ، امام قاعة الاستقبال الكبرى ، على أنه ينبغى ألا ندهش لأى اختلاف أو تغيير يتعلق بترتيب هذه المبانى ، عندما نعلم أن القصر بأكمله دمرته النيران عدة مرات •

(١٤) وفى شرق الفناء نفسه يقوم قصر آخر ، يسكنه ولى العهد ، عندما ينادى بأحد الأمراء وليا للعهد • انظر ده ليل De Lisle, Descr. de la ville de Péking ص ١٦ • ولن يغيب عن القارىء أن مؤلفنا لاحظ فى صفحة سابقة وفاة ذلك الأمير المبكرة (انظر ص•ص 166/1/5) ، ومع هذا ، فهو يذكره هنا على انه انسان حى يرزق • وواضح أنه ينبغى أن ننسب ذلك الى الظروف التى أحاطت بوضع الكتاب حيث تكون ، لا من الذاكرة فحسب ، بل من مذكرات أو ملحوظات كتبت فى فترات مختلفة ، ربما كان من أقدمها وصف للمقصور • زد على هذا أن قبلاى ، الذى تروى حادثة وفاته فى ثنايا رحلة العودة ، يسور الحديث حوله فى العمل من أوله لآخره ، على أنه الامبراطور الذى يتولى الحكم فعلا •

(١٥) لا يزال هذا التل (أو الجبيل أو الجبلاية) الصناعى موجودا الى وقتنا هذا ولا يزال يحتفظ باسمه الأصلى كنج شان أو الجبل الأخضر • ولكن يبدو من الروايات العصرية أن أربعة جبيلات أخرى من حجم أصغر أضيفت اليه منذ ذلك التاريخ •

● هوامش الفصل السابع

(١) ان اسم هذه المدينة الذائعة الصيت ، الذى يكتبه مؤلفنا كامبالو (بدلا من كانبالو ، حيث تحل النون محل الميم فى آخر أحد المقاطع ، فى الايطالية القديمة ، فضلا عن طريقة الهجاء البرتغالية) ، يكتبه العرب والفرس خان باليك وخان باليغ ، ومعناها فى احدى لهجات بلاد التتار « مدينة الخان أو العاهل » وليست هذه اللاحقة الاضافية بالنادرة ، لأننا نجدها فى كاباليغ وبشن باليغ ، وهما مدينتان بالتركستان ، وفى أوردو باليغ ، أحد أسماء مدينة قراقورم ، وفى موباليغ ، أو « مدينة الخراب » وهو اسم أطلق على مدينة باميان ، بأرض بلخ ، بمناسبة تدميرها على يد جنجيزخان •

وفيما يتعلق بالموقع الخاص الذى تحتله المدينة ، فانه يقال عنه على لسان راموسنيو انه : « Sopra ungran fiume » ولكن الوارد فى النص اللاتينى « Juxta magnum fluvium » وهو أمر يسمح بمدى أرحب • وينبغى أن يكون المفهوم من هذا النهر هو بى هو ، وهو نهر صالح للملاحة للسفن المحملة حتى مدينة تونج تشيو على مبعدة اثنى عشر ميلا من العاصمة ، ولكنه يبدو فى الجزء الأعلى من مجراه كأنما يضيق أكثر • ومع ذلك فمعرفتنا بالمنطقة المحيطة ببكين معروفة قاصرة الى أقصى حد ، وكذلك لا تتفق الخرائط المختلفة فيما يتعلق بعدد أو مجرى الجداول ، التى تبدو ، فى نزولها من جبال بلاد التتار المجاورة ، كأنما تتحد عند تونج تشيو أو فى أعلاها • وينبغى ان يلاحظ أن مدينة ين كنج القديمة أو خان باليج ، ربما كانت تقوم أقرب الى بى هو ببضعة أميال من موقع مدينة بكين العصرية •

(٢) لعل هذا يبدو كأنما ينطوى ضمنا على نقل العاصمة الى ضفة أخرى من نهر بى هو ، أو النهر الأكبر الوراد ذكره توا ، ولكن ربما ذهبنا الى أن الأرجح هو أن مؤلفنا لا يتحدث هنا الا عن النهر ، الذى يمر فى الوقت الحاضر بين المدينتين المسماتين بالصينية والتترية ، (وهو مجرى تمر عليه قنطرة جميلة تخدم المواصلات مهما يبلغ من تفاهة شأنه • ويميز مارتين فى Atlas Sinensis (الأطلس الصينى) الذى وضعه نهرين يسهمان فى تزويد المدينة بالماء •

(٣) ان معنى اسم تاى دو (الذى يكتب بطريقة أصح تاتو) هو « البلاط العظيم » ، وكان هو التسمية الصينية للمدينة الجديدة ، التى

واصل التتار والغربيون بوجه عام تسميتها باسم خان باليغ ، وربما خامرنا الشك فى هل كانت مدينة ين كنج ، التى هجرها قبلاى بدافع الخرافات أو السياسة تشغل موقع أختها التى تسمى الآن المدينة القديمة أو الصينية ، التى لا يفصلها عن الأخرى الا نهير صغير ، والا سور المدينة الثانية .بيد أن هناك أدلة من نوع ايجابى تشهد بأنهما شئ واحد ، وذلك لأن يونج لو مجدد بناء مدينة بكين ، بعد أن دمرتها الحروب السابقة أو كادت ، بنى داخل حدود ما كان يسمى بالمثل فى زمانه المدينة القديمة ، والتى لا يمكن أن تكون الا تلك التى أخلاها قبلاى من سكانها قبل ذلك بقرن ونصف ، (بنى)معبدين عجيبين ، وهب أولهما « للسماء » والآخر « للأرض » والمعبدان كلاهما مذكوران فى لوحات دوهالد ده ليل ، ويوجدان بالمدينة الصينية فى الوقت الحاضر ٠ وجميع أعمال هذا الملك العظيم ، وهو ثالث ملك فى الأسرة التى طردت المغول ، كما أنه كان المتربع على العرش فى أيام سفارة الشاه روخ ، بدأت فى عام ١٤٠٦ ـ تقريبا وتمت حوالى ١٤٢١ ٠

(٤) وأنا لنجد العبارة التالية فى« Mémoires concernant les Chinois » عن امتداد أسوارها بمختلف العصور « فى عهد أسرة كن (وهى الأسرة التى انتزع منها جنجيزخان الملك) وكانت عاصمة لهم أيضا ، كان محيطها خمسة وسبعين (ميلا صينيا) أى سبعة فراسخ ونصف ٠ ولم تعطها أسرة يوون ، الذين جعلوها أولا عاصمة المنطقة المحيطة بها ، ثم جعلوها العاصمة الكبرى ، الا محيطا قدره ستة فراسخ ، وأحد عشر بابا ، عندما أصلحوا خرائبها فى ١٢٧٤ ٠ وهدم مؤسس أسرة منج اثنين من هذه الأبواب يقعان جهة الجنوب بقصد تخريبه ، كما أن يونج لو الذى أعاد بناء الأسوار فى ١٤٠٩ ، لم يعطها سوى محيط قدره أربعة فراسخ ، وذلك هو مقياسها فى أيامنا هذه ، نظرا لأنها بقيت على حالها ٠ أما بالنسبة للمدينة الصينية ، فان تشن تسونج ، أحد ملوك الأسرة السابقة ، هو الذى أمر بتحويطها بسور من الثرى عام ١٥٢٤ ٠٠ ولم يتم لها الا فى عام ١٥٦٤ ، شرف الادماج فى المدينة القديمة ، فضلا عن شرف الحصول على أسوار وأبواب من الطوب » ٠ مج ٢ ص ٥٥٣ ٠

(٥) ان الشكل المربع كثير الانتشار بين مدن الصين وبلدانها ، كلما سمحت بذلك طبيعة الأرض ومسرى المياه ٠ والراجح أن الأصل فى هذا هو مبادىء فن تخطيط المعسكرات ، وأبعاد المدينة التترية الحالية هى ، فيما يروى ده ليل ، أحد عشر ميلا صينيا فى الطول الممتد من الشمال الى الجنوب ، وتسعة أميال عرضا من الشرق الى الغرب أى بمساحة مقدارها أربعون « ليا » (ميلا صينيا) أو خمسة عشر ميلا فى الاتساع كله ٠ وهو يضيف الى ذلك أنه فى زمن قبلاى كان الاتساع ستين ليا أى اثنين

وعشرين ميلا ونصف ، وهو مقدار لا يختلف اختلافا جوهريا عن المقاييس الواردة في النص• ومن ثم يبدو أنه متى جدد يونج لو بناء أسوار المدينة المدمرة ، فانه ضيق حدودها ، وهو أمر كان من الطبيعي أن يفعله •

(٦) عندما يقال ان أسوار المدينـــة كانت من الثرى (di terra) فانى أميل الى الظن أن المقصود هو الطوب المخروق « terra cotta » وذلك لأن هذا الطوب كان شائع الاستخدام عند الصينيين منذ أقدم العصور ، وكما أنه استخدم في تشييد السور العظيم • وربما كان من الصائب ملاحظة أن التسميات المميزة هنا بين المدينتين التترية والصينية لم تحدث في عهد أسرة يوون أى الأسرة المغولية ولا هى حدثت حتى يوم تم اخضاع لامبراطورية على يد أسرة تسنج أى الجنس الحل من تتار المانشو التى خلفت سرة منج أو الأسرة المالكة الصينية ، وطـردت السكان الوطنيين مما يسمى عادة باسم المدينة الجديدة أو الشمالية ، الى المدينة القديمة أو الجنوبية ، ليخلوا مكانا لأتباعهم من التتار •

(٧) هذه المزاغل أى المنفرجات بأعلى الأسوار Merli لابد أنها كانت تبنى من مواد صلبة (اما أن تكون هى الطوب الأبيض أو الحجر) ، وهو أمر يبدو كأنمـــا لايستقيم مع الافتراض بوجــود استحكام طينى أو ترابى ، ما لم تكن هناك على الأقل تكسية من المبانى• ويقول استاونتون: كانت فتحـــات الاستحكام عميقـة التسنين ولكن لم تكن به فتحـــات Embrazures منتظمة • مج ٢ ص ١١٦ •

(٨) تتضح استقامة شوارع بكين من خريطة ده ليل ، كما تؤيدها بيانات جميع من زاروا تلك المدينة •

(٩) يقول استاونتون : « توجد أمام معظم البيوت القائمة فى هذا الشارع الرئيسى ، دكاكين مطلية بالألوان ومذهبة ومزخرفة مثل دكاكين تونج تشوفو ، ولكنها ذات طراز أفخم • وكانت تمتد فوق بعضها شرفات عريضة مغطاة بالشجيرات والأزهار •• وكانت تعـــرض للبيع خـــارج الدكاكين ، فضلا عن داخلها ، أضرب عديدة من البضائع » مج٢ ص ١١٨•

(١٠) لا تزال عادة ابتنـــاء مستودعات للأسـلحة فوق البوابات موجودة حتى يومنا هذا •

(١١) يبدو أن هذا هو العدد الذى يشكل عادة حرس البوابات المهمة بتلك البلاد • يقول جون بل : « بعد أن سافرنا مسافة تقارب ستة أميال أو ثمانية ، بلغنا سور الصين الشهير • فدخلنا بوابة ضخمة ، تغلق كل ليلة ، ويقوم على حراستها دائما ألف رجل » • مج ١ ص ٣٢٦ •

(١٢) يقول دوهالد : « يوجد بكل مدينة أجراس ضخمة ، أو طبل ذات ضخامة جبارة تساعد في تحديد نوبات سهر أو عسس الليل . وكل نوبة عسس ساعتان ، تبدأ الأولى منهما حوالى الساعة الثامنة مساء . وفي أثناء ساعتي هذه النوبة الأولى من الشهر ، يدقون بين حين وآخر دقة واحدة إما على الجرس أو على الطبلة .. فاذا انتهت النوبة الأولى وابتدات النوبة الثانية ، جعلوا الدقات طوال النوبة دقتين : ثم يعودون فيدقون ثلاثا في النوبة الثالثة ، وهكذا دواليك بالنسبة لجميع الأخريات » (مج ٢ ص ٥٠) . وهذه نوبة العسس الثالثة أو نوبة منتصف الليل ، هي التي يشير اليها مؤلفنا ، عندما تدق دقة ثلاثية . ويتخذث استاونتون أيضا : « عن المبني الكبير ذى الارتفاع الشاهق ، الذي يحوى جرسا ذا حجم جبار وشكل اسطوانى اذا دق من الخارج بدقماقة (مدقة) خشبية أصدر صوتا يسمع بوضوح بكل أرجاء العاصمة » . (مج ٢ ص ١٢٢) .

(١٣) والشوارع الضيقة التي توصل الى الشوارع الكبيرة ، لها أبواب من الخشب مزودة بشعرية Lattice بحيث لا تمنع رؤية من يمشى بها .. وتتولى هيئات الحراس اغلاق الأبواب ذات الشعريات ولا يسمحون بفتحها الا نادرا ، للأشخاص المعروفين ، الذين يحملون مصباحا بأيديهم ، والذين يخرجون لسبب وجيه ، مثل استدعاء طبيب » . انظر دوهالد مج ١ ص ١١٥ .

(١٤) يلاحظ تريجولت عرضا هذه المؤسسات المعدة لاستضافة ونزول الأشخاص الوافدين من أقطار بعيدة (Hist. du Roy. de la Chine) حيث يتحدث عن « سراى الأجانب بمدينة بكين . على أنه يبدو أن تلك الفنادق توجد داخل أسوار المدينة الصينية لا في الضواحي .

(١٥) من الواضح أن هناك خطأ في هذه النقطة في نسخة راموسيو ، من حيث ان جميع المصادر العصرية الثقة في شأن العاهرات ، لا تتفق فحسب في أنهن يستبعدن من المدينة ويقصرن على الاقامة في الضواحي ، بل ان ذلك مذكور بالنص في جميع الترجمات الأخرى لمؤلفنا . يظهر أن هذا التنظيم الذى وضعته الشرطة كان معمولا به بالمثل في عهد الأسر المالكة التالية . يقول دوهالد : « هناك بغايا وومسات ببلاد الصين كما كان الشأن في سابق الأوان ، ولكن لما كان هذا النوع من الأشخاص في بعض الأحيان سببا في بعض القلاقل ، فليس مباحا لهن الاقامة في قلب المدينة : اذ يجب أن يكون مقامهن خارج أسوارها ، هذا الى أنهن لا يمكنهن أن يمتلكن بيوتا خاصة بهن ، فهن يقمن معا كمجموعة ، وكثيرا ما يعشن تحت رئاسة رجل ، يكون مسئولا عن أى اضطراب اذا حدث ، وفوق هذا فان هؤلاء النساء الماجنات لسن الا أشخاصا لا يسمح بوجودهن

الا بطريق الاغضاء عنهن كما أنهن يعتبرن مرذولات » (مج ٢ ص ٥١) ٠ ما فيما يتعلق بأعدادهن ، فى عهد الامبراطور كانج هى ، فان الارساليات الدينية لا تزودنا بأية معلومات ٠

(ونقرأ هنا فى النص اللاتينى المبكر لماركو بولو ، الذى طبعته « الجمعية الجرافية الباريسية » ما نصه :

Et istae mulieres quae fallunt pro pecunia sunt bere viginti milliai et omnes habent satisfacee, propter multam gentem quae illuc concurrit de mercator ibus et allis forensibus.

(١٦)انهم لا يسمحون لأحد بالمشى ليلا ، ويستجوبون حتى من قد يرسلهم الامبراطور فى بعض الشئون ، فاذا أدى جوابهم الى أقل شك اعتقلوا بمقر الحرس ٠٠٠ وبفضل هذا النظام الجميل ، الذى ينفذ بأقصى دقة ، يسود السلام والسكون والأمن ، أرجاء المدينة كلها » ٠ (دوهالد مج ١ ص ١١٥) ٠

(١٧) لقد لاحظنا آنفا أن كهان بوذا ، الذين يسمون باللامات ببلاد التبت ، يدعوهم العرب والفرس باكشى ، ومن المعلوم أن الامتناع عن سفك الدم ، وبخاصة عن الذبائح الدموية ، هو السمة المميزة لتلك الطائفة ، التى يقول البراهمة : ان تلاميذه يرون أن الفضيلة والدين يتوقفان عليها ٠

● هوامش الفصل الثامن

(١) كان اسم هذا الوزير العربي القوى والمنحرف ، الذى يسميه الصينيون أهاما ، وهو بلا شك أحمد ، وهو اتشمت عند مؤرخينا الأتراك.

(٢) ان المصطلح الذى استخدمه راموسيو هوبايلو Bailo وهو لقب كان يطلق بصفة خاصة على الشخص الذى كان يمثل جمهوريه البندقية بمدينة القسطنطينية لا بوصفه سفيرا (عندما تم التعيين لأول مرة) وانما كملك شريك للامبراطور اللاتينى : وليس من السهل العثور على مصطلح يعادل هذا فى لغتنا ، كما ان اللقب الصينى « كولاو Calao » لا يحمل الفكرة التى يراد اعطاؤها عن سلطاته التى لا حد لها • وربما كان العرب يسمونه حقا بالخليفة وهى كلمة معناها البديل أو الوكيل أو النائب •

(٣) لقى منيته فى ١٢٨١ ، كما أن عمله كوزير المالية لاحتفه ده جنى فى : (Hist. des Mongols de la Chine) فى ١٢٦٢ ، وهو تاريخ يتضمن فسحة من الزمن طولها تسعة عشر عاما • ولكنه ربما ظل فى العمل مدة ما قبل أن تصم ابتزازاته أموال الناس اسمه بالشنعة •

(٤) اعتقد أن هذه لم تكن امرات (قيادات) عسكرية ، وان توزيع الاختصاص المدنى بالبلاد ، كان يقوم على أسس تشابه أسس الجيش • وفى الوقت الحاضر يعد كل مواطن صينى عاشر مسئولا (بقدر ما يتعلق الأمر بالسلام العام) • عن تسعة من جيرانه • وذلك كان بالمثل المبدأ الذى تقوم عليه دوائر العشرة ودوائر المائة الادارية لدينا ببلاد الانجليز • ومن الجلى أن هؤلاء المتآمرين كانوا مدنيين ، لا جندا عسكريين •

(٥) وسيتجلى ، طبقا للمصادر الصينية ، أن فرصة غياب الامبراطور الدورية انتهزها المتآمرون بالفعل •

(٦) ليس الواقع على وجه الدقة أن الصينيين مجردون من اللحى ، على انهم شأن سكان الملايو ، لهم لحى خفيفة ، كما انهم لا يشجعون اطلاق اللحى ، الا فى حالات خاصة •

(٧) يقول البروفسور جون بل : « يبالغ المؤرخون الصينيون فى أخطاء هوبيليه (قبلاى) ، ولا يكادون يتحدثون عن فضائله • وهم يكثرون من الانحاء عليه باللائمة واتهامه بالعناد ، كما يلومونه على الخرافات

وتعازيم اللامات السحرية ، ويشكون من أنه فرط فى اغداق السلطة فى يد رجال من بلاد الغرب » • انظر Observ. Chronol. ص ٢٠١ •

(٨) لوحظت الغيرة التى يراقب بها هذا الأمير سـلوك الوزير فى عدة مرات متكررة •

(٩) لابد أن الوزير ، وهو فى طريقه من المدينة القديمة لقى هذا التحدى عند البوابة الجنوبية ، من الضابط قائد الحرس وذلك بينما أن الأمير ، لو انه وصل كما ادعوا عليه ، ما كان يدخل الا من البوابة الشمالية أو الغربية ، وهما اللتان تنفتحان فى اتجاه القصـور الريفية • واذن فينبغى أن يفهم أن كلمات الضابط انما تعبر فقط عن دهشـته من أنه لم يتلق تقريرا فوريا من الضابط المختص ، وليس على انهـا تتضمن مناقضة مباشرة لما حدث ، ويتبين مما تلا ذلك أن ذلك الضابط ومعـه اهاما تقدما على زعم أن الأمير موجود بالقصر فعلا •

(١٠) لم يفتح قبلاى عينيه على سلوك أهاما الا بعد اعدامه ، فأمر بانتباش جثـة الوزير أهاما من قبره وتمزيقهـا ودفع كل ممتلكاته للناهبين » (ص ١٧٤) والطريقة التى يذكر مؤلفنا انه تم التصرف بها فى الثروة ، تتوافق مع كل من خلق قبلاى نفسه ومع ما جرت به العادة بصورة عامة فى البلاد أكثر منها مع تسليمها ليد النهب والناهبين •

(١١) ليس من المحتمل أن تلاحظ الحوليات الصينية أوامر منع من هذا القبيل ، مما يتعلق بالأجانب فقط ، وليس لدينـا مرجع آخر عدا مؤلفنا أشار الى هذا الاذلال الذى حاق بالمسلمين • اذ حدث بعد ذلك أن كثيرا منهم كانوا يعملون فى الرتب العليا للجيش •

● هوامش الفصل التاسع

(١) لا أستطيع تعقب هذه الكلمة (ولعل تحريفا كثيرا ألم بها) فى أى معجم مغولى كما لا أجرؤ على الاعتماد على المتاهات المريبة للهجاء الصينى ، الذى يكون المرشد فيه هو الصوت وحده . (واللفظ الوارد فى النسخة اللاتينية المبكرة هو : « Quiesitani ») .

● هوامش الفصل العاشر

(١) لكن الحفلات الصينية العصرية لا تظهر فيها النساء مهما تكن طبقتهن ، على أنه حدث أثناء حكم قبلاى أن امتزجت العادات التترية بالصينية فى البلاط الامبراطورى ، وطبقا لهذه العادات كان الاناث يعتبرن أعضاء أكفاء فى المجتمع • وحتى فى أيامنا هذه ، تتمتع النساء التتريات (اللائى يتميزن بوصفهن كذلك ، وأن انحدرن من عائلات استقرت بالصين عدة أجيال) بدرجة من الحرية لا شك أن النساء الصينيات محرومات منها •. وحدث لعهد الأسرة المالكة التى خلفت فى الملك أسرة يوون أى الأسرة المغولية ، أن نساء الطبقة الراقية كن يشاهدن الحفلات بأعينهن ، وان لم يظهرن للعيان •

(٢) يبدو أن سياسة البلاط الصينى كانت على الدوام أن يرجىء استقبال السفراء وهداياهم حتى يحين موعد بعض الحفلات العامة ، وبذلك يتحقق هدف مزدوج ، اضفاء أبهة اضافية على مظهر اليوم ، والتمكن فى الوقت نفسه من طبع تأثير قوى فى نفوس الأجانب بفخامة الاحتفال المرافق لتقديم أوراق اعتمادهم • على أنه يمكن بالمثل أن نلاحظ فى البيانات المتعلقة بجميع السفارات الأوروبية ، أن تقديمهم للامبراطور كان يصحبه تقديم مبعوثى أو مندوبى الدول المجاورة أو التابعة •

(٣) ان عصير العنب وان كان يعتصر ببعض أجزاء الصين ، فان ما يسمى عادة باسم النبيذ الصينى انما هو شراب مخمر مصنوع من الحبوب • يقول جون بل : « حتى اذا انتهت هذه المحادثة قدم الامبراطور للسفير بيده قدحا ذهبيا مملوءا بالتاراسون الدافىء (وهى كلمة كتبت ديراسون Dirasoun فى يوميات سفارة الشاه رخ) • وهو شراب حلو مخمر ، مصنوع من أنواع مختلفة من الحبوب ، وهو على نفس نقاء وقوة نبيذ جزر الكنارى ، وله رائحة منفرة وان لم يكن طعمه غير مستساغ » • (مج ٢ ص ٨) • ويقول استاونتون : « وفى أثناء الوليمة أرسل اليهم (أى الى الانجليز) أطباقا عديدة من مائدته الخاصة، حتى اذا فرغوا من طعامهم أرسل اليهم وقدم اليهم بيديه كأسا من النبيذ الصينى الدافىء ، لا يختلف عن خمر ماديرا وان كان أقل منه جودة » • (مج ٢ ص ٢٣٧) • ويقول بالاس ان التاراسون يمكن تشبيهه بخليط من البراندى والجعة الانجليزية • انظر : (Reise, dritter Theil) ص ١٣١ • ويقول دوهالد :

« انه لا يدعهم يشربون كثيرا من النبيذ ، وهم يصنعونه من نوع خاص من الأرز ، يختلف عن النوع الذى يغتذون به » . (مج ٢ ص ١١٨) .

(٤) ان كون اللبن هو المشروب المحبب لدى التتار أمر معروف مشهور ، ولما كان البلاط والجيش يتألفان فى تلك المدة التى نحن بصددها من أبناء تلك الأمة بصورة كاملة تقريبا ، لم يعد ينبغى لنا أن ندهش ، اذا وجدناه يقدم فى حفل يقام بعاصمة الصين . أما فيما يتعلق باحتمال وجود لبن النوق هناك فان استاوتون يلاحظ استخدام الجمال أو الهجن بأعداد كبيرة جدا ، لنقل البضائع ، فى أجزاء بلاد التتار المتاخمه للولايات الشمالية من تلك البلاد ، كما أن دوهالد يعدد « الجمال ذات السنامين » بين الحيوانات الصينية .

(٥) ثم يعود فيستخدم لفظة Vernigua اسما للاناء . على أنى أشتبه فى وجود شىء من اللبس . فان معنى Venicato d'oro من Vernice (أى البرنيقى وهو الورنيش) هو المذهب أو المطلى بالذهب ، ويبدو أن لفظة Verniqua ذات ارتباط بهذا المعنى . وفضلا عن ذلك فان من الواضح أن الأوعية ، القادرة على احتواء الشراب اللازم لثمانية أو عشرة أفراد ، تكون ، لو صنعت من الذهب الخالص ، مفرطة الثقل بحيث يصعب استخدامها .

(٦) ان الموائد بالولائم الصينية صغيرة كما انها معدة عادة لشخصين فقط .

(٧) ليس من المستغرب أن أسرة جنجيزخان يكون لها بعد انتهابها ثروات شطر عظيم من العالم ، ــ قدر من المعادن النفيسة هائل حقا بالنسبة لما يجرى تداوله فى أوربا أو آسيا ، قبل استكشاف مناجم المكسيك وبيرو . وكثيرا ما ورد ذكر الكؤوس أو الأقداح الذهبية ، ويتحدث بل عن أطباق كبيرة من خالص الذهب ، أرسلها الامبراطور الى الغرف التى نزلوا بها .

(٨) ينبغى لنا ، بصدد درجة الحضارة التى تدلنا عليها ضمنا هذه الرعايات الموجهة للضيوف ، أن نسلم بفضل الأعراف المستقرة الثابتة من زمن طويل بين الشعب المقهور ، لا أن ننسبها الى أية تنظيمات أدخلتها الأسرة المتربعة آنذاك على العرش . ويتفق جميع رحالينا الأوربيين فى وصفهم للنظام والسداد المرعيين فى هذه الحفلات ، حيث يسود سكون يكاد يقارب الرهبة .

(٩) لاحظ وجود هذه الخرافة بين التتار كل من بلان ده كاربان وروبروكس .

(١٠) ان هذا هو أحد أمثلة مالا حصر له من السذاجات أو البساطة الأمينة فى روايات مؤلفنا وملحوظاته • فالسكر الشديد كان الرذيلة الأثيرة عند التتار ، وفى تلك الفترة لم يكن تم اصلاحها الا جزئيا تأثرا بالأسرة الصينية الأكثر اتزانا وبعدا عن الخمر •

(١١) تصحب الموسيقى دائما هذه الحفلات • ويقول جون بل : « كانت الموسيقى تعزف طوال وقت المأدبة والآلات الرئيسية هى الناى والقيثار والعود (الفلوت والهارب واللوت) ، وكلهـــا قد ضبطت وفق الذوق الصينى » • مج ٢ ص ١٢٠ •

(١٢) ان هذه العروض المسرحية والرياضية والحوائية ، التى كانت ولاتزال تماثل كثيرا بعضها بعضا ، وصفت وصفا تفصيليـا فى بيانات البعثات العديدة التى أوفدت الى بكين ، ابتداء من بعثة الشاه رخ ، فى بداية القرن الخامس عشر ، الى سفارات الانجليز والهولنديين فى النصف المتأخر من القرن الثامن عشر •

◎ هوامش الفصل الحادى عشر

(١) طبقا لما ورد فى « Hist. Gén. de la Chine » (ص ٢٨٢) ، فان قبلاى أو هوبلاى (كما ينطق الصينيون الاسم) ، ولد فى القمر الثامن من السنة المقابلة لسنة ١٢١٦ ، وهو أمر يتجاوب على نحو معقول . كما سيتجلى فى هامشة تالية تتعلق بموعد ابتداء السنة الكاثائية ، مع شهر سبتمبر ، كما ذكر ذلك مؤلفنا ٠

(٢) مع أن اللون الأصفر ظل أمدا طويلا هو اللون الامبراطورى ببلاد الصين ، فانه يقـــال انه لم يكن كذلك فى جميع الفترات ، حيث ارتدت بعض الأسر المالكة القديمة اللون الأحمر وغيره من الألوان ٠ وربما جاز لنا أن نتصور أن التعلق بهذا اللون جاء من أنه هو اللون الذى يلبسه طائفة اللامات المتسلطة ببلاد التبت ، التى كان أباطرة الصين يستمسكون بحماسة بخرافاتها ، وان جاز أيضا أن طائفة اللامات هذه لعلها هى التى تبنت اللون الامبراطورى ٠ وينسب بعض الناس الى قبلاى (وفى الواقع أنه كذلك) ، انه هو مؤسس هيئة كهانة اللامات ، على الأساس الحالى ، كما يقال انه هو الذى عين أول دالاى لاما ٠ على أن آخرين يظنون ان لقبى دالاى وبانتشان لاما لم يمنحا قبل عهد هيوون تيه ، خامس أباطرة أسرة منج ٠ ويبدو أن كلا من الأسرتين ، كانت شـــديدة الحـرص والدأب فى تشجيعها لهؤلاء الكهان ، الذين تمكنوا بفضل نفوذهم من حكم الولايات الغربية بسهولة أكثر ٠

(٣) وكل من له شـأن ، يقول الأب جروســـييه رئيس الدير : « لا يخرج الى الشـــوارع قط بغير حذاء ، وهو فى العـــادة مصنوع من الساتان » ٠ ويرد ذكر هذا الملبوس للمرة الثانية فى الفصل ٢٦ ٠

(٤) يبدو أن هذه الكلمة لفظة ايطاليـة دخيلة ، وهى اسـم فاعل اشتق من فعل : « Quiescere » ، وربما أمكن أن تدل على الأشخاص الذين يستخدمون ، بكل أرجـــاء الشرق ، للقيـام بطرق شتى بتهدئة أنفس الشخصيات الكبيرة ٠

(٥) ويعلق ده جنى الأصغر قائلا ان التقويم العادى يقسم السنة الى شهور قمرية » ٠ انظر : Voy. à Péking مج٢ ص ـ ٤١٨ ٠

(٦) ليست هذه الوحدة فى ثياب البلاط متبعة فى الأزمنة الحديثه ، بل على العكس من ذلك ، فان اللون الامبراطورى مقصور على أسرة العاهل .

(٧) من هنا يمكن أن يستنتج أن جميع الامارات الاقطاعية والحكومات الوظائف العامة ، كانت تمنح لمن يحضرون أثمن الهدايا ، أو بعبارة أخرى كانت تباع لأعلى مزايد . ويبدو أن ما كان على هذا العاهل من نفقات لا حدود لها ، من ناحية ، وما كان يعير به من ميل الى الجشع الشديد ، قد تولد عنها نظام عام من الانتهاب ونزعة الى سلب الأهالى . على أن من المحتمل أن وصفه بالجشع ربما لم يستنتج الا من الابتزاز .

● هوامش الفصل الثانى عشر

(١) يقدم مؤلفنا بهذا البيان أشد مالا سبيل الى دحضه من البراهين على موثوقيته وصدقه • وينبغى أن يلحظ القارىء أنه فى اشارته الى أن السنة تحسب بدايتها من شهر فبراير (del mese di Fibraio) يحدد تلك البداية فى أى يوم محدد فى تقويمنا ، وهو أمر لم يكن ليستطيع أن يفعله فى الواقع مع الصحة ، ومع أن راموسيو فى عنوان الفصل يذكر اليوم الاول من الشهر ، كما أن الترجمة اللاتينية تتضمن نفس الشىء بما نصه : « in die calendarum Februarii » فان الوضع مختلف فى الخلاصات الايطالية ، كما أن النصين تؤيدهما الظروف الواقعية • اذ ينبئنا كتاب « Epochae celebriories » تأليف أولوغ بك (ابن الشاه رخ) ، الذى ترجمه العلامة جريفز ، أن السنة الشمسية عند الكاثائيين والايجوريين تبدأ فى ذلك اليوم الذى تبلغ فيه الشمس منتصف برج الدلو ، وهذا شىء نجد فى تقويمنا الفلكى أنه يتراوح بين الثالث والخامس من فبراير ، حسب العام الكبيسى لدينا أما فيما يتعلق بسنتهم المدنية ولابد أنها هى التى يتحدث عنها مؤلفنا ، فانا نعثر على بيان واف عنها فى : « Voyage de la Chine » تأليف البروفسور تريجولت ، الذى صنفه من كتابات الوجيه ماتيورتشى الذى يقول : « عند كل عام جديد ، يبدأ عند ظهور الهلال ، الذى يسبق أو يعقب عن قريب اليوم الخامس من فبراير ، الذى يحسب فيه الصينيون بداية الربيع ، يرسل من كل ولاية سفير ليزور الملك زيارة رسمية » • ص ٦٠ : وهو أمر ينبغى أن نفهم منه أنه الهلال الذى يقع أقرب ما يكون (قبل أو بعد) من وقت بلوغ الشمس منتصف برج الدلو ، ومن هنا لا يمكن تحديد أى يوم للعيد فى أى يوم معين من التقويم الأوربى •

(٢) ان خرافة اعتبار اللون الأبيض ، الذى هو بالطبيعة رمز النقاء ، ذا تأثير فى جلب الحظ السعيد ، خرافة واسعة الانتشار بكل أرجاء العالم ، وذلك على عكس الأسود ، الذى أصبح ، لارتباطه بعدم النقاء والظلام والقبر ، يعتبر نذير الحظ السيىء • وصار طابع الحزن • على أن الصينيين الذين تتناقض عاداتهم فى كثير من الأوجه مع عادات غيرهم من الشعوب ، رأوا من الصواب جعل اللون الأبيض بدلا من الأسود لونا لثياب حدادهم • ولكن قبلاى ، وان اقتبس معظم النظم المدنية لرعاياه الجدد والأكثر تحضرا ، لم يقدم ، ولعله لم يقدر حتى لو شاء ذلك ــ على ارغام

شعبه وبنى جلدته على تغيير خرافاتهم القديمة • وتبعا لذلك يبدو أنه فى أثناء حكمه على الأقل ، وربما طالما احتفظت أسرته بالعرش ، كان يحتفل بالسنة الجديدة فى ثياب بيضاء ، وكانت الخيول البيضاء من أشد الهدايا قبولا لدى الامبراطور • وعندما خلفت أسرة منج ، وهى صينية قحة ، أسرة المغول ، حرم للمرة الثانية استخدام البياض فى تلك المناسبة •

(٣) ويلاحظ بارو : « أن اليوم الأول من السنة الجديدة ، مع بضعة أيام بعده ، هى العطلات الوحيدة ، على وجه الدقة ، التى تتخذها الفئة العاملة فى المجتمع ، ففى تلك الأيام يعتبر أفقر فلاح أن من الأساسيات الحصول على ثياب جديدة لنفسه ولأسرته ، وهم يقومون بزيارة أصدقائهم وأقاربهم ، ويتبادلون التحيات والمجاملات ويقدمون الهدايا ويتلقونها ويقيم موظفو الحكومة وأصحاب الرتب العليا ، الولائم وحفلات السمر » • (انظر : Trav. in China ص ١٥٥) • يقول الاب جروسييه رئيس الدير : « انهم يفضون وقتهم كله فى اللهو والتسليات والولائم • وتقفل الدكاكين فى كل مكان ، ويذهب جميع الناس ، متزينين بأفخم ثيابهم ، لزيارة والديهم وأصدقائهم • وليس ثمة شىء أقرب من هذا مشابهة بزياراتنا فى اليوم الأول من السنة الجديدة » • مج ٢ ص ٣٢٣ •

(٤) يفصل استراهلنبرج تفصيلا شديدا فى وصف الفكرات الخرافية المنتشرة بين شعوب بلاد التتار حول خصائص هذا العدد ، وعن كتابه الشهير ، نقلنا الفقرة التالية التى ستجدون فيها الكفاية وفوق الكفاية فى تبرير ما ذهب اليه مؤلفنا • يقول ذلك الرحالة القوى الملاحظة والمجد فى بحثه : « وبناء على هذا سأتحول الى قص ما شهدته أنا بنفسى فى هذه الأصقاع الشمالية الشرقية ، فضلا عما لاحظته عند غيرى من الكتاب ، الذين عالجوا شئون هذا الجزء من العالم ، خاصا بهذا الموضوع • وبصفة خاصة فيما يتعلق بالرقم تسعة وهو الشىء الذى مازال موجودا بين سكان هذه الأصقاع • ويخبرنا « تاريخ الخان الأعظم » تأليف المسيو بتيه ده لاكرواه ص ٧٩ ، أنه عند انتخب تيموجين خانا أعظم وسمى جنجيز خان ، جثا الناس جميعا على ركبهم له تسع مرات ، اعرابا عن تمنيهم له دواما رغيدا لملكه : ولا تزال هذه العادة مرعية مع أباطرة الصين التتريين ، الذين يرغم السفراء عند مثولهم بين يديهم بتقديم انحناءات احتراماتهم جاثين « تسع مرات » عند الدخول ، وتسعا أخرى مثلها عند الانصراف • ولا يزال نفس التقليد مستخدما عند تتار الأوزبك ، وذلك أنه عندما يكون لفرد شىء ذو أهمية يلتمسه من الخان ويتعامل فى شأنه معه ، فانه لا ينبغى له فحسب أن يقدم هدية مؤلفة من تسعة أشياء

أو تحفا معينة ، ولكنه عندما يقترب منه لتقديمها يجب عليـــه الانحناء تسع مرات ، وهو تقليد (أو مرســـم) يسميه التتار باســـم المثول الزاغاطائي » • المقدمة ص ٨٦ •

(٥) لما كان قبلاى أخضع آفا وولايات جنوبية أخرى ، مما يوجـــد فيها الفيلة بأعداد كبيرة ، وهنا اعترضت جيوشه في المعارك ، فان من الطبيعي أن يجنح الى ضم هذه الحيوانات القوية الى دولته ، ان لم يكن من أجل أغراض عسكرية ، فعلى الأقل من أجل الاستعراض في المواكب ، أو لتكون دواب حمـــل ، ومن ثم سلمت اليـــه الأفيال جزية من الأمراء المهزومين • ولا تزال الأسرة المتربعة على العرش اليوم تحتفظ بقليل منها ، ولكن يبدو أن ذلك من أجل الأبهة الرسمية ••

(٦) أسلفنا اليك أن الجمال والهجن ، وبخاصة ما له ســـنامان شائعة ببلاد الصين •

(٧) ليس عند الصينيين ولا التتار نبلاء وراثيون ، ويستخدم هذا الاصطلاح هنا وفي أماكن أخرى من الكتاب ، لعدم وجود ما هو افضل منه ، للتعبير عن تلك الطبقة أو المرتبة من الأشخاص الذين يتولون المناصب الكبرى في الدولة ويسمون ببلاد فارس والهندوستان بالأمراء • وينبغي أن يكون القارىء على بينة تامة من أنه جرت العادة في غضون الاختلاط الحديث بين الأوربيين وبين الصين ، بأن يسمى بالماندرين بدون تمييز جميع الموظفين من جميع الدرجات والوظائف المدنية والعسكرية ، ابتداء ممن يديرون الشئون العليا للامبراطورية ، الى من يوضعون في زوارق لمنع التهريب (أو التغاضي عنه :) ، على أني لا أستخدم هذا اللقب ، وان كان في الأغلب مريحا في الترجمة ، وليس سبب ذلك فقط هو غموض تطبيقه ، ولكن لأنه ، نظرا لأنه لم يكن معروفا في أيام مؤلفنا ، فالحق أن ادخاله في نصوصه يعد ضربا من الخلط التاريخي •

(٨) نظرا لدواع كثيرة لا تتعلق بالأمن السياسي فحسب ولكن تتعلق بسرعة ويسر تحصيل « فرضة الرؤوس » وغيرها من الضرائب ، كان الناس يحصون ويقسمون الى فئات ، على معيار عشري متدرج ، من عشرة الى عشرة آلاف ، يرأس كل فئة منهم ضابط (أو منوط) مسئول ، ولما كان ايراد الأرض يجمع عينا ، كان الامبراطور يعين ضباطا ، أي موظفين ، لا يختلفون عن زمندارية Zemindars (أعني ملتزمي ضرائب) الحـــكم المغولي ببلاد الهند ، وذلك بقصد مراقبة المحاصيل ونقلها الى مخازن الحبوب الملكية قرب بكين •

(٩) كان لقب فانج Vang الصيني ، الذي هو عنـــد البرتغاليين ريجولو Regula ، وعند الجزويت الفرنسيين نائب ملك Roitelet وملك Roi ، ينعم به عادة على الأمراء التابعين بكل أرجاء بلاد التتار •

(١٠) يبدو أن مصطلح « المطران Prelato » ، الذى لا يوجـــد شيء مقابله فى النسخ الأخـرى ، أورده راموســـيو بلا مسوغ • ونص الكلمات فى نسخة بال : Surgit unus in medio وفى الخلاصات الايطالية « else Leva uno huomoin mezo » والكلمات في أحسن نص ايطالى ، وهو الذى نشره بونى : « Sileva un grande paralto » .

(١) يقول ده جنى الأصغر : « ان رئيس التشريفات ، الذى هو أحد المندرين العظام فى « لى بو Ly-pou » ، أى محكمة الشعائر يصيح بصوت مرتفع ونفاذ وقد وقف قرب بوابة أو من Ou-men : « انتظموا ! • استديروا ! •• اركعوا على ركبكم ! •• اضربوا رؤوسكم بالأرض ! •• واضربوها ثانية ! •• اضربوها من جديد ! •• انهضوا ! •• ثم يركعون ثانية على ركبهم ، ثم يعودون فيبدءون التحية من جديد مرتين ، وهكذا يتألف الاجلال من القيام ثلاث مرات بثلاث تحيات • وبعد التحية الأخيرة يصيح المندرين : « انهضوا ! • •استديروا ! •• انتظموا ! •• » ، ثم يجثو هو نفسه على ركبتيه أمام الباب ويقول : « مولاى ، انتهى الاحتفال» • (انظر Voy. à Péking الخ •• مج٣ ص ٤٤) • يجد القارىء بيانا يتفق تماما فى مادته مع الوارد أعلاه ، ولكنه أكثر تفصيلا فى كتاب Nouv. Relat تأليف البروفسور ماجالهانز ص ٣٠٤ • يقول جون بل : « أعاد رئيس التشريفات السفير ، ثم أمر جميع الحضور بالركوع وتقـــديم انحناءات الاحترام للامبراطور تسع مرات • وكنا عند كل انحناءة ثالثة ننهض على قدمينا ثم نركع ثانية • وبذلت جهود عظيمة لتجنب هذا الجزء من مراسم الاجلال ولكن بغير طائل • وكان رئيس التشريفات يقف على جنب ويصدر أوامره باللغة التترية ، بنطق كلمتى مورجو وبوس Morgo and Boss ومعنى الأولى الانحناء والثانية الوقوف • وهما كلمتان « لن يمكننى أن أنساهما سريعا » مج٢ ص ٧) • وتتفق جميع طبعات عمل مؤلفنا فى الاشـــارة الى أن هذا المرسم كرر أربع مرات • بينما من المعلوم جيدا أن التكرارات انما هى ثلاثة وتسعة • فاما أن تكون ذاكرته خانته واما ، وهو الأرجح أن النساخ ربما أخطأوا فى أرقام مخطوطة قديمة •

(١٢) يظهر أن موسم عمليات السجود أمام العرش الخاوى أو أمام لوحة خط عليها اسم الامبراطور يحدث فى الاحتفال بعيد ميلاده ، لا فى الاحتفال بالعام الجديد •

(١٣) كثيرا ما يرد ذكر الأسود (التى لا تعيش فى الصين ولا فى بلاد التتار الصينية) حيث ترســـل على ســـبيل الهدية من الاقيـال الغربيين •

• هوامش الفصل الثالث عشر

(١) كثيرا ما قام الرحالة بوصف طريقة الصيد هذه باحاطة الصيد داخل حدود شديدة الاتساع ، ثم تضييقها تدريجيا .

● هوامش الفصل الرابع عشر

(١) سبق أن لاحظنا أن مغول الهندوستان يحتفظون بفهود صغيرة ، لكي تستخدم في الصيد · ويبـدو مع ذلك أن أكبر الحيوانات من هذه الفصيلة كانت تؤنس أيضا من أجل رياضة الامبراطور · وتوصف الأولى بأنها تحمل على ظهور الخيل ، وراء حراسها ، فأما الأخرى فتحمل داخل أقفاص على نوع من العربات · ويسميها قوم آخرون من الكتاب الايطاليين القدماء باسم « أسود الصيد المؤنسة » « Leonze domestice cacciare » . واضح من هذا الوصف ، ومن السياق العام بأكمله ، أن الحيوان الذى يحدثوننا عنه هنا بأنه الأسـد ، ليس فى الواقع الا الببر Tiger وكان ينبغى أن يسمى بهذا الاسم ، ولكن سواء أنسبت الغلطة الى مؤلفنا ذاته ، ولعله نسى بعض مصطلحات لغته القومية ، أم الى مترجميه الأوائل ، فذلك أمر ليس لدينا وسيلة لاصدار الحكم فيه · ومعلوم أن الأسد ذو لون أسمر مصفر ، ومتسق تقريبا ، بينما الببر يتميز بالألوان المذكورة أعلاه ، لولا أنه ينبغى لنا أن نتبدل بالأحمر اللون الأصفر المحمر · وليس من المستبعد أن الخلط بين هذه التسميات ، ربما نجم عن اختلاط مؤلفنا بالفرس وغيرهم من المسلمين ، أثناء رحلته من الصين الى أوربا ، اذ أن من المعلوم جيدا لعلماء الدراسات الشرقية ، أن هذه الشعوب تطلق هذه الأسماء بغير تمييز تقريبا على هذين النوعين من الحيوان كليهما ·

◎ هوامش الفصل الخامس عشر

(١) ربما كان هذا الرجل هو الشخص الذى يحمل نفس الاسم والذى ميز نفسه ببالغ الجدارة والكفاية قائدا عاما لجيوش قبلاى ، والذى ورد ذكره فى فصل تال فاتحا للصين الجنوبية • وكتب أسماء الأخوين فى الخلاصات الايطالية المبكرة باكصام وميتيجام •

(٢) ان ما لدينا من معاجم اللغة المغولية من بالغ النقص ، بحيث انه حتى لو كانت الكلمات الواردة فى النص صحيحة الكتابة لم يمسها تحريف ، فلربما فشلنا فى محاولاتنا التعرف على حقيقتها ، ولكن لما كانت الكلمات محرفة على ما نعلم بواسطة النسخ والنساخين ، صارت المحاولة عبثا • فالكلمة التى تـرد فى ترجمة راموسيو سيفيس Civici (أو تشيفتشى Chivichi طبقا لهجائنا) تكتب فى الخلاصات الايطالية المنسوخة فى ١٤٩٦ سيفترى Civitri وفى أقدم نسخة لاتينية سينيسى Cynici ، كما ترد فى مخطوطى المتحف البريطانى ومتحف برلين كانيسى Canici ومن هذه الكلمة الأخيرة • يصح لنا أن نظن ـ اذا لم يحرف الهجاء خيال النساخ ـ أن الكلمة مشتقة من كلمة كانى Cane الايطالية ومعناها كلب • (والكلمة فى النسخة اللاتينية التى أصدرتها الجمعية الجغرافية الفرنسية ، وردت سينوتشى Cinuchi) .

(٣) ليس من الشائع ورود أى ذكر لكلاب الصيد عند الصينيين أو التتار الصينيين ، ولكن وجودها يزودنا عنه بل Bell ببرهان مباشر ، حيث يقول : « بعد تقديم هذه التسلية ، حملنا الاليجادا (Colao) على رؤية كلابه أولا ، وكان لديه منها أضرب كثيرة جدا • وقد لاحظت من قبل أن هذا السيد الوجيه رياضى عظيم • وكان الحديث عن كلاب الصيد أمتع لديه كثيرا من حديث السياسة ، وان أوتى فى نفس الحين طباع وزير كفء عظيم الاقتدار ورجل أمين نزيه » •• مج ٢ ص ٢٢ •

● هوامش الفصل السادس عشر

(١) ان التركيب البسيط الذى وردت عليه الكلمات فى نسخة راموسيو ونصه :

« indi partendosi il mese di Marzo, va verso Greco al mare oceano, il quale da li à di scocta per due giorante ».

فيدل ضمنا على انه تقدم من العاصمة الى المحيط ، الذى كان يبعد عنها مسيرة يومين ، على انه اما أن يكون معنى المؤلف أسىء فهمه ، عندما قصد أن يقول ان الطريق كان يمتد الى اقليم يقع على مسيرة يومين من المحيط ، أو أنه لابد أن تكون هناك غلطة جسيمة فى عدد الأيام ، التى كان ينبغى أن تقرأ « شهورا » ، وذلك لأن السياق بأكمله يدل على أنه انما يتحدث عن احدى مسيرات الامبراطور البعيدة من خلال اقليم المانشنو ، الى مجاهل بلاد التتار الشرقية ولم يكن يتحدث بأية حال عن رحلة صغيرة الى شاطىء البحر الأصفر ، الذى لا يبعد عن بكين سوى بضع مراحل .

(٢) النهر الذى يدور الحديث عنه هنا قد يكون اما نهر سونجارى ، الذى كان آخر حد لحملة كانج هى ، واما أن يكون هو النيوسورى ، الأمر الذى أميل الى ترجيحه ، نظرا لأنه أشد الأنهار توغلا فى الشرق ، فهو من ثم بالنسبة الى المحيط أقرب الأنهار الكبرى التى تصب فى ساجالين يولا ، وتسهم فى تكوين نهر عامور الذى هو الحد الفاصل بين الأراضى الروسية والصينية بتلك المناطق .

(٣) لم أستطع ارجاع هذه الكلمة الى أية لغة معروفة ، وذلك لأنها تتخذ فى النسخ المختلفة أشكالا منها : توسكاؤل وردسكانور وروسشاؤر وروستاؤر ، كما أنها وردت تاستورى فى الخلاصة الايطالية المبكرة . وترجمت فى نسخة بال « كاستودس » ، وترجمت عند راموسيو :

« huomini che stanno alla custodia ».

(٤) كذلك أيضا ذهبت جميع المحاولات للتحقق بواسطة علم دراسة أصول الكلمات (الاتيمولوجيا) من الهجاء الحقيقى لهذه الكلمة ، أدراج الرياح . وقد وردت فى النسخ المختلفة هكذا : ــ بولانجازى وبالانجوجى وبولادجوسى ، وبوجتامى وبوجريم . وربما أمكن افتراض أن الهجاءين الأولين أقرب الى الصحة أو يكادان ، وذلك لأن جميع الأسماء التى تدل على الوظائف فى لغة الكالموك المغولية ، تنتهى بالمقطع ازتشى izchi وذلك

وفق كتابة استراهلنبرج الألمانية ، التى هى معادلة لمقطعى Zi و Ci الايطاليين . وانشاء مثل هذه الوظيفة يعد فخرا لشرطة معسكر تترى .

(٥) لابد أن مؤلفنا ، الذى يبدو من هذه العبارة وكثير غيرها من العبارات الواردة فى صلب عمله ، انه كان مولعا ولعا حارا برياضة العراء، زكى نفسه كثيرا وحظى برضاء مولاه بسبب هذا التجانس فى الذوق .

(٦) لا يبدو ان أحدا من أباطرة الصين المحدثين استخدم هذه الحيوانات الضخمة فى انتقاله وحمله شخصيا . يقول بل : « انه » ، (يعنى الامبراطور كانج هى) ، « كان يجلس متربعا ، فى جهاز مكشوف ، يحمله أربعة رجال ، على أعمدة طويلة مستقرة على أكتافهم . وقد وضعت أمامه بندقية خفيفة للطيور ، وقوس وكنانة من سهام . وظل هذا هو عتاده فى الصيد أمد عدة سنوات ، منذ أن أقلع عن ركوب الخيل ، ولكنه كان فى شبابه يذهب عادة كل صيف ، فيخرج خارج السور الطويل فى رحلة أيام عديدة ، وكان يحمل معه كل الأمراء أبناءه وكثيرا من ذوى المكانة البارزة من الناس ، فى أعداد تبلغ أحيانا كثيرة بضعة آلاف عدا ، لكى يصيد فى الغابات والصحارى ، حيث كان يظل أمدا طويلا يمتد الى شهرين أو ثلاثة » . انظر Tavels مج٢ ص ٧٦ .

(٧) أعنى جلود الببر أو الفهود ، التى معلوم أن جلودها شائعة الاستخدام فى تكسية المقاعد ، وفى أغراض أخرى مماثلة ، عند ذوى المكانة من وجهاء الصين ، وذلك لأن الحيوان نفسه يكثر وجوده ببلاد التتار ، كما أنه موضوع الرياضة الملكية ، وذلك على حين يتفق جميع الرحلة على توكيد أن الأسد ليس من حيوان تلك المنطقة . انظر ص ١٩٤ هـ أ .

(٨) فى هذا الاسم ، كاكزارمودين ، (الذى يكتب فى المخطوط اللاتينى فى المتحف البريطانى والخلاصة الايطالية المبكرة كاتشيا موردين)، بعض المشابهة باسم تشاكيرى موندو ، الذى يقع حسب خريطة الجزويت، عند منبع نهر بوسورى (الذى يصب مياهه فى نهر عامور) ، وفى منتصف المسافة تقريبا بين بحيرة ضخمة تقع بين الجبال والبحر . (الاسم فى النص اللاتينى للجمعية الجغرافية الفرنسية كاكشيا تريودم وفى نسخة بونى الايطالية تاركارمودو) .

(٩) يبدو أن الخيالة Cavalieri ، المذكورة هنا هى الطبقة العسكرية التى يصفها فان برام تحت اسم تشيوؤايس Chiauais ، وبخاصة من كان منهم فى المرتبة الثالثة . ويقوم جند تشياؤو Chiaoux فى البلاط التركى أو العثمانى بواجبات تماثل واجبات الحجاب Huissiers بفرنسا .

(١٠) قد يبدو هذا العدد ضخما ، ولكنه ليس الا حشدا مكونا من مائة رجل مصطفين طوليا فى مثلها مصطفين عرضـــيا ويمكنهم أيضـــا بتضييقهم صفهم الأمامى (جبهتهم الأمامية) الاصطفاف تحت ظلة طولها خمسون ياردة فى مائتين عمقا • وجرت العادة بأن تحسب جيوش التتار والفرس بالطومانات ، أى بفرق عشرة الآلاف • اذ يسجل لنا التاريخ عن تيمورلنك أنه اعتاد تقدير قوة جيشه ، لا بعدد الأفراد ، وانما بكمية الرجال الذين يستطيعون الوقوف داخل مساحة معلومة ، يحتلها الجند بالتعاقب، حتى يتم احصاء الجميع •

(١١) يولع أهل الصين الشمالية شغفا بالفراء وينفقون فيها الأموال الطائلة ، فان أول جلود القندس البحرى التى اجتلبت من الشاطئ الشمالى الغربى لأمريكا ، اشتريت بأثمان فاحشة ، وان لم تبلغ مقدار المبلغ المذكور فى النص • والمظنون أن البيزنطى كان معادلا للسكوين الايطالى ، والدوقاتى البندقى والدينار العربى ، أو ما يقارب تسعة شلنات انجليزية •

(١٢) لم يمكن الوصول الى كلمة رونذز (ولعلها كلمة محرفة) فى معجم استراهلنبرج ولا غيره من المعاجم المغولية ، ولكن من الواضح أن معناها هو السمور • وقد ورد ذكر هذا الحيوان بتفصيل أدق فى الكتاب الثالث الفصل الرابع والأربعين (والوارد فى النســـخة الايطاليـــة المبكرة هو ليرويد ، وفى اللاتينية لينويد أى بلوناى Lenoidae pellonae) .

(١٣) أسلفنـــا اليك أنه لا قيـــود على نساء التتار ، بـــل انهن على العكس ، يقال عنهن انهن فى مخيماتهن هن المتجرات الرئيســيات فى الماشية وغيرها من السلع •

(١٤) يعد هذا والحق يقال جمعا خارقا استثنائيا بالنسبة لحملة صيد ، ولكن كانج هى اعتاد فى مناسبات مماثلة أن يكون فى حاشيته بعض المبشرين الأوروبيين الذين كان من بينهم الفلكيون والرياضـــيون ، وكان يسلى نفسه بأن يرصد معهم تكبد النجوم (تأوجها) وأن يقيس بواسطة جهاز الربع ارتفاع الجبال والمبانى بل حتى ارتفاع التمثال الهائل للوثن فو • وربما دار بخلدنا مع هذا ، فان فلكيى قوبلاى لم يكونوا الا منجمين أو شامانيين (Shamans) .

(١٥) أما وقد كانت الأعياد الكاثاتية ، تنتظم شـــأن أعيادنا ، وفق الأهلة والبدور قبل أو بعد بلوغ الشمس نقاطا معينة من السماء ، فليس عجيبا أن تبدو تحركات الامبراطور كأنما ينظمها تقويمنا • جرت العادة فى المذكرات اليومية لبلان ده كاربان وروبروكس ، بتدوين جميع أحداث رحلاتهما وفق الأعياد والأصوام وأعياد القديسين من واقع دليل الصلوات لديهما ، بدلا من أيام الشهر •

هوامش الفصل السابع عشر

(١) يقول دوهالد : « من المحظور عند الصينيين دفن موتاهم داخل نطاق المدينة ، والمدن التى يسكنها الناس » مج ٢ ص ١٢٥ ٠

(٢) العادة المرعية عند الصينيين هى دفن الموتى الا احراقهم ، ولكن الحال بخلاف ذلك عند التتار ما تمسكوا بعاداتهم الأصلية ٠

(٣) ان كميات الحرير الهائلة التى تنتج ببلاد الصين شىء مشهور ٠

● هوامش الفصل الثامن عشر

(١) لعل هذه هى المرة الوحيدة التى يتخلى فيها مؤلفنا عن الوقار العام لأسلوبه ، ويتنازل بأن يكون صاحب نكتة وملحة • وهذه النقطة ليست فى النسخ المبكرة •

(٢) تختلف بيانات الرحالة عن النبات والمواد الأخرى التى يصنع منها الورق ببلاد الصين ، اختلافا بينا ، كمـــا أنه يبدو أن المواد التى تستخدم تختلف باختلاف الولايات وأشيع تلك البيانات وأقلها احتمالا فى الحين نفسه ، هو أن الورق يصنع من اللحـــاء اللين الداخلى لأعواد الخيزران (arundo bambos) ، ولكن دوهالد ينبؤنا ، أن الورق لا يصنع من اللحاء ، بل من مادة الخيزران نفسها • وينقل دوهالد عن كتـــاب صينى ، يروى ان امبراطورا قديما معينا أمر فصنع له ورق ممتاز من القنب • وأنه يصنع فى ولاية فوكيان من الخيزران اللين ، وأنه فى ولايات الشمال ، يستخدمون فى صنعه لحاء التوت » • ص ٢٤٠ •

(٣) ان الجروسو أو الجروس (بمعنى الغـرش أو القـرش) هو الدراخما أو الدرهم ، وهو يعادل ثمن أوقية من الفضة وينبغى أن تعادل هذه العملة ان كانت وافية الوزن ، ما يقارب ثمانية بنسات انجليزية • والتورتيزى الصغير (picciolo tornese) هو الدنيير ، أو عشر درهم من الفضة ، فهو من ثم معادل لأربعة أخماس البنس الانجليزى • ولما كان الأول ــ (الجروسو) هو التسيين tsien أو ماس mas ، فان الثانى (الدنيير) هو الفن (fen) أو الكندورين ، فى حسابات الصينيين وعلى أساس المبدأ نفسه ، يشكل عشرة جورسات أو تسيين قيمة اللنج leang أو التائيل tael الذى تقدر قيمته بستة شلنات وثمانيـــة بنســات ربما كان من الضرورى ملاحظة أن المبشرين الفرنسيين يطلقون اسم دنيير على العملة الصينية الصغيرة المصنوعة من المعدن الخسيس ، التى يسميها البرتغاليون كاكسا Caxa ويسميها الانجليز كاش cash ، وتعادل ألف منها تائيلا واحدا • ويعادل البيزنطى ، وهو عملة ذهبية لامبراطورية الروم الشرقية ، كما لاحظنا سابقا ، السكوين البندقى •

(٤) يقول ده جنى الابن : « ان المادة التى تســـتخدم فى الطبع بالأختام ، تتركب من اللون الأحمـر ، المخلوط بالزيت ، وهم يحفظونه

فى وعاء من الخزف مخصص لذلك الغرض ، ومغطى بعناية خشـــية أن يجف » • انظر : Voy. à Péking, etc. مج ٢ ص ٢٣٠ •

(٥) تقول الكتابة المخطوطة على العملة الورقية التى أصدرتها أسرة منج : « كل من زور سوف تقطع رأسه » • انظر دوهالد ، مج ٢ ص ١٦٨، لوحـــة •

(٦) وفى اعتقاد البروفسور جوبـل ، أن النقود الورقيـــة كانت مستخدمة فعلا فى بكين ، فى عهد الخان الأعظم أو غاداى ، الذى لم يزد هو نفسه عن أن قلد ما كانت تمارسه الأسرة التى سبقت فى العرش أسرة يوون أو أسرة جنجيزخان • وهذا العام (١٢٣٤) هو الذى صنعت فيه النقود الورقيـــة • وتسمى أوراق النقد تشــــاؤ • ويمهر خـاتم « يوتشن سنو » أى وزير الخزانة العام للولاية ، فى أسفل • ويوجد منها أوراق من جميع القيم • وقد تدوولت هذه النقود فصـــلا فى عهد أمراء أسرة كين » • (انظر .Observ. Chronol ص ١٩٢) • وينبئنا دوهالد أنه جرت محاولة أخرى لاصدار هذه العملة من أول أمير من الأسرة التى خلفت المنغال (المغول) ، وقد نقل الينا صورة للأوراق النقدية ، عن نماذج وعينات كانت لا تزال محفوظة لدى الصينيين بعناية خرافيـــة ، بوصفها آثاراً لملك خلصهم من نير أجنبى • ولكنه عندما يضيف : « وقد استعملت مع قدر ضئيل من النجاح فى عهد أسرة يوون » ، يمكن الشك فيما يؤكده • وذلك لأن نجاح اجراءات قبلاى المالية ، وهى على ما هى عليه من الجور ، ما كانت لتدون بغير تحيز عدائى فى الســـــجلات الصينية ، لو ورد ذكرها اطلاقا • وســـيتجلى بالاحـالة الى الهامشة ٤ ص ١٦ ، أن حاكما مغوليا لفارس ، هو حفيد أخى قبلاى ، قام بمحاولة لادخـال نظام العملة الورقية فى دولته ، فى نفس الفترة التى أقامت فيها بيدطه أسرة بولو ، أثناء عودتها من بلاد الصين ، وأنه ، عندما شبت ثورة خلعته عن عرشه ، كان هذا الاجراء أحد التهم الجنائية الموجهة اليه • وسيجد القارىء فى Hist. of Persia تأليف مالكولم (مج ١ ص ٤٣٠) ، حقائق عجيبة كثيرة وملحوظات حكيمة تتصـــل بهذا الموضوع ، وكلها تنزع بقوة لتأكيد ما أدلى به مؤلفنا من بيانات ، وفيها يتجلى بما لا يدع مجالا للشك ، من واقع أقوال المؤرخين الوطنيين ، أن وزيرا من قبل امبراطور الصين والتتار وصل الى بلاط فارس قرابة تلك الفترة ، وأنه استشـــير حول العملة الورقية •

(٧) يعد اصدار العملات الورقية فى معظم الدول الملجأ الذى تلجأ اليه خزانة مرهقة ، ولكن يبدو أن خطة قبلاى لم تكن بقاصرة على احلال الورق محل الدفع نقدا فى الانفاقات العـامة ، بل لقد سارت أشواطا

بعيدة ، اذ حاولت ، بواسطة عملة مفروضة قهرا ، سحب كل ما فى البلاد من نقد مسكوك وسبائك ذهبية وفضية الى خزانة دولته ، وذلك لأنه ، وان لم يعبر عن ذلك صراحة ، ليس بمستبعد أن التجارة التى كان يحتكرها على الصورة السـابق وصفها ، والتى تدفع أثمانهـا بأوراقه المالية ، كانت يتصرف فيها على يديه فى مقابل الذهب والفضة • ولا تنس أن الملك فى سيام وأقطار أخرى كثيرة غيرها فى الشرق الأقصى ، هو التاجر الرئيسى بأرض دولته ، وما يستطيع فرد شراء حمل بضاعة ، حتى يمارس مندوب جلالته حق الأولوية فى الشراء •

(٨) يظهر أن مؤلفنا يعد هذه غرامة الثلاثة فى المائة مقابل تجديد العملات المستهلكة ، شيئا لا يخرج عن المعقول ، وأنه يفسر مجموع عملية الابتزاز بأكملها بهدوء تام ، بأنهـا آية على السياسة الممتازة والبراعة العظيمة لمولاه • ويبدو أن أسرة منج كانت أقل جشعا فكانت لا تتطلب الا اثنين فى المائة فقط • وقد حدث أن جوسافات باربارو ، عندما كان فى آزوف ببلاد القرم ، حوالى عام ١٤٥٠ ، أبلغه تترى ذكى كان يقوم بسفارة الى كاتابو أى الصين أنه : « فى ذلك المكان تستعمل العملة الورقية التى تستبدل كل سنة بأوراق بنكنوت جديدة ، والعملة القديمة تؤخذ ، ويعطى الى من يستبدلهـا نفس القيمة بعملة جديدة وجميلة ــ على أن يدفع ما قيمته اثنان فى المائة عملة فضية ــ ثم تعدم بعد ذلك أوراق البنكنوت القديمة » •

« in quel luogo si spende moneta di carta, laquale ogni anno è mutata con nuova stampa et la moneta vecchia in capo dell'anno si porta alla zecca.

انظر : ص ٤٤ ، ١٢ •

(٩) لما تجنح اليه هذه الخطة فى تدبير المالية من حرمان صناعات الذهب والفضة من المواد اللازمة لحرفتها ، وهى المعادن التى كانت تمتصها من السوق تلك الدوامة ، صار لزاما وضع التماس علاج لمثل هذه المضايقة البالغة الخطورة ، ومن ثم فان الخزانة كانت تبعا لذلك تزود السـوق بطلباتها منها •

● هوامش الفصل التاسع عشر

(١) من الواضح أن ثاى هى تاى (رقم ١١٢١) من قاموس دى جنى للكلمات الصينية وهو يترجمها بعبارة « الهيئة العليا » « eminns, altus » يدل المصطلح الصينى العادى لهذه المحكمة على وظائفها العسكرية ، ولكن الاسم الوارد بالنص قيل قصدا للاشارة الى مكانتها العليا كمحكمة ، وهو المعنى الذى تدل عليه مباشرة كلمة ثاى أو تاى ٠

(٢) يظهر أن هذه المحكمة العليا للادارة المدنية للامبراطورية وجدت فى عهد قبلاى لأغراض اثنين من تلك المحاكم الستة التى تشكل الآن الحكومة الرسمية ٠ « ووظيفة المحكمة الأولى من هاتين المحكمتين الملكيتين ، التى تسمى ليج بو « Lij pou » وهى تزويد جميع ولايات الامبراطورية بالماندرين ، والسهر على سلوكهم ، وفحص صفاتهم الجيدة أو السيئة ، وتقديم بيان عنها الى الامبراطور ، الخ » : والمحكمة الملكية الثانية ، المسماة هو بو houpou أى وزير الخزانة الأعظم للملك ، تقوم بالاشراف على المالية ، والعناية بالممتلكات الحكومية ، وخزائن المال ، والمصروفات ، وايرادات الامبراطور ، الخ ٠ ولمساعدتها فى هذه التفاصيل الهائلة ، توجد بها أربع عشرة محكمة فرعية ، اختصت بشئون الولايات الأربع عشرة التى تتألف منها الامبراطورية ، وذلك لأنه نظمها لكون ولاية بى تشيه لى هى ولاية المحكمة ، فانها تباشر أشياء كثيرة من حقوق وامتيازات البلاط والبيت الامبراطورى » (دوهالد مج ٢ ص ٢٣) ٠ وبالاضافة الى هذه الولايات الخمس عشرة للامبراطورية الحديثة (أو الست عشرة باضافة جزيرة هاينان) ، كانت تحت حكم قبلاى أيضا جميع الممالك التى تملكتها أسرته قبل فتحها للصين ٠ وبهذا المعنى يتحدث مؤلفنا عن أربع وثلاثين ولاية باعتبارها تقع فى دائرة اختصاص هذه المحكمة ٠

(٣) المصطلحات الصينية التى تبدو للاسماع كانما هى متقابلة فى الصوت مع لفظة سنغ Singh ، ولها فى الحين نفسه دلالة ومغزى مناسب للمقام ، هى سنج Sing (رقم ٢٩٣٨ من القاموس) وهى تترجم « Advertere, cognoscere » أى يعلن ويصدر الحكم ، ولفظة سنج Sing (٦٦٠٦) التى تترجم « examinare, considerare » أى الفحص والتأمل ، وكلتاهما ، ان جاز القول باختلافهما فى المعنى ، يمكن تطبيقهما تماما

على طبيعة العمل فى محكمة عليا للعدل ، وذلك ربمـــا بشكل أقوى من انطباقهـا على لفظـــة تسنج tsing (٣٩٤٧) أى الوضع والبريق « Claritas, Splend or » أو لفظة tsing (٧٦٦٨) ، أى الاستقامة والطيبة والكمال « Rectum, bonum, perfectum » فأما أنه كان ينبغى لهـا ان تتلقى تسميتها ، تبعا للعبارة الواردة فى نسخة راموسيو ، من واقع كونها الثانية بالنسبة لأية محكمة أخرى ، فليس أمرا محتملا فى حد ذاته . ولا يبرره أى تماثل صوتى .

(٤) وعلى عكس ذلك ، فان الأسبقية تعطى فى الزمن الحاضر ، للدوائر المدنية ، ومن ثم فان ترتيب البنج بو Ping Pû أى المحكمة العسكرية . ليس الا فى المرتبة الرابعة من المحاكم العليا الست . أما أنه كان ينبغى أن تكون الحال غير هذا فى حكم عاهل يحكم امبراطورية الصـــين بحد السيف ، وينبغى فى تقديره أن تكون دائرة الجيش فوق كل ماعداها فهو الوضع الذى قد يتوقع .

● هوامش الفصل العشرين

(١) كلمة يامب هذه التي وردت في نسخة راموسيو لامب Lamb نجدها يانلي Janli في نسـخة بال ويانبي في اللاتينية الأقدم ويامب (Yamb iamb) في مخطوطة المتحف البريطاني ، وهي تفسر فيها بمصطلح mansiones equorum أي دار الخيل · ومن الواضح اذن أن اسـتعمال حرف اللام الايطالي « l » بدلا من حرف « i » خطأ في النسخ ، ويمكننا استنتاج أن الكلمة هي اللفظة الفارسية « يام » « Yam iâmgi » يترجمها منسكي : جملة لاتينية « Stationarius, veredus sen veredarius equus » ولكن يوميات سفارة الشاه رخ Rokh تجعلها تدل على معنى الخان أو دار البريد (وهو أمر يتوافق واستخدام مؤلفنا لهـا) ، وليس خيول البريد · ويلاحظ (منسكي Meninski) أن الكلمة تمت الى اللهجة المتحدث بها باقليم خوارزم ، وهي دولة كانت عند فتح جنجيزخان لها من أشد أقطار آسيا تحضرا ، ومن أكثرها احتمالا بأن تكون بها مؤسسات من هذا القبيل · ويسمى الصينيون دور بريدهم تشـان ، ويقال ان البعد بين احداها والأخرى كان خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلا · وتعني لفظتا مرحلة ومنزل الفارسيتان بدرجة متساوية كلمتي مرحلة (العربية) أو مكان التوقف ، بعد مسيرة يوم (وهو ما يقـارب ثلاثين ميـلا) · وكانت استاثيو ، مانسيو ، عند اليونان تعني نفس هذا النوع من المحطات ·

(٢) المقصود بكلمة « الملوك » هنا هو الأقيال أي أصحاب المرتبة التي يسميها الصينيون فانج Vang ويسميها البرتغاليون Regulo أي مليك وهي مصغر ملك ، بضم الميم وفتح اللام · ويمكن تشبيههم بأمراء الامبراطورية الجرمانية أو جاوات الهندوس في عهد الحكم المغولي ·

(٣) قد يبدو هذا العدد من الخيول المقيم في كل محطة أو عند نهاية رحلة عادية لكل يوم ، بعيد الاحتمال ، لدى مـن يكونون أحكامهـم عن المؤسسات القديمة للامبراطورية الصينية قياسا على الأوصاف الحديثة ، ولكن هذا القول يبرره سند تلك اليوميات نفسها التي ما أكثر ما قامت بالقاء الضوء على علاقات مؤلفنـا ، وان كتبت اليوميـات بعـد زمانه بما يناهز قرنا ونصفا ·

(٤) ينبغي أن نفهم أن المقصود من لفظـة السفراء ، في التاريخ الصيني والبيانات التي تدور حـول الصـين ، ليس فقط ممثلي الأمراء

الأجانب ، الذين نقصر ذلك المصطلح عليهم وحدهم فى هذه الأيام ، بل ينسحب أيضا على كل « مقطع » صغير بالامبراطورية ، أو مندوب لذلك المقطع ، يمم شطر البلاط متشحا بطابع عمومى • واعتـــاد أفراد الطبقة الأولى ، أن يأخذوا معهم فى ظل حمايتهم ، كجزء من اتباعهم ، مجاميع ضخمة من التجار ، تسنح لهم بهذه الوسيلة فرصة ادخال بضائعهم الى البلاد ، بطريقة منافية للقواعد المتبعة ، ولكنها كما هو واضح تمر بتغاضى حكام مدن الحدود ، بل حتى باغضاء من البلاط نفسه • وهو أمر اعترف به سفراء الشاه رخ ، كما وصفه بوجه خاص بندكت جويز ، الذى سافر هو نفسه بصفة تاجر •

(٥) يتجلى فى هذا المكان تضارب فى الأعداد ، ليس من الســـهل التوفيق بينها معه ، فانه لو كان الكاتب يقصد بقوله عشرة آلاف مبنى بيوتا للبريد بهذا العدد ، فان المجموع الكلى للخيول لا يكون مائتى ألف ، بل أربعة ملايين • واذن فمن المحتمل أنه ينبغى أن يلغى صفر من الرقم الأول وأنه بدلا من قولك عشرة آلاف ينبغى أن تقرأ ألف دار بريد فقط ، وهو وضع يجعل الغلطة داخل حدود الاعتدال أو لعل المقصود به أن يتضمن المحطات المعدة على مسافات قصيرة متقاربة من أجـــل الســـعاة الماشين على أقدامهم •

(٦) البيانات الحديثة لتعدد الزوجات و التسرى بين الصينيين ، تؤدى بنا الى الاعتقاد بأن ذلك لم يكن شـيئا شائعـا فى الطبقات الدنيا من المجتمع •

(٧) على أن نسبة انتاج الأرز فى سومطرة بالمرتفعات تقدر بثمانين وبالمنخفضات بمائة وعشرين لكل حبة • وفى رأيى أن هذه الزيادة ، وهى غير المتناسبة الى حد بالغ مع ما هو معـروف فى أوربا ، ترجع بالأكثر الى الاقتصاد فى الحبوب فى طريقة البذار لا الى أية خصـــوبة متفوقة فى التربة ــ (انظر Hist. of Sumatra الطبعة الثالثة ــ ص ٧٧ • وانظر أيضا : Voy. à Péking, etc. تاليف ده جنى الابن) • مج ٣ ص ٣٣٢ •

(٨) يقول بل Bell : « مررنا فى الطريق بأبراج صغيرة كثيرة ، تسمى دور البريد ، قد بنيت على مسافات معينة أحدها من الآخـــر •• ويحرس هذه الأماكن عدد قليل من الجند ، يجرون على أقدامهم سعيا من دار الى دار ، بسرعة عظيمة حاملين خطابات أو رسائل تخص الامبراطور• والمسافة بين دار بريد وأخرى هى فى المعتاد خمسة ليات صينية أى أميال• وفى تقديرى أن خمسة من أميالهم تقارب ميلين ونصـــفا انجليزية » • مج ١ ص ٣٤٠ •

(٩) الظاهر نقلا عما رواه ده جني ان اســـتخدام الأجراس لهذا الغرض ، أصبح الآن مقصــــورا على الرسل من راكبي الخيل . (مج ٢. ص ٢٢٣) . ومع هذا فان من المحتمل أن لسعاة القدم الراجلين وسيلة أخرى مماثلة للاعلام عن اقترابهم .

(١٠) يستطيع رجل نشيط الجسم أن يجرى بغاية اليسر ثلاثة أميال بسرعة ثمانية أميال في الساعة وتبعا لذلك ، يمكن أن يتم قطع مسافة طولها مائة واثنان وتسعون ميلا على يد سعاة متعاقبين في مدى أربع وعشرين ساعة ، أو ما يقارب اربعمائة ميل في يومين وليلتين . ولكن لو فهم من قوله (الطريقة العادية ، عشر مراحل كل منها ثلاثون ، يكون من الضرورى عندئذ أن تقطع ثلاثمائة ميل في ذلك الزمن ، وهذا معناه أن السرعة هي ستة أميال في الساعة .

(١١) ليس من السهل أن نفهم من المقصود بعبارة أن هذه المؤسسة لم تكن تكلفه أية نفقات . فان كانت تخصم من قيمة الضرائب التي كان على السكان دفعها بطريقة أخرى ، فانها في خاتمة المطاف تقع على عاتق دخل العامل . ولا شك أن الموضوع كله أبعد ما يكون عن الوضوح ، على أن المعنى المرجح هو أن نفقتها لم تكن ـ خاتمة المطاف ـ واجبة على الأفراد الذين كانوا يقومون بالعمل .

(١٢) (ورد ببعض المخطوطات الأخــرى أن المسافة خمسة وثلاثون ميـــلا) .

● هوامش الفصل الحادى والعشرين

(١) يقول استاونتون : « فى مثل هذه الأوقات (العجاف) يأمر امبراطور الصين بفتح مخازن الحبوب ، ويرفع الخراج عمن مستهم المصائب ، ويمنحهم المساعدات ليقيل عثرتهم وعسرتهم » (مج ٢ ص ٨٩) • ويقول بارو : « ليس بالصين فلاحون كبار يختزنون الحبوب ليلقوا بها فى السوق أيام ندرتها • ففى مثل تلك الحالات لا ملجأ للناس الا الحكومة التى تروح تفتح مخازنها ، وترد للناس ذلك النصيب من محصولهم الذى طالبتهم به ثمنا لحمايتها لهم » • ولم يفت رحالة آخرون ملاحظة هذه الظروف نفسها •

(٢) تحفل مراسيم الأباطرة الصينيين ، حتى الأباطرة الذين كان يحجبهم خصيانهم والمقربون منهم ، تماما عن العلم بأحوال امبراطوريتهم ، بالعواطف التى تعبر عن أرق دروب الانشغال والقلق البين على رفاهية شعبهم الذى يسمونه فى المراسيم أبناءهم • والغالب أن تصرفات قبلاى لم يكن بها أى أثر لتصنع حب الناس والانسانية ، ولكن يمكن أن يشتم من طبعه العام أن الدافع الذى كان يحرك فيه نوازع الاحسان نحو رعاياه الصينيين ـ الذين كان يتجلى فيه على الدوام الارتياب فى ولائهم هو رعاية مصلحته الخاصة •

(٣) لم يردنا برهان مباشر على وجود هذه الخرافة ببلاد الصين • أما أن البرق والرعد كانا ينظر اليهما برعب خارق لا حد له ، فهو واضح من الصور المخيفة التى تمثل الاله المعبود الذى يحكم فى العلا ، والذى يظن أنه هو المحرك لآلة الغضب الالهى هذه •

● هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) يقول دوهالد : « هناك ولايات بعينها تكون فيها الطرق الكبرى أشبه بكثير من الممرات العريضـــة ، المحفوفة بالأشـــجار الباسقة » . (مج ٢ ص ٥٢) . ويصف ده جنى الطرق الكبرى للولايات التى مر منها ، بأنها على الجملة مزروعة بالأشجار . (مج ٢ ص . ص ، ٢١٥ ، ٢١٦) ، ينبغى أن يكون مفهوما أن الخطوات التى يقدر بها مؤلفنا المسافات الفاصلة بين الأشجار ، انما هى الخطوات الهندسية أو الرومانية التى طولهـا خمسة أقدام ، وحتى على هذا المعيار فان المسافة تكون صغيرة جدا . وليس ببعيد أنه قد يكون فى هذه الحالة ، وكذا فى أجزاء أخرى من العمل ، يعبر عن نفسه بمقاييس البلاد ، التى تترجـم بالمصطلح الايطالى الذى لا يتقابل واياها .. بدقة ، أو ربما دخل على الفقرة شىء من التحريف . والكلمات التفسيرية الموجودة بين أقواس أضيفت أثناء الترجمة .

● هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) لا شك أن هذا البيان التفصيلى عن استخدام الصينيين لفحم المناجم أو الفحم الأحفورى ، فى وقت كان العلم بخواصه ضئيلا جدا بأوربا، يستحق أن يعتبر تسجيلا ممتعا لهذه الحقيقة ، كما أنه يعد أيضا برهانا على ما يتمتع به مؤلفنا من صدق وأصالة ـ يقول دوهالد : « تكثر مقادير مناجم الفحم الحجرى كثرة هائلة بالولايات ، بحيث انه لا توجد مملكة واحدة بالعالم يوجد بها بمثل هذه الوفرة البالغة • وهو يوجد بمقادير غير محدودة فى الجبال بولايات شن سى وشـان سى وبيه تشى لى : وهم يستخدمونه فى جميع أفران الصناع وفى جميع مطابخ البيوت وفى جميع أفران التدفئة السفلية لغرف المنازل (والحمامات) ، التى يشعلونها أثناء الشـتاء كله • وبغير هذه المعونة والنجدة ، لم يكن هذا الشعب مستطيعا العيش الا بالكد بمثل هذه الأقاليم البالغة البرودة ، التى تندر بها أخشاب التدفئة ، فهى من ثم فادحـة الثمن (مج ١ • ص ٢٩) • ويقول اسـتاونتون : « تشبع المواقد بالمبانى الكبيرة • وهى تغذى من الخارج بالفحم الأحفورى (أى الحجـرى) ، الموجود بوفـرة بالمناطق المجاورة » • مج ٢ ص ٣٣٨ •

● هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١) ان صناعة الأقمشة الصوفية ببلاد الصين فى الوقت الحاضر طفيفة جدا ، ولكن لعلها تأثرت ، على انصرام عدة قرون بالاستيراد من أوربا ، الذى نعلم جميعا أنه زاد زيادة مطردة • فأما عن وجود تلك الصناعات فى القرن السابع عشر فان لنا فيه سند المبشرين •

(٢) يترجم بوشاس كلمة اسكوديل Scudelle بكلمة « كراون » (écus) (وهى عملة فرنسية) ، ويعتقد أن حبوبا تبلغ قيمتها عشرين ألفا من تلك العملة كانت توزع يوميا ، ولكن المعاجم تنبئنا أن الاسكود الايطالية هى الايكول écuelle الفرنسية ، وأنها قدر أو قصعة وهذا المعنى أبسط المعنيين وأقربهما الى الطبيعى • (وبدلا من هذا ، فان النصوص اللاتينية المبكرة والفرنسية ، التى نشرتها الجمعية الجغرافية الفرنسية تقول ببساطة ان ثلاثين ألفا من الناس كانوا يطعمون هكذا داخل القصر ، كما أن نسخة بونى الايطالية تجعل عدد الأفراد ثلاثمئة ألف) •

(٣) يقول ستاونتون : « انه ليبدو فى عين رعاياه كأنما يكاد يقوم مقام « العناية » الربانية فى العطف عليهم » مج ٢ ص ٩٠ •

● هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) ينبغي لنا تعليلا لهذا العدد الخارق من المنجمين ، أن نفترض أن الكهنة بجميع أنواعهم ونعوتهم كانوا يحذقون فن الخفايا (أو ما وراء الطبيعة) ٠

(٢) حدث فيما بعد ذلك من أزمان أن أصبح نشر التقويم الصينى من شئون الحكومة وحدها ، ولا يجوز نشر أى تقويم الا بتصديق امبراطور ، حيث أصبحت النواحى الفلكية حسابا يقوم به الأوربيون ، وفى حين يخترع الصينيون النواحى التنجيمية ٠

(٣) يبدو أن منجمى بكين لم يكونوا مبرئين من تهمة اللجوء أحيانا الى استخدام وسائل شائنة لجعل الأحداث تتوافق مع تنبؤاتهم ، وهو الوضع الذى تذكر يوميات سفراء الشاه رخ حالة فريدة منه ٠ فهم يلاحظون : « كان منجمو خاتاى تنبأوا بأنه فى تلك السنة ستدمر النيران قصر الامبراطور ، وكانت تلك النبوءة موضوع هذا الحدث اللافت للنظر وبعد أن اجتمع الأمراء (المندرين) ، أقام لهم الامبراطور حفلا وأولم لهم وليمة » ٠ وبعد ذلك بثلاثة أشهر نجد الفقرة التالية : « وفى الليلة التالية ، وبأمر مقدر من الله ، اشتعلت النار بالقصر الجديد للامبراطور ، بغير أن يخلو الأمر من الشبهة فى التدليس والخيانة من جانب المنجمين وكانت النتيجة أن أحرق عن آخره الجناح الرئيسى الذى طوله ثمانون ذراعا وعرضه ثلاثون » ٠

(٤) يقول ده جنى الأب : « لدى التتار أيضا دورة من اثنى عشر عاما ٠ واستمدت أسماء كل عام من اسم حيوان مختلف ، وهكذا قد يقول المرء سنة الفأر ، أو العجل الخ ٠٠ تعبيرا عن السنة الأولى والثانية ، وفى نهاية السنوات الاثنتى عشرة ، يعودون الى العد من البداية بنفس الطريقة ٠ واستخدم الصينيون هذه الدورة أحيانا » ٠ (انظر Hist. des Huns مج ١ ص ٤٧) ٠ تختلف أسماء السنين بعض الاختلاف ، على ما وردت عند مختلف الكتاب ، ولكنها على حسب أحدث المصادر الثقة تجىء على الترتيب التالى : « الفأر ، والثور والببر والأرنب والتنين والثعبان والحصان والشاة والقرد والديك والكلب والخنزير ، ومن هنا يظهر ان بيان مؤلفنا عن الدورة ليس معيبا ناقصا فحسب ، ولكنه خاطىء أيضا ، ان كان وضع الأسماء حقا على الترتيب الوارد بالنص ٠ والمقصود من

الأسد (كما أوضحنا من قبل هـ (١) ص 194 هو الببر ، على أن هذا الحيوان ، بدل أن يكون أول المجموعة ، انما هو الثالث فقط ، وينبغي أن يجيء بعد الثـــور بدل أن يسبقه ، كما أنه لا التنين ولا الكلب بمنتسب لهاتين السنتين العدديتين اللتين حددتا لهما . غير أن ما أورده كاف تماما لاعطاء القارىء معرفة عامة بالتقويم التترى ، والراجح أن ما كتبه أو أملاه بلغ هذه الغاية ، وهي أن كل سنة من السنوات الاثنتي عشرة كانت تحمل اسم حيوان ، كالأسد والكلب والثور .. الخ الخ . بغير قصـــــد الى تزويدنا بقائمة مضبوطة .

● هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) الواقع ان عادة تقديم العبادة الى لوحة منقوشة بدلا من صورة المعبود أو تمثاله ، عادة كاثائية لا تترية ، ولكنها ربما اقتبسها الشعب التترى مع غيرها من الممارسات الصيفية الأخرى ، ولا سيما الامبراطور . والكلمات المنقوشة هي ، تيين أى السـماء وهوانج تيين أى ـ السماء العلى ، وشانج تى أى الرب الأعلى .

(٢) ان عبارة Sbatterei denti تترجم حرفيا صرير الأسنان أو صكها بعضها فى بعض ، ولكن من الواضح إن هذا أسوأ فهم لما قصد به التعبير عن السجود ودق الأرض بالجبهة ومعلوم أن مرات السجود أمام عرش الامبراطور أو لوحته تسع مرات : ثلاثة فى ثلاثة .

(٣) يتحدث استاونتون عن عبادة زوجة فو وطفله فى البوتالا أى معبد جيهول : Zhehol ببلاد التتار ، (مج ٢ ص ٢٥٨) .

(٤) ان ذلك هو مذهب التناسخ الهندوكى ، الذى أدخل الى الصين مع ديانة بوذا الانشقاقية (كما تنبؤنا حوليات تلك البلاد) حوالى عام ٦٥م. على أنه لم يتمكن (بحسب ما يقوله ده جنى الأكبر) من احراز أى تقدم ضخم ، حتى عام ٣٣٥ م عندما وضعه الامبراطور الحاكم آنذاك تحت رعايتـه .

(٥) تبعث أرواح الرجال طبقا للاعتقاد الهندوكى الى الحياة ثانية فى أجساد جديدة « حتى تزول كل خطـايـاهم بتجددات الميلاد المتكررة ، ويصلون درجـة من الكمال تؤهلهم لبـلوغ ما يسمى « موكتى Mukti » ، أى الخلاص الأبدى ، وهو شيء يفهم به الخلاص من التناسخ مستقبلا ، وامتصاص فى طبيعة الله الأعظم » انظر ولكنز فى : « Notes to Bhagvat Gita » ص ١٤٠ .

(٦) واضح أن مؤلفنا يتحدث هنـا عن الكاثائيين وليس عن التتار الفظاظ .

(٧) يقول ده جنى : « اذا اتهم ولد والده أو والدته ، ولو بحق ، فانه يعاقب بالنفى » . مج ٣ ص ١١٧ .

(٨) كثيرا ما تلفت الأنظار الى التمييز فى درجة العقوبة بين تنفيذ الاعدام فى مجرم سريعا بعد صدور الحكم عليه ، أو عند انتهاء المدة المقررة ، فى كتاب « Lettres édifiantes الآداب الموجبة للعبرة » ·

(٩) لاحظ بل ملاحظة خاصة هذا السكون التام المطلق ببلاط بكين حيث يقول : « وبينما نحن نتقدم وجدنا جميع وزراء الدولة ، وضباط البلاط وموظفيه ، جالسين على نمارق من فراء ، مربعى الأرجل ، أمام القاعة في الهواء الطلق، وقد حددت بين هؤلاء أماكن للسفير وحاشيته، فظللنا على تلك الحال حتى وصل الامبراطور الى القاعة · وفى أثناء تلك الفترة ·· لم تسمع أدنى نأمة (الصوت الضعيف الخفى) من أية ناحية »· (مج ٢ ص ٥) · ثم يعود فيلاحظ التالى : « وكانت القاعة ممتلئة تقريبا عند تلك اللحظة ، على أنه أدهشنى أنه لم تحدث أدنى ضجة ولا عجلة ولا ارتباك ·· وباختصار ، فصفة بلاط بكين المميزة هى النظام والاحتشام ، لا العظمة والفخامة » ص ٩ ·

(١٠) يشيع هذا النوع من الوعاء بأجزاء كثير من الهند الشرقية ، ويسمى هناك عادة ، باسم المبصقة Cuspidor نقلا عن البرتغالية · وربما جاز أن يستخلص من هذا أن عادة حمل تلك العلبة شاعت بسبب مضغ مادة من قبيل نبات التنبول ·

(١١) لسنا نجد في الأوصاف المحدثة للأثاث الصينى ورود أى ذكر للبسط والسجاجيد ، التى يبدو أن الحصر حلت محلها ، ولكن ذلك لا يستتبع ان استخدامها بطل أيضا بقصور قبلاى ، الذى كانت أسرته هى غازية فارس وغيرها من أقطار آسيا ، التى بلغت الذروة فى كمال صنع هذه السلعة الترفية · ومع ذلك فان دوهالد فى وصفه للمدينة القصبة حاضرة ولاية شان سى يقول : « تصنع منسوجات أخرى مختلفة بهذه المدينة ، كما كان الشأن قديما ، وهم يصنعون فيها بوجه خاص أبسطه على الشاكلة التركية ، فيها شىء من الاتساع ، حسب الطلب » مج ١ ص ٢٠٤ ·

● هوامش الفصل السابع والعشرين

(١) وردت هاتان الكلمتان فى خلاصة ١٤٩٦ وطبعات البندقيــة التالية هكذا : Mesix أى عشرة أشهر بدلا من Dieci miglia اى عشرة أميال ، والمعنى الأخير وهو منطقى ومستقيم تتفق فيه طبعة بال مع طبعة راموسيو • وكذلك مدة رحلة مؤلفنا ، فانها تمط أيضا من أربعة أشهر الى أربعة عشر ، حيث تولدت الغلطة الثانية عن الأولى كما هو واضح •

(٢) ان هذا النهر ، الذى يكتب اســـمه بصـــور متعـــددة هى : Pulsanchimz أو Pulisachniz أو Pulisangium أو Pulisangan أو Paluisangauis يبدو من الظروف هنا أنه نهر هوين هو الوارد ذكره بخريطة الجزويت وهو الذى يكون باتحاده مع نهر آخر ينســـاب من الشمال الغربى ، نهر بى هو أو النهر الأبيض ، وهذا النهر صالح للملاحة فى الجزء الأدنى من مجراه والى مسافة عدة أميال من البحر الأصفر الذى يصب فيه مياهه ، للسفن ذات الحمولة الضخمة ، وان كان مفرط السرعة بحيث لا يصلح للملاحة فى المنطقة التى يقطع فيها طريق مؤلفنا الى الجنوب الغربى • وربما جاز لنـــا أن نلاحظ أن كلمتى بولى ســـانجى معناها بالفارسية القنطرة الحجرية ، وليس بمستبعد أن أهالى الغرب الذين كانوا يعملون فى خدمة الامبراطور ربما أطلقوا هذه التسمية ، على مكان كانت تقوم فيه على النهر قنطرة ذات شهرة ذائعة ، وأطلقت التسمية هنا على النهر نفسه • وسيتضح للقارىء أن الاسم ورد فى Account of Caubul لالفنستون ص ٤٢٧ ، وفى ترجمة أوزلى لابن حوقل ص ، ٢٧٧ •

(٣) لا يستطيع عشرة من الخيالة أن يصطفوا جنبـــا الى جنب فى مسافة تقل عن ثلاثين قدما ، بـــل يرجح أن يحتاجوا الى أربعين أثنـــاء الحركة • واذن فالخطوات التى يدور الحديث حولها هنا لابد أن تكون خطوات هندسية ، وبناء على هذا الحساب يكون طول القنطرة خمسمائة ياردة •

(٤) ان حجر الحية أو Serpentinstein عند الألمان ، نوع معروف تماما ، كما أنه يعد نوعا منحطا من حجر اليشم •

(٥) فهم البروفسور ماجالهانز ، الذى لاحظ بوجـــه خـــاص هذا الوصف ، أن مؤلفنا انما يتحدث هنـــا عن المستوى الكامل الذى عليــه السطح وليس عن استقامة الجوانب • فهو يترجـــم : « القنطرة عنـــد

الطرفين ، أوسع منها عند قمة المطلع ، ولكن بعد أن ينتهي المرء من الطلوع ، يجدها مسطحة مستوية كأنما عملت على خط مستقيم» • (انظر : Nouv. Relat. ص ١٤) على أن عبارة « Uguale per longo come se fosse tirato per linea » يبدو بالحرى أنها تشير الى التوازى العام للجانبين ، وان تباعدا عند الطرفين ، كما هو شأن القناطر كلها تقريبا •

(٦) سبق أن أشرنا الى ان مؤلفنا عندما يتحدث عن الأسود ببلاد الصين ، كحيوانات حية ، فهو يعني الببر دون ريب ، ولكن الوضع يختلف فيما يتعلق بالأشكال الخيالية المسخراتية Grotesque للاسد ، سواء أصنعت من الرخام أم البرنز أو الخزف (البورسلين) ، التى تستخدم حليات فى المبانى والحدائق العامة لهذا الشعب • وقد استعيرت فكرتا الأسد الرمزى والسلحفاة من السنجا Singa والكرما Kûrma فى الأساطير (الميثولوجيا) الهندوكية •

(٧) من العسير علينا أن نفهم من كلمات النص (الذى يحتمل أن غموضه كثير بسبب تكرار الاستنساخ) موقع هذه الأعمدة الأكبر حجما بالنسبة لأجزاء القنطرة الأخرى ، ولكن يبدو أن المقصود هو أن خط الحاجز أو الدرابزين الذى كان يتكون بالتبادل من شقاق الرخام والأعمدة كان فيه فى الوسط (أو فوق الباكية المركزية أو العقد الأوسط) عمود حجمه أكبر كثيرا من باقى العمد ، قاعدته سلحفاة ، وربما أمكن الزعم ، وان لم يعبر النص عن ذلك ، أنه كان هناك عمود مماثل فى الدرابزين المواجه فى الجانب الآخر • والحق أن مؤلفنا يبدو أنه كان يحس بهذا النوع من النقص فى وصفه عندما يقول فى ختام الفصل ما نصة : « Et nelle discesa del pante è come nell-ascesa » ويقول أحد المبشرين الجزويت يذكر قنطرة عبرها بهذه الناحية من الولاية : « ان الحواجز فيها مصنوعة من رخام، ويمكننا أن نعد على كل من الجانبين مائة وثمانية وأربعين عمودا تعلوها تماثيل أشبال •• كما نرى فى نهايتى القنطرة أربعة أفيال مقرفصة » • انظر Lettres édif. مج ١٧ ص ٢٦٣ •

(٨) لا مراء أنه رغم وجود بعض صعوبات جزئية في الوصف ، أو شبه اعتراضات ظاهرية لقابلية تصديق القصة المدونة حول هذه القنطرة الفاخرة ، فان هناك سندا لا يتطرق اليه الشك يؤيد وجود قنطرة مماثلة لها من جميع الأوجه الجوهرية ، وتكاد تقع بالتقريب بنفس الموضع الوارد ذكره ، بقدر ما يمكن تحققه من الأقوال الموجزة الواردة فى يوميات الرحالة من القرن السابع عشر على تأخره • على أنه يمكن الظن مع ذلك بأنه ، مع انقضاء أربعمائة عام ، لابد أن تجد تغيرات أساسية ، تحدث نتيجة للحوادث والاصلاحات بل حتى ربما التجديدات •

هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) لا أتردد تأسيسا على الموقع النسبي والظروف الأخرى الوارد ذكرها حول هذا المكان ، أن أعتبر أن المقصود منـــه هو تسو تشـــو Tsa Cheu ، وهي مدينة من الدرجة الثانية ، دار الحديث حولهـــا في الهامشة السابقة ، وسيبدو ذلك أمرا أكثر احتمالا ، عندما يفهم أن جوزا وان كتبت محرفة في نص راموسيو جوزا Gou-za ، فانها وردت جيوجو (Gio-guy في خلاصات البندقية المبكرة ووردت Gio-gui في النص اللاتيني الباريسي) ، Gio-gui في نسخة بال و Cyongium في مخطوطتي المتحف البريطاني (.B.M) وبرلين ، وفيها كلها يقصد أن يكون الحرف الأول مخففا أو مرققا ، وأن يمثل - كما هو واضـــح - الصوت الصيني الذي نعبر عنه أحسن بكتابته « تس Ts » • وقد سبق أن لاحظنـا ، وسيكثر ورود الأمثلة على ذلك مرة ثانية ، - مصطلح التسمية الصيني تشو الذي يطلق على (مدينة من الدرجة الثانية) وكيف حرف الى جوى Gui وهي كما هو بين غلطة هجائية وقعت في كلمة جيو Giu التي تقترب تقريبا من هذا النطق الصوتي • ومدينة تسو تشو تقع وفقـــا ليوميات كل من فان برام وده جني ، على اثني عشر فرسخا فرنسيا من بكين ، ولكن لما كان الأول يضيف أنها على مبعدة مائة وعشرين لي صينيا ، ولما كان من المحتمل أكثر أن تكون هذه هي المسافة الحقيقية (وذلك لأن من المحقق أن هؤلاء السادة الأفاضل لم يقوموا بقياسها) ، فان لنا كل الحق في اعتبارها مسافة تزيد عن أربعين ميلا ايطاليا ، (وتجعلها أقدم المخطوطات وأجودها ثلاثين ، كما هو مدون في نسختنا) وهو الرقـــم الذي يحدده لها مؤلفنا •

(٢) يقرر فان برام انهم وجدوا في تسو تشو خانا ممتازا ، أي كونج كوان (Kong-Kuan).

(٣) كان هذا الطريق الأخير هو الذي سلكه الأشخاص الذين ألفوا السفارة : (هيئة السفراء) الهولندية في ١٧٩٥ من كانتون الى بكين ، وهو الذي يوصف هنا بأنه يوصل بامتداده خلال تسو تشو الى مانجي أو الصين الجنوبية • ويتشعب الطريق الغربي عند هذه النقطة وهو الذي أخذه البروفسور فونتاني في ١٦٦٨ ، ووصفه وصـــفا دقيقا في يومياته التي نشرها دوهالد •

(٤) من الواضح أن تا ان فو آو تاين فو انما هى تاى يوين فو ، عاصمة ولاية شان سى العصرية ، التى كثيرا ما كانت فى العصور القديمة مقرا لحكومة مستقلة • وموقعها يقارب الغرب الجنوبى بالنسبة لتسوتشو، كما أنه يبدو أن المسافة تقارب عشر مراحل مريحه

(٥) ان الظروف الواردة هنا لا تزودنا بوسيلة لتعرف هذا المكان ، الذى لم يعرفه مؤلفنا الا سلفا • ويرجح أن يكون موقعه فى الشمال الغربى ، على ما يفعل بعد ذلك اذ يتحدث عن أماكن أبعد شقة ، تقع فى اتجاه جنوبى غربى ، وربما كان المقصود هنا هو مدينة تاى تونج فو ، التى تقع فى ذلك الاتجاه • ومن البين ان اسم آنش بالوتش تترى ، وهو يساعد على ايضاح أن انعدام الحرف الحلقى الأخير فى كانبالو ، الذى يضيفه الفرس اليها ، انما هو حذف عارض • ولم يرد فى الطبعات اللاتينية ذكر لهذه المدينة •

(٦) رأينا أن حملات الصيد العادية للخان الأعظم كانت تجرى اما فى شانج تو ، التى تقع شمال بكين أو فى اتجاه بلاد التتار الشرقية ونهر عامور •

● هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) يقول البروفسور مارتين الذى ينقل عنــه دوهالد : ان مدينة تاى يوين العاصمة ، كانت توضع دائما فى مصاف أضخم المدن القديمة الفاخرة وأحسنها عمارة : ولهــا أســوار حصينة جدا ، محيطها يقارب الثلاثة فراسخ وهى آهلة بالسكان ، كما أنها تقع فوق ذلك بمكان ملائم جدا وصحى جدا ٠٠ فلا غرابة اذن فى أن يوجد بها ذلك العدد الجم من العمائر البالغة الذروة فى الفخامة ، كما أنها كانت بعد هذا مقرا وسكنا للعدد الكبير من الملوك » ٠ (انظر Thevenot مج ٢ ص ٤٨) ٠ وربما وجب هنا أن نلاحظ أن ما يبدو أنه المقطع الختامى فى أسماء المدن الصينية (ولكنه مقطع أوحد مميز) ، يقوم بالدلالة على حجمها أو مرتبتها ، ودائرة اختصاصها الادارى المدنى أى ما يتبعهـــا : وهكذا يدل مقطع فو أو فو Fû or Fou على مدينة من الدرجة الأولى ، يقع تحت اشرافها عدد معين من المدن المنتمية الى الدرجـات الأدنى ، ويومىء مقطع تشيو أو تشــوؤ Cheu or Tcheu الى مدينة من الدرجة الثانية ، خاضعة للاشراف الادارى لمدينة وصفها « Fû » كما ينبىء مقطع هيين Hien عن مدينة أو بلدة من المدن المنتمية الى الدرجـات الأدنى ، ويومىء مقطع تشيو أو تشسوؤ كل مدينة أعظم تحتوى فى داخلها دوائر الاختصاص التابعة هذه ٠

(٢) أقدمت فى هذه الواقعة على تصحيح نص راموسيو ، بوضــع كلمة « الأعناب » بدل « النبيذ » ، وان تطابق مع خلاصة البندقية والترجمة اللاتينية ، وذلك لاقتناعى بأنه بسبب الجهل بالحقائق ، أسىء فهم تعبير « الأصل » فجعل النساخ مؤلفنا يتحدث عن الشراب بما كان المقصود منه أن ينطبق فحسب على الثمر ٠ يقول ده جنى : « تنتج الصــين العنب ، ولكنها بلاد لا تنتج النبيذ : فان الأعناب نفسها تبدو قليلة الصلاحية لصنع النبيذ ، كما أن المبشرين بمدينة بكين لا ينجحون الا بغاية الجهد فى صنع النبيذ منه » ٠ (مج ٣ ص ٣٤٨) ٠ فاما أن العنب المجفف أو الزبيب ، كان هو السلعة التجارية التى قصد مؤلفنا وصفها ، فشىء فى اعتقادى ، أنه يعد محتملا تماما بنفس الدرجة على الأقل ، وذلك بقدر ما يجعله التصحيح متمشيا مع نفسه ، ومع معلوماته ، مع مراعاة المعــرفة التى حصلنا عليها منذ عهده الى اليوم ٠

• هوامش الفصل الثلاثين

(١) ان هذه هى مدينة بن يانج فو ، الواقعة فى الجنوب الغربى الجنوبى بالنسبة للمدينة السابقة وعلى نفس النهر ، وتبدو ضفافه ، فى مجراه من أوله لآخره ، مغطاة بالمدن . ويمكننا أن نحقق تأسيسا على موقعها بالنسبة لنهر هوانج هو ، (أى النهر الأصفر) أنها المدينة التى زارها سفراء الشاه رخ ، عندما عبروا قنطرة الزوارق الشهيرة ، والتى قالوا عنها بعد وصفهم ما عليه معبدها العظيم من فخامة : « وقد لاحظوا وجود ثلاثة مواخير عمومية بها ، وجد بها بنات هوى على جانب عظيم من الجمال البارع ، ومع أن بنات خاتاى جميلات على وجه العموم ، فانهن هناك مع ذلك أكثر جمالا منهن فى أى مكان آخر ، ومن ثم فالمدينة من أجل ذلك تسمى مدينة الجمـــال » . (انظر Thevenot الجزء الرابع ص ٥) ربما جاز لنا أن نظن أن هذا هو نوع الشهرة التى يشير اليهـا مؤلفنـا بكل احتشام .

● هوامش الفصل الحادى والثلاثين

(١) اسم المكان المسمى هنا ثاى جن وتاى جن ورد فى النسخ اللاتينية تشن كوى : « Chin Cui » وكاى كوى Cay cui ، كما ورد فى الخلاصات الايطالية تشاى كوى Chai cui (وفى اللاتينية الباريسية كاى توى Cay tui) : وهى أسماء بلغ تباعدها وعدم تشابهها ، أنه ربما ذهب المرء الى الظن .أن من العصب التعرف عليها عن طريق هجائها الوارد هنا ، ولكن موقعها بين بن يانج والنهر الأصفر الكبير يبين مع بعض الاحتمال انها كياى تشيو : Kiai-tcheou الواردة فى خريطة الجزويت ، ثم ان صوت كلمة كياى ، الذى هو الجزء الجوهرى من الاسم يبدو مختلفا اختلافا شديدا عن كاى وتشاى الواردتين فى الترجمات اللاتينية والايطالية المبكرة • وفيما يتعلق بالمقطع الأوحد الأخير ، سواء أكتب محرفا « جين » (بدلا من جيو) أم كوى (بدلا من كيو Ciu) ، فان ما لا شك فيه أن المقصود به هو كلمة « Chiu, tcheou, giu or ciu » (حسب طريقة كتابتها بحروف الهجاء الأربعة المختلفة) وهو لفظ يدل (كما لوحظ من قبل) على بلدة من الدرجة الثانية •

(٢) حول اسم هذا الأمير الذى يكتب دور فى نسخة راموسيو وكذا الخلاصات الايطالية ، بطريقة غير معقولة الى داريوس ببعض الطبعات اللاتينية • وانى لأعترف أنه ليس بين الكلمة الأولى أية مشابهة للغة الصينية ، كما أن مشابهتها لكلمة تترية ضئيلة جدا ، ومع هذا ، فعلى افتراض حتى أن الحكاية من أولها لآخرها ليست سوى أسطورة شعبية ، تسلى بها مؤلفنا أثناء رحلاته عبر البلاد ، الا أن أسماء الممثلين ينبغى ألا تكون غير منسجمة ولو بدرجة قليلة مع لغة سكانها ، ومن ثم فانى أجنح الى المخاطرة بحدسة تتعلق بذلك الاسم ، ربما ظنها البعض جريئة جدا ، وان كنت أعتقد أنها ستبدو قريبة الاحتمال جدا عند أولئك القراء ، الذين يحسنون العلم بتواريخ هؤلاء القوم • فمن المعلوم أنه قبل فتوح جنجيز خان ، كانت الولايات الشمالية بالصين خاضعة لسلطان شعب من شرق بلاد التتار ، يسمى شعب نيوتشيه (Niuche) أطلق على أسرته المالكة اسم « كن Kin » اقتباسا من لفظة معناها « الذهب » فى اللغة الصينية • يقول مؤرخ « الهون » : « فى عام ١١١٨ نودى بأوكوتا » امبراطورا فأطلق على أسرته اسم « كن » باللغة الصينية واسم آلتون بلغة شعبه ، ومعناها « الذهب » ، ومن هنا أطلق عليهم العرب اسم « آلتون

خانات » · (مج ١ ص ٢٠٨) أليس من الممكن أن يكون هذا الأمير منتميا الى أسرة كن هذه ، وهم معاصرو أون خان ، ثم ألا يمكن أن يكون المقصود من لفظة دور D'or او دورو عند مؤلفنا هو ترجمة اللفظة الصينية ؟ ان هذه الكلمة تدخل في تركيب كثير من أسماء الأعلام ، كما أنها كثيرا ما تؤدى بوضع معادلها فى اللغات الأوربية ومكانها ، كما هو الحال فى كن نشان أى جبل الذهب ·

(٣) يلحظ القراء أن مؤلفنا لا يعبر عن نفسه بأية درجة من الثقة فيما يتعلق بصدق هذه المغامرة الرومانتيكية فان لم تكن الا حكاية تافهة أدخلت عليه بوصفها حقيقة تاريخية فلابد انها كانت من اختراع التتار الصينيين ، الذين ما كانوا ليسمحوا بأن يكون أمير لشان سى تابعا اقطاعيا لملك تترى · بل على العكس من ذلك ، يؤكد جوبل أن حولياتهم تصف أون خان نفسه بأنه تابع لملوك أسرة كن ، وأن لقب فانج الصين ، أى أمير ، كان يلحق بلقبه الأصلى « خان » فيصبح لقبه فانج خان ، الذى حوره العرب فجعلوه أونج خان أو أون خان · (ورد البيان الخاص باستقبال البريسترجون له بتفصيل أكثر قليلا فى النسخة اللاتينية التى نشرتها الجمعية الجغرافية الباريسية) ·

● هوامش الفصل الثانى والثلاثين

(١) من المعروف تماما أن هذا الاســـم الذى (كتب كاروموران فى النص اللاتينى ، وكارمورو فى الخلاصات المبكرة وكاتا ميتام فى النسخة اللاتينية الباريسية) ، ومعناها النهر الأسود ، هو التسمية التترية لذلك المجرى العظيم ، الذى يخترق بمجراه الشديد المتعرج ، بلاد الصين كلها ، تحت اسم هوانج هو ، أو النهر الأصـــفر ، وقد ســـمى كذلك نسبة للون مياهه ، المحملة بالطين الأصفر • وليس من المستبعد فى الوقت نفسه أن النهر فى الجزء الأعلى من مجراه اذ يعبر من خلال تربة أخرى مختلفة لعلها طحلبية التكوين ، — مدين بلونه ذاك الذى ربمـا كان مبررا أيضا لنعته بصفة الأسود •

(٢) ان بعض أنهار بلاد التتار تصب مياههـــا فى بحيرات ، بينما تضيع أنهار أخرى بددا فى الصحراوات •

(٣) كثر ذكر هذه الطيور ، بمواضع تقع قرب النهر الأصفر •

(٤) من المعلوم أن قصب الخيزران Arundo bambo الذى هو واحد من أنفع المواد التى أمدت بها الطبيعة سكان الأقاليم الدافئة ، — نبات شـائع بكثر ببلاد الصين • ويذكر كتـاب Mém. concern. les Chinois مج ٢ ص ٥٣٢ ، أن الشطر الأعظـم من المنازل بولاية سى تشيون (se-Chuen) مبنية من الخيزران • وخط عـــرض نهـــر كاراموران « قره قوران » أو هوانج هو الذى يدور الحديث هنـا هو حوالى ٣٥° شمالا • فأما لو توغلنا شمالا أكثر لم يحتمل نمو الخيزران بازدهار •

● هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) لم نتمكن فى خريطـــة دوهالد من ترسم اســـم كاكيان فو أو كاتشان فو ، الذى ورد فى خلاصة البندقية المبكرة كانكيان فو وفى نسخة بال كيانفو (ولكنه لا يرد فى مخطوطة المتحف البريطانى ، ولا فى الطبعة اللاتينية المبكرة) ، كما أنه لا يبدو أن هناك مدينة من الدرجة الأولى ، (فما يعرف بدلالة المقطع الاضافى فو) بين ذلك الجزء مـن نهر هوانج هو وبين عاصمة ولاية شن سى ، وهى التى يتجه اليها خط سير مؤلفنا هنا •

(٢) ان الخلنجان أو الجالنجال ، المعروف جيدا فى علم الأقربازين ، هو جذور نبات من الفصيلة السعدية « Kaempferia » • وفى اعتقادى أن المقصود من كلمة ســبيكو Spico الايطاليـــة هو ســـنبل الطيب (Nardus Indica)

● هوامش الفصل الرابع والثلاثين

(١) المفهوم أن ولاية شن سى هى المقر الرئيسى للمسيحية ، يوم بشر بها النسطوريون فى هذه البلاد فى عهد مبكر • ونظرا لأنها أشد الولايات التى تؤلف امبراطورية الصين تغلغلا فى الغرب ، فانها كانت أسهل الولايات مدخلا على من يسافرون برا من سورية وغيرها من الأقطار الحافة بالبحر المتوسط •

(٢) لا يصح أن يفهم من كلمة التركمان « تتبار الصحراء » وانما المقصود بهم هم التجار الوافدون اما من تركمانيا بآسيا الصغرى (وهى مملكة سلاجقة الروم) ، واما من بخارى ، التي كانت قديما عاصمة التركستان ، وهى مكان عظيم التجارة والحضارة •

(٣) مهما اختلف اسم كن زان فو عن سى نجان فو أو سيجان فو (وهو الاسم الشائع فى كتابتها) فان الظروف تدل على أن المدينة الفاخرة التى يصفها النص انما يقصد بها عاصمة ولاية شن سى ، التى يظهر أنها تبعد حوالى تسع مراحل عن منطقة عبور نهر هوانج هو • من العادات السيئة تغيير أسماء الأماكن المهمة (وهو أمر له على الدوام دلالته) ، عند تبوؤ أسرة جديدة للعرش ، وتبعا لذلك فان الأسماء المتعددة : كان تشنغ وبن غنج وتشانج جان ونجان سى ، التى قلبت بظل أسرة منج (١٣٧٠) وجعلت سى نجان ، يسجل التاريخ أنها أطلقت على هذه المدينة فى مختلف الفترات •

(٤) انظر التذييل ٢ •

(٥) نجد فى قائمة بأولاد قبلاى أوردها ده جنى (Hist. Gén. des Huns الكتاب ١٦ ص ١٨٩) أن الثالث فيهم واسمه مانج كولا ، كان حاكما لشن سى ، وسى تشوين والتبت •

(٦) يقول ده جنى الصغير اجتلب المغول أو اليوون ، الذين استولوا على العرش فى ١٢٧٩ وطردوا أسرة صونج من البلاد ، ـ معهم عددا جما من المسلمين • وتزايد عدد هؤلاء كثيرا ، حتى عهد أسرة منج ، التى بدأت حكمها فى ١٣٦٨ ، بعد أن دمرت التتار » •

● هوامش الفصل الخامس والثلاثين

(١) الاقليم الذى ينطبق عليه مؤلفنا هنا هو ولاية سى تشوين التى تقع الى الجنوب الغربى من سى نجان فو ، كما أنها منطقة جبلية .

(٢) سبق أن ذكرنا أن « بليغ » مصطلح يدل فى بلاد التتار على « مدينة » وأن « آق » فى لهجات التركستان معناها أبيض وهو ما يبرر ترجمة مؤلفنا للاسم ، ولكن لماذا اضطر الى التعبير عنه بالتترية ، اللهم الا على أساس افتراض أنه نسى التســـمية الصينية ، ذلك ما لم نستطع تبينه . وانى لأعترف أيضا أنه مع المتاح من الأضواء الخافتة لا يمكننى القيام بأى تخمين أرضاه فيما يتعلق بموقعها ، وهو أمر يستحق الأسف بالأكثر لأنه كان سيمكننا من التحقق من الحدود الشمالية الغربية لمانجى، أو الصين الجنوبيـــة .

(٣) ربما جاز لنا أن نشك فى أن الجذور المسماة هنا بالزنجبيل ، لا يقصد منها سوى التى نسميها الجذور الصينية ، ويسميها الصينيون « الفولين Fulin » أى الفشاغ (smilax) والذى ينمو على أكمل وجه بهذه الولاية ، ومن أجل ذلك أصبح من الضرورى ، وكان فى ذلك الحين معروفا على قلة أن كان معروفا اطلاقا فى عالم الصيدلة الأوربى ، ـ أن يحل محله اسم معروف لدى الناس . يقول البروفسور مارتينى : « ان الجذر الصينى الحقيقى لا يوجد الا فى هذه الولاية ، أما النـــوع البرى منــه فينبت فى كل مكان » .

● هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) يبدو من الظروف المبينة هنا أن هذه المدينة ألتى تسمى فى طبعة بال وكذا طبعة راموسيو باسم سن دن فو ، كما تسمى فى اللاتينية الأبكر سين دى فو ، فى الخلاصات المبكرة سندريفا ، هى المسماة الآن باسم شينج توفو ، الواقعة على الجانب الغربى من ولاية سيه تشوين ، التى هى عاصمتها • وليس خط الحدود الغربية لمانجى ، كما لاحظنا آنفا ، بمعروف جيدا ، ولكن من الواضح من العمليات العسكرية التى جرت فى ١٢٣٦ و ١٢٣٨ ، أو أسرة صنج التى كانت تحكمها آنذاك ، كانت صاحبة السيادة فى مدينة تشنج تو هذه • ويقال (مع كثير من المبالغة) ان المدينة عندما أخذها المغول عملوا السيف فى رقاب مليون وأربعمائة ألف من سكانها • (انظر Hist Gén. de la Chine مج ٩ ص ٢١٩) •

(٢) لابد أن الملك الذى جرى الحديث عنه هنا ، كان تابعا اما لأسرة صنج أو للمغول ، وربما كان أحد الذين تلقوا لقب فانج الصينى ، وكان مستقلا الى حد ما تبعا لمدى نشاط الحكومة العمومية •

(٣) لم تكن هذه الخاصية لقناطر مدينة سى تشوين موضع ملاحظة ممن كتبوا البيانات الهزيلة التى اجتمعت لنا عن هذه الولاية ، والتى تذوب كلها فى المعلومات الأصلية التى أوردها البروفسور مارتينى فى أطلسه الصينى Atlas Sinensis (١٦٥٥) • وتذكر النسخة اللاتينية لمؤلفنا ، ان الدكاكين أو الأكشاك كانت تقام صباحا ، وتزال عن القنطرة ليلا •

(٤) ورد فى الترجمات الأخرى ان المبلغ ألف بيزنطى (أو سكوين) لا مائة •

(٥) تشكل الأنهار الكثيرة التى تحيط بمدينة تشنج تو ملتقاها بالتعاقب ، وتصب مياهها الموحدة فى نهر كيانج الأعظم ، على الصورة الموصوفة هنا ، ولكن بعدها عن ذلك الملتقى أكثر كثيرا مما تدل عليه عبارة النص • أجل أن طبعة بال تقول ان نهر كيانج يمر من خلال المدينة ، « per medium hujus civitatis transit fluvius qui dicitur Quian fu Kiang-su) (على أن اسم النهر فى النسخة اللاتينية الباريسية هو كوينجيا فو) ، ولكن فضلا عن ذلك فان طبيعة النهر تفند الحقيقة ،

وربما أدت القراءة الايطالية لنفس الفقرة الى تفسير الغلطة فى الخلاصات المبكرة ، حيث يجىء التعبير على النحو التالى : « Per mezo questa terra passa uno grande fiume » وهو قول يفهم منه ، حيث ان Terra تتميز هنا عن « Citta » أنه يمر من خلال المنطقة .

(٦) ورد فى اللاتينية انها تسعون يوما ، وفى الايطاليـــة المبكرة سبعون مرحـــلة (أو مسـيرة يوم) ؛ وتعادل المسافة من مدينــة سينو تشيو فو ، التى تقع عند ملتقى النهر الذى يجرى من تشنج تو بنهر كيانج ، ما يقارب أربعة أخماس عرض الصين .

(٧) تعد هذه الجملة استمرارا لحديث سن دو فو ، وكان ينبغى وضعها بجزء أسبق من الفصل . وذلك يظهر الأسلوب غير المصطنع الذى أنشىء به العمل .

● هوامش الفصل السابع والثلاثين . . .

(١) قد يقصر اسم (Thebeth, Thibet and Tibet) (وينطقها ابن بطوطه التبت بضم التاء وتشديد الباء) أحيانا على ذلك القطر الواقع على الجانب الشمالى لجبال الهمالايا ، وهو تحت الحكم المباشر للدالاى لاما والياننشن لاما ، كما أنه يجعل فى بعض الأحيان بحيث يضم كل المنطقة التى يطلق عليها فى أحوال أخرى اسم تانجوت ، بما فى ذلك الأمم الحافة حول ولايتى سى تشوين وشن سى ، اللتين يسميهما الصينيون سى فان أوتوفان . ويبدو أن مؤلفنا شرع الآن في الحديث عن هذه الأجزاء الشرقية التى تبدأ على بعد حوالى رحلة خمسة أيام من مدينة تشنج تو .

(٢) ان الانفجار الشديد الارتفاع الصوت للخيزران المحترق معروف جيدا لكل من شهد حريقا يشب فى قرية أو سوق ، بالأقاليم التى تبنى مبانيها من تلك المادة . وأشد الأشياء شبها بذلك اطلاق الأسلحة النارية بجميع أوصافها اطلاقا غير منتظم ولكنه غير منقطع فى ليلة من ليالى الاحتفالات العامة بانجلترا .

(٣) يقول البروفسور مارتينى ، متحدثا عن ولاية يون نان ، التى تضاقب ولاية التبت ومشيرا الى سكانها : « لا يتزوج السان بنتا بينهم ، لم يصاحبها أحد أولا قبله ، وهذه هى أقوال مؤلفنا الصينى » . ص ١٩٦ .

(٤) هذه هى المرة الثانية فى الكتاب التى تستخدم فيها كلمة القافلة أو القيروان « Caravan » وهى المشتقة من لفظة Karawân الفارسية والمتبناه فى معظم اللغات الأوربية . (انظر الكتاب الثانى الفصل ١٨) . والمصطلح العربى الذى ربما ظننا أنه كان يحتمل أن يدخله الصليبيون الى لغاتهم هو لفظ « القافلة Kûfilah » (وقد أورد ابن قتيبة فى أدب الكاتب والقاموس الوسيط لفظة القيروان بمعنى القافلة) . . .

(٥) ذلك مبلغ فسوق الطبيعة البشرية ، بحيث لا يقتصر الأمر على اذلال واخضاع السنن الخلقية بل والغريزية أيضا من أجل التعطش الى كسب المال أو الولع بالشهوات . ويلاحظ ترنر أثناء رحلته فى منطقة كوش بهار فى طريقه الى بلاد التبت « انه ليس هناك شىء أشيع من أن ترى أما تزين ابنتها وتحضرها الى السوق ، لا يداجيها أمل آخر ولا غرض

آخر الا زيادة الأجر الذى قد تحصـــل عليـــه عن تلك « الزينة » انظر Embassy to Tibet ص ١١ ٠

(٦) ربما اتصف « السى فان » بهذا الطبع الميال الى السرقة ، وهم شعب يتاخم الولايات الصينية (وهو طبع ظل دائما يلازم كل المتاخمين للحدود) ، على أن الرحالة يصفون طباع سكان التبت ذاتهـــا ، بأنها تمتاز بوجه خاص بالسذاجة والأمانة ٠

(٧) فيما يتعلق بتأثير القمـــر على افراز المســـــك ، يخبرنا استراهلنبرج « انه ليس فى كل الأحيـــان بنفس القوة ، ولكن ، خير أنواعه ما أفرز صيفا ، أثناء فترة ذروة النزو والسفاد ، وفى أيام اكتمال القمر بدرا » ٠ ص ٣٤٠ ٠

(٨) لم نعثر على كلمة جودرى ولا أية كلمة قريبة منها فى أى قاموس من القواميس التى لدينا فى لغات بلاد التتار ٠ والحيوان ، كما يقرر بل Bell يسمى بالأجزاء الشمالية كابـردا أو كاباردين كمـــا يقول استراهلنبرج ، هذا الى أن كركباتريك فى بيـــانه عن نيبول يســـميه كاستورا ٠ والواقع أنه ليس من المستبعد أن الجودرى أو الجادرى Gadderi (كما ورد فى النسخة اللاتينية) ربما كان تحريفا لكلمة « كاستورى » الفارسية ، وهى الاسم الشائع للعقار بكل أرجاء الشرق ٠ والمعقول أن التجار المسلمين كانوا يستخدمونها حتى على حدود الصين ٠

(٩) ربما لم يبد محتملا أن يحمل المرجان الأحمر الثمين المنتج على شواطىء البحر المتوسط الى حدود الصين بمقادير كبيرة تكفى لاستخدامه هناك عملة ، كمـــا أنه ليس من المواد السهلة التقسيم بحيث يناسب هذا الغرض ، فأما استخدامها بصفة عامة على سبيل الحلى فشىء يدلنـــا عليه تافرنييه ببراهين كافية تؤيد ذلك ٠ ومما يستلفت الأنظار أن أهالى التبت لا يزالون حتى يومنا هذا محرومين من عملة خاصـــة بهم ، ولكن عملتهم التى يستخدمونها يزودهم بها جيرانهم سكان نيبال ٠

(١٠) ان كثيرا من الجداول التى تنبع من الجانب الشرقى من بلاد التبت ، وتكون باجتماعها أنهار الصين العظيمة ، تنتج كثيرا من الذهب ، الذى يجمع من قيعانها تبرا ، أو كتلا صغيرة ٠ وهو أمر ملحوظ بوجه خاص فى نهر كن شاكيانج ٠ يقول دوهالد :

« لا يستطيع المرء ان يحدد ، عن كثير من الأنهار التى يراها المرء على الخريطة ، أيها يزود الصين بجميع الذهب الذى يحمل اليها ٠ وينبغى أن يبحث عنه الناس فى رمال كثير من هذه الأنهار : ومن المؤكد أن النهر الكبير كن شاكيانج الذى يدخل ولاية يون نان ، يحصل منه الكثير فى

رماله ، وذلك لأن معنى اســـمه هو النهر ذو الرمال الذهبيـــة ، • (مج ٤ ص ٤٧٠) ، « ان بأقاليم « التوفان » ، التى تسمى نان مو ، نهرا يحمل اســم لى نيــو يوجـد به كثير من الذهب » انظر : .Mém concernant les Chinois مج ١٤ ص ١٨٣ •

(١١) يلاحظ الدكتور ف • بوكانان فى وصفه لعادات شعب بعينه باقليم آفا أو بورما أن » بعض النساء كن يرتدين عقودا ثمينة من المرجان حول أعناقهن » • انظر Symes' Embassy ص ٤٦٥ •

(١٢) ربما بدا هذا غلوا وتزيدا ولكن رحالة آخرين يصفون كلاب التبت بأنها ذات حجم غير عادى • يقول ترنر : « كان يوجد على اليسار صف من الأقفاص الخشبية تحوى عددا من الكلاب الضخمـة ، الفظيعة الشراسة البالغة القوة وشدة الضجيج • وموطنها الأصلى هو بلاد التبت ، وسواء أكانت متوحشـة بطبيعتها ، أم هائجة متمردة بسبب حبسها ، فانها على كل حال شموس هائجة ، بحيث كان من الخطر ، الاقتراب من اقفاصها ما لم يكن حراسها موجودين ، ثم يقول فى مكان آخــر : « لدهشتى وفى اللحظة التى دخلت فيها البوابة ، هب كلب ضخم ، بلغ من ضخامته ان كان كفئا لقتال أسد ، لو أن شجاعته عادلت حجمه » انظر : « Embassy to Tibet »ص (١٥٥ ــ ٢١٥) • وبناء على هذا الاقرار ينبغى أن يلتمس لمؤلفنا العذر على هذا الغلو • وان كانت بعض البيانات الأخرى لا تحمل نفس الضخامة • يقول الكابتن رابر : « كان أحدها حيوانا جميلا بصورة لافتة للأنظار ، يعادل حجم كلب نيوفوندلندى ملء الجسم وله شعر طويل جدا ورأس تشبه رأس الدرواس (Mastiff) • ولذيله طول مذهل، يشبه فرشة ذيل الثعلب ، وهو ملوى مجعد لأعلى حتى منتصف ظهره على أنه كان من بالغ الشراسة بحيث لا يسمح لأجنبى بالاقتراب منه » • انظر : Asiat Res. مج ١١ ص ٥٢٩ •

(١٣) عن بيان عن هذا الحيوان ، وهو The bos gcrunnien انظـر أعلاه ص 136 (2) و ص 137 (1) ، لم أتمكن من أن أكتشف أى أثر لكلمة بيامينى (التى لا تظهر فى الخلاصات اللاتينيه ولا الايطالية) • وربما كانت تحريفا لكلمة براهمينى • ويقال ان الحيوان يسمى ياك ببلاد التتار ، وتشورى chowri فى التبت وسوراجاى بالهندوستان •

● هوامش الفصل الثامن والثلاثين

(١) المدينة التى يبدو من ناحية الموقع وغيره من الظــروف أنهــا تتجاوب أحسن تجاوب مع وصف كاين دو ، هي مدينة يونج ننج تـــو ، التى تقع على الجانب الغربى من نهـــر « يالونج كيانج » ، قرب خط عرض ٢٨ ، وان جاز لنا من ناحية أخرى بناء على شيء من التماثل فى الصوت أن نظنها لى كيانج تو ، وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن الأولى ، ولكنها تقوم على الضفة الغربية لنهر كن شاكيانج ، أعلى ملتقاه مع النهر الســـابق ٠

(٢) لم أجد فى أى مرجع آخر ما يؤيد أن البحيرة المجاورة ليونج ننج تو تخرج اللؤلؤ ، وان كان ماتينى يعدد اللؤلؤ بين المنتجات الثمينة فى هذا الجزء من الصين : « ويستخرج أيضا من هذه الولاية ، الياقوت الأحمر des Rubis والياقوت الأزرق des saphirs وعقيق اليمان des agathes مع كثير غيرها من الأحجار الكريمة واللآلىء » ٠ (ص ١٩٤) ولاحظ كثير من الكتاب مصايد اللؤلؤ فى أنهار بلاد التتار الشرقية ٠

(٣) ويمثل هذا البديل من العملة « اللارين Larin المستخدم بخليج فارس مع فارق هو أن اللارين يحمل دمغا معيبا ٠ وفى أقاليم سومطرة التى يحصل فيها على تبر الذهب وترابه ، تشترى به جميع أنـــواع اللوازم حتى ما هبط منها الى سعر حبة بر واحدة ٠ وفى الامكان أن يعد تشكيل المعدن قضبانا ، وبتر قطع منها حسب الحاجة لاستخدامها عملة ، خطوة نحو سك عملة وضرب نقود ٠ ونذكر هنا أن الصينيين فى كانتون يقطعون الدولار الأسبانى بنفس الطريقة ليسددوا ما عليهم من مدفوعات صــــغيرة ٠

(٤) يقول البروفسور مارتينى ، فى وصفه لمدينـــة يا أوجـان ، الموجودة بنفس الولاية : « يوجـد قرب المدينـة بئر مياهها ملحة ، وهم يتزحون ماءها لاستخراج الملح منه ، وهو ملح ناصع البياض ، يستخدمونه بجميع أرجاء البلاد ، ويسمونه بيـــه ين ســنج ، أعنى البئر ذات الملح الأبيض » ٠ ص ٢٠٤ ٠

ويظهر اسم بيه ين سنج فى خريطة دوهالد لاقليم يون نان ٠

(٥) كان ساجيو البندقية يعادل فى الوزن سدس أوقيــة ، وبناء على هذا كانت قيمة كعكة أو قرص الملح تعادل جزءا من أربعمائة وثمانين

من أوقية من الذهب ، التى لو كان ثمنها أربعـــة جنيهـات استرلينية ، لأصبحت قيمة كل قرص أو كعكة بنسين اثنين بالضبط : وهى صـــدفة لم تكن متوقعة بأية حال • ومع ذلك فان دقتها لابد أن تتوقف على مقارنة بين البنس الانجليزى وبين الدينار البندقى فى تلك الأيام •

(٦) يوجد خير أنواع المسك فى الأجزاء الغربيـــة من بلاد الصين والشرقية من التبت أى اقليم السى فان • ويتحدث عنه مارتين فى أطلس Sinensis (: أطلسه الصينى) بأنه انتاج أماكن متنوعة فى يون نان•

(٧) لعل هذه أشد الأخطاء المجردة من كل أهلية وأساس ، التى وردت حتى الآن فى العمل ، وذلك لأن القرنفل (Garofali) والدار صينى (القرفة الصينية) أو القرفة العادية : (Canella) لا تنمو بالتأكيد فى ذلك الصقع من العالم ، ولا هى تنمو بأى مكان يتجاوز المنطقة المدارية • والوسيلة الوحيدة لتعليل ورود بيان يناقض الحقيقة الى هذا الحد ، هى افتراض أن مذكرة منفصلة حـول ما شـاهده مؤلفنـــا بجزر (التوابل : البهـــار) ، (وهنـــاك احتمال كبير بأنه زارها وهو بعـد فى خدمة الامبراطور) ، ـ قد أدخلت فى وسط وصف لا علاقة لها به بتاتا •

(٨) ورد فى بعض النسخ المبكرة انهـــا عشرة أيـــام بدلا مـن خمسة عشر •

(٩) مهما يكن من بعد هذه الكلمة عن التشـابه وأية كلمة صينية أو تترية ، فان معظم النسخ تتفق فى هجـــاء اسـم بريوس Brius الذى أطلق على هذا النهر ، والذى يبدو أن المقصود به هو نهر كن شاكيانج أى « النهر ذو الرمال الذهبية » • غير أنه لو تم ـ من الناحية الأخرى ـ اعتبار أن لى كيانج تو ، التى تقع على الجانب الجنوبى الغربى • تعد هى كيانج دو ، الواردة فى النص ، استتبع ذلك أن نهر بريوس اما ان يكون هو نهر لان تسان كيانج أو نهر نوكيانج ، الذى يظن أنه نهر ايرابانى الموجود بمملكة آفا • يقول الماجور رنل : « ان نهر نوكيان ، وهو أصغر قليلا من الجانج (الكانج) ، يجرى نحو الجنوب مخترقا زاوية يون نان التى تقترب الى أقصى حد من البنجال » • انظر : « Memoir » الطبعة الثالثـــة ص ٢٩٥ •

(وهو فى النسخة اللاتينية الباريسية ليجايز ، وفى الايطالية المبكرة برونيس) •

● هوامش الفصل التاسع والثلاثين

(١) المفهوم جملة أن كارايان هي ولاية يون نان أو بقول أدق ، جزؤها الشمالي الغربي ، الذي يحده بدرجة كبيرة نهر كن شاكيانج . وانا لنجد في Account of an Embassy to Ava اشارة الى جنس من الناس يتقابل اسمه مع اسم كارايان وربما كانوا أسرى حرب ، جلبوا من اقليم يون نان المجاور ، الذي كثيرا ما كان شعب آفا متعاديا معه ، وموزعا في أرجائه على صورة مستوطنين يقول الكولونيل سايمز محدثا عن مبشر ايطالي كريم : « أبلغني وصفا فريدا لشعب يسمى الكرايانيين ، وهم يسكنون أجزاء مختلفة من البلاد . وهو يقدمهم في صورة جنس بسيط ساذج يتكلم لغة تختلف عن لغة أهل بورما ، ويعتنق أفكارا دينية بدائية . وهم يعيشبون عيشا ريفيا بحتا كما أنهم أشد رعايا الدولة كدا في العمل . وتكاد الزراعة ، وتربية الماشية والدواجن أن تكون حرفتهم الوحيدة . وينتج الكرمانيون شطرا كبيرا من المواد الغذائية المستخدمة بالبلاد ، كما أنهم متفوقون بوجه خاص في زراعة البساتين » . (ص . ص ٢٠٧ ـ ٤٦٧) على أن الدكتور ف . بوكانان يكتب الاسم كاراين ، كما أنه يتحدث أيضا عن كاكياين ، « وهم شعب متوحش ينزل على تخوم الصين » . انظر .Asiat. Res مج ٦ ص ٢٢٨ .

(٢) يسمى هذا الأمير في مخطوطتي المتحف البريطاني وبرلين جوسنتيمور ، كما يسمى في نسخة بال اسن تيمور ، ويدعى هنسن تيمور في الخلاصات الايطالية ، وان ده جنى في كتابه Tables Chronologiques ليسميه ببساطة تيمور خان ، ولكن أحد خلفائه (وهو ابن أخ له) يظهر في القائمة نفسها تحت اسم بيسون تيمور ، وهو اسم سواء أكان صحيح الهجاء تقريبا بالنسبة لأية تسمية أخرى ، فانه من الواضح أن المقصود به نفس التسمية . ومع هذا فانه كان حفيدا لقبلاي لا ابنا له ، وقد خلفه بسبب وفاة أبيه تشنجيز المبكرة .

(٣) يقول البروفسور مارتين : « ينتج هذا الاقليم خيلا كريمة جدا ، معظمها قصير القامة ، ولكنها قوية وجريئة » . (ص ١٩٦) لعل هذه هي نفس سلالة خيل التانجون أو التانيان التي تعيش باقليم التبت الأدنى ، والتي تحمل من هناك لتباع ببلاد الهند . وقد أبلغ أهالي بوتان الماجور رنل أنهم اجتلبوا خيول التانيان الخاصة بهم من مسيرة خمسة وثلاثين يوما الى الحدود .

(٤) تحمل العاصمة الحالية لولاية نان نفس هذا الاسم ، ولكن هناك فيما يظهر أسبابا تدعو الى استنتاج أنه مع أن اقليم الكاريان الذى اورد مؤلفنا ذكره جزء من تلك الولاية ، فان مدينته جاسى أو ياتشى لم تكن يون نان فو بل تالى فو ، وهى تعد الآن فى المرتبة الثانية • وهذه المدينة • كما ينبئنا البروفسور مارتيني ، سماها الأمير الذى أسسها يه تشو ، كما سمتها أسرة مالكة تالية ياؤتشيو ، وذلك بينما أطلق عليها اسم تالى أحد أفراد أسرة يوين أى عائلة قبلاى •

(٥) ان مؤلفنا الذى يبدو أنه ذو ميول اجتماعية عشرية ، لا تفوته أية فرصة يثنى فيها على مزايا هذا الشراب ، ولكن الرحالة العصريين — ولعل مرد ذلك هو التحيز والهوى — لا يتحدثون عنه بمثل هذه العبارات المطرية • والشراب نوع من الجعة لا من الخمر •

(٦) هذه هى الأصداف (و الودع Kari) المعروفة المستخرجة بالبنغال والتى يسميها علمـــاء الحيوان (التاريخ الطبيعى) باســم Cyproe ae monetae ولعلها اتخذت فى الأزمان الخالية طريقها ، من خلال ولاية سلهيت ، الى الأقطار المتاخمة للصين ، ولعلهـــا كانت متداولة فى يون فان قبل اخضاع سكانها الجبليين للحـــكم النظامى ، وضـــمهم الى الامبراطورية ، وهو اجراء سياسى عسير ومتعب للسلطات ، تم بوجه رئيسى بنقل مستوطنين من الصينيين من داخل البلاد اليها • يقول الماجور رنل : (أبلغت فى عام ١٧٦٤ أن سلهيت ، (وهى ولاية داخلية شمال شرقى البنغال) كانت تنتج الودع أى الأصـــداف والمحـــار ، وأنه كان يستخرج من الأرض • وبطبيعة الحال لم أصدق هذا القول ، ولكنى عندما كنت هناك فى ١٧٦٧ و ١٧٦٨ ، لم أجد بالبلاد عملة أخرى من أى نوع كان ، وحدث ذات مرة أن فرض على الناس زيادة فى خـــراج الولاية ، فجمعت عدة حمولات لمراكب (لا تقل الوحدة عن خمسين طنا) وأرسلت فى نهر البرامبوتر ، الى دكـــا والراجح أن تجميعها يرجع الى أن سلهيت كانت فى تلك الفترة ، أقصى منطقة يتداول فيها ذلك المحار كنقد ، ومنها لم يكن أمامها من مخرج الا العودة الى البنغال » • وليس من المستبعد على المطلع أن يعتقد أن هذا الجنس من المحار ، المسمى بورسللانا Porcellana يستمد اسمه من المظهر المرقش لغلافه الصقيل ، المشابه للخزف المزجج أو البورسلين الصينى ، ولكن استخدام مؤلفنا للكلمة مبكرا ، يجعل من المحتمل أكثر أن المحارة ، وقد أطلق عليها فعلا اسم بروسلانا (وهو تصغير لكلمة بوركو) ، نتيجة للشكل المحدودب لظهرها كانت السبب فى أن الخزف الأجنبى صار يسمى بورسيلين بقارة أوربا ، نظرا لاحتوائه على مجموعة من أجمل صفات المحارة •

(٧) بناء على هذا التقدير ، لو أن الأرقام كانت صحيحة ، فإن قيمة المحار ، لابد أنها كانت تزيد زيادة هائلة نتيجة لحملة من البنغال الى حدود الصين • ويقال ان متوســط سعرها في السوق العمومية بكلكتا حوالى خمسة آلاف للروبية ، وهو ما يمكن اعتباره معادلا لثلاثة ســاجيو من الفضة ، واذا بيعت بسعر ثمانين للساجيو الواحد ، لكان الكسب تبعا لذلك ، بربح قدره خمسة آلاف الى مائتين وأربعين ، أو أكثر من عشرين الى واحد • وبناء على هذا فربما جاز لنا بدلا من أن نقرأ ثمانين أن نقرأ ثمانمائة محارة للساجيو الواحد ، وهو وضع لا يزال يترك مجالا لفائدة قدرها مائة في المائة •

● هوامش الفصل الأربعين

(١) ان اسم كارازان ذاك ، الذى ربما جاز الظن بأن الصينى قد ينطقه كالاشان ، يبدو أنه ليس الا اسما لقسم آخر من ولاية يون نان ، ولما كان من غير المشكوك فيه أن الأماكن المذكورة فى الفصل التالى موجودة فعلا : ولكن معلوماتنا حول هذا الجزء من القطر من النقص والاضطراب ، بحيث تعوزنا الوسيلة التى نستطيع بها التحقق من موقعه المحدد · وفى نفس الوقت ، ينبغى أن يلاحظ أن اسم كارازان متميزا عن اسم كارايان ، لا يوجد فى النسخة اللاتينية ولا فى الخلاصات المبكرة ، وجميع الظروف المروية فى هذا الفصل تعتبر اذن منطبقة على الولاية أو الناحية المذكورة أخيرا ·

(٢) لم يرد اسم كوجاتن بين أبناء قبلاى الشرعيين ، وان كان له أولاد آخرون كثيرون · ومع ذلك فان الهجاء غير مؤكد بصورة أكثر من المعتاد · وكتب الاسم فى مخطوطتى برلين والمتحف البريطانى كوجا آم ، كما أنه فى الطبعة اللاتينية القديمة كوجاتوى ، وفى طبعة بال كوجراكام (كوجراخان) ، وفى الخلاصات الايطالية المبكرة كوكاجيو ·

(٣) هذا البيان المشوه عن التمساح أقل جدارة بالانتماء الى أمانة مؤلفنا من أى وصف قدمه الينا فى باب التاريخ الطبيعى ، وان كان تاريخه الطبيعى بصفة عامة معيبا بدرجة تتفاوت زيادة ونقصانا ·

(٤) يبدى أهالى الهند مهارة خاصة وممتازة فى استحداثهم الوسائل لتدمير الحيوانات المفترسة ، ولا سيما الببر ، الذى يحملونه فى بعض الأحيان على الوقوع فوق خوازيق مدببة حادة ، بعد صعوده سطحا مائلا ، ولكن التمساح يؤخذ فى أكثر الحالات وأشيعها وهو فى الماء بواسطة خطاف كبير ·

(٥) علمت أن لحم الجوانة أو عظاية الأغوانة (Sguana) وهى حيوان متوسط القدر بين العظاءة (السحلية الضخمة) والتمساح ، يأكله كل من الصينيين والأوربيين ، ويعد عند الصينيين على الأقل أكلة شهية ممتعة · وما أستطيع أن أؤكد نفس هذا الرأى عن التمساح ولكنى قرأت فى كتاب فى التاريخ الطبيعى أن : « الأفريقيين والهنود يطعمون لحمه ، وهو لحم أبيض ، وله رائحة عطرية (مسكية) » ·

(٦) يتجلى من ثم أن عادة بتر ذيول الخيل ، بفصل فقرة أو أكثر من فقراته ، وهي عادة اشتد انتشارها بانجلترا ، كانت موجودة منذ مئات من السنين عند سكان يون نان ، في أقصى أجزاء الصين ٠

(٧) ربما كان هذا هو الاعتقاد السوقي الشائع حول المادة المستخدمة مقيئا في هذه الحالات ، وان جاز ألا يكون لذلك أدنى أساس شأن الفكرة التي جميع عامة الشعب الانجليزي على اقتناع بها من أن « عرق الذهب » (وهو جذور نبات يستخدم مقيئا ومسهلا) « Ipecacuanha » هي مسحوق من العظام البشرية ٠

● هوامش الفصل الحادى والأربعين

(١) ما يسمى هنا بولاية كارداندان ، ورد فى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين والنسخة اللاتينية المبكرة مكتوبا اردندام ، وورد فى نسخة بال آركلاوام ، وفى الخلاصات كاريدى ، ولم نتوصل الى العثور على أى اسم منها فى خريطة دوهالد ، ولكن يتضح من اسم القصبة الذى يعقب ذلك مباشرة ، ان الأماكن التى يجرى الحديث عنها موجودة مع ذلك داخل حدود ولاية يون نان العصرية • أجل ان اسم فوتشانج (أو فوسيام فى تهجئة النسخة الايطالية القديمة) ، كان من الممكن أن يكون بالمثل غير قابل للتحقيق شأن اسم الولاية نفسه ، لولا أنه يساعدنا فى هذه الحالة ما ورد ببعض الترجمات الأخرى • فالكلمة وردت فى النسخة اللاتينية المبكرة أو نسيان ، ووردت فى نسخة بال أو فتشيام ، وفى نسخة البندقية المبكرة نوسيان ، وهو ما يشير الى أن المكان هو مدينة يونج تشانج ، فى الجزء الغربى من يون نان •

(٢) يقول مارتين متحدثا عن سكان يونج تشانج : « وهناك آخرون يرسمون أشكالا مختلفة على وجوههم ، حيث يخزونها بإبرة ويلونونها باللون الأسود ، كما اعتاد كثير من الهنود أن يفعلوا » وأصبحت البيانات المتحدثة عن ممارسة الوشم مألوفة لدينا بفضل الرحلات الجنوبية الى جزائر البحر الجنوبى ، ولكنها تنتشر أيضا بين سكان بورما بمملكة آفاء المتاخمة مباشرة ليون نان • ولاحظ الكتاب القدامى هذه العادة ، وأكدتها شهادة الكولونيل سايمز ، حيث يقول : « يشم (البورمانيون) أفخاذهم وأذرعهم بأشكال ورسوم منوعة وعجيبة ، يعتقدون أنها تقوم مقام التعويذة ضد أسلحة أعدائهم » • انظر Embassy to Ava ص ٣١٢ •

(٣) يبدو أن فى هذا اشارة الى الاحترام الخارق الذى يقدمه الصينيون لآبائهم ، أو الى التبجيل الذى يقارب العبادة الوثنية ويقدمونه لأرواح أسلافهم — وهى خرافة لا علاقة لها فحسب بالمبادىء الدينية للطائفتين الغالبتين ، ولكن يرعاها بتدين كل من يمقتون عبادة الأوثان • ويبدو مرجحا انه بدلا من قول المؤلف Il piu vecchio di casa أو قوله فى رواية الخلاصة « Lo mazor de la casa » أى « آكبر أفراد العائلة » ، فانه انما كان يعنى « السلف العام المشترك لها » • وذلك لأنه وان كان الأحفاد العديدون المكونون للسلالة ، ربما عاشوا على الطيبة الأبوية ، الا أنه لا يمكن أن يفهم انهم استمدوا ممتلكاتهم منه أثناء حياته •

(٤) تكون المناطق الواقعة قرب قاعدة سلاسل الجبال العظمى وبخاصة داخل خطوط العرض المدارية ، غير صحية على الدوام • يقول ترنر : « يمتد عند سفح جبال بوتان سهل ينبسط عرضه حوالى ثلاثين ميلا ، وهو سهل لا يقال عنه انه مغطى بل مختنق بأشد أنواع النبات وفرة • فان الأبخرة التى تتصاعد بالضرورة من الكثرة الوفيرة من الينابيع ، التى تتفجر من الجبال القريبة ، تتجمع وتنحصر بهذه الغابات التى لا تكاد تخترق وتولد جوا وخيما لم يمر منه مسافر يوما سليما بغير ضر يناله » • (انظر Embassy) ص ٢١ • وتمتد هذه الحالة الوبيئة للهواء نحو الغرب ، من خلال ما يسمى باسم اقليم المورانج ، ويمكن بالمماثلة الظن بأن هذا الجو يعم الجهة الشرقية أيضا ، وذلك بأن جبال يون نان ، نظرا لأنها شاهقة الارتفاع ، بينما نهر نوكيانج العظيم ، الذى يقال انه صالح للملاحة بين تلك الولاية وولاية آفا ، ينبغى أن يتجه فيضه بوجه رئيسى من خلال سهل واقليم منخفض نسبيا •

(٥) واضح ان المشعوذين أو السحرة ، الذين يدور الحديث عنهم هنا ، هم الشامانيون ، أو كهنة فو الحواة ، الذين يلتقى بهم بوجه خاص ، بمناطق التتار الأقل تمدينا ، والذين يرجح أنهم يجوسون خلال جميع أرجاء الامبراطورية الصينية •

• هوامش الفصل الثانى والأربعين

(١) لم يرد تاريخ ١٢٧٢ هذا فى نسخة راموسيو فحسب ، بل ظهر أيضا فى مخطوطة برلين والنسخة اللاتينية الأقدم ، بينما التاريخ فى نسخة بال (التى اعتمدها مولروا واتبعها) هو ١٢٨٢ . غير أن التاريخ الثانى يجد شيئا من التأييد فى فقرة وردت فى L'Histoire Gén. de la Chine مج ٩ ص ٤١١ .

(٢) يعتبر كل من البروفسور جوبل (أو البرفسور سوسييه المعلق عليه) ، وده جنى وجروسييه ودانفيل ، أن ميين هو اسم اقليم بيجو ، ولكن الواضح ان المقصود هو إقليم بورما ، أى مملكة آفا كما نسميها عادة ، التى تكاد تتاخم ولاية يون نان ، بينما تقع الأخرى بعيدا فى اتجاه الجنوب ولا صلة لها بأى جزء من أجزاء الأراضى الصينية ، والإسم الذى يطلقه البورمانيون على بلادهم هو ميام ما ، ويسميها الكتاب الصينيون ميين تيين .

(٣) والكلمات فى طبعة بال هى : « ملك ميين وملك البنغال » دالة ضمنا على ملكين متحدين ، ولكن الفقرة بأجمعها تدل على أن المقصود بها هو شخصية واحدة ، ربما كان فى تلك المدة يلقب نفسه باسم ملك بنجالا (البنغال) وكذا ملك ميين أيضا ، نتيجة لأنه فتح بعض النواحى الشرقية التابعة للبنغال ، التى لا تفصلها عن اقليم آفا سوى الغابات .

(٤) ورد هذا الاسم فى نسخة راموسيو نستردين وكتب بمواطن أخرى نستشاردين ونسكاردين وناستاردين ، وكلها تحريفات للاسم الاسلامى المعروف « نصر الدين » .

(٥) لعل هذا هو السهل الذى يجرى من خلاله نهر ايراباتى (ويكتب أيضا ايراوادى) ، أى نهر آفا الكبير فى الجزء الأعلى من مجراه .

• هوامش الفصل الثالث والأربعين

(١) ينبغى أن يكون مفهوما أن هذا هو السهل الموجود عند سفح جبال يون نان ، التى سبق الحديث عنها ، والتى يقال ان النهر صالح للملاحة منها حتى آفا •

(٢) كانت نتيجة النظم والتعليمات الصينية الدقيقة ، فيما يتعلق بدخول الغرباء داخل حدود الامبراطورية أن أصبح ضروريا بالنسبة لأغراض التجارة أو تبادل السلع ، أن تقام الأسواق العامة على الحدود ، واليها يصل التجار فى أوقات معينة ومعهم بضائعهم ، يقول سايمز : « ان سلعة التصدير الرئيسية من آفا هو القطن • وهو سلعة تحمل الى أعلى نهر أراوادى فى زوارق ضخمة حتى بامبو ، حيث تتم المقايضة عليها بالسوق العامة « Jee » مع التجار الصينيين ، فيحملونها برا حينا ، ثم نهرا حينا آخر ، الى الممتلكات الصينية » • (ص ٣٢٥) • وذلك ما يحدث أيضا بقرية توبا ، قرب سنج ، على تخوم شن سى ، يقول دوهالد : « يجد المرء هنا كل ما يتمناه من البضائع الأجنبية والصينية ، ويجد أنواعا مختلفة من العقاقير ، والزعفران والبلح والبن ، وغيرها » • (مج ١ ص ٤٠) •

(٣) يوجد عند هذه النقطة تغيير لافت للنظر فى الخلاصة الايطالية المبكرة عن جميع الترجمات الأخرى ، ونظرا لأن له شيئا من الأهميه من وجهة نظر جغرافية فاننى سأورد الفقرة بكلماتها نصا :

« Quando l'huomo se parti da la provincia de Caraian ello trova una grande desmontada par laquale ello va doe zornade pur descendendo, in laqual non è habitazione alchuna ma sige (gliè) uno logo in loqual se fa festa tre di a setemena.

ومن هنا يفهم أنه عند هبوطك من مرتفعات كارايان أويون فان ، لا تدخل مباشرة اقليم مين أو آفا عينها ، ولكنك تصل بعد رحلة خمسة أيام الى ولاية ميتشاى ، التى من المعقول أن نظنها هى ولاية ميكلاى الواردة فى خرائطنا ، ومن هناك بعد قطع مسافة خمسة عشر يوما خلال الغابات ، تصل الى العاصمة • ويقول الماجور رنل : « ان المسافة بين البنغال والصين

تشغلها ولاية ميلاى ، فضلا عن مناطق أخرى ، خاضعة لملك بورما أو آفا »٠
ثم يقول : « يقال ان ملك بورما ، الذى عاصمته الشهيرة هى آفا ، وهو الاسم الذى كثيرا ما يطلق – وان خطأ – على المملكة بأكملها ، لايملك فقط اقليم ميكلاى ، بالاضافة الى اقليمى بيجو وبورما ، وانما تتبعه أيضا كل الشقة الواقعة فى شماله ٠ بين الصين والتبت وأسام » ٠ (انظر : Mem الطبعة الثالثة ص ٠ ص ٢٩٥ – ٢٩٧) ٠

ويضيف ذكر هذه الولاية المتوسطة الشىء الكثير الى سلامة السرد واستقامته ٠

● هوامش الفصل الرابع والأربعين

(١) ان العاصمة الحالية ، وهى المسماة أومار أبورا (بتشديد الميم) أو امرابورا ، مدينة حديثة العهد ، أما مدينة مين هذه ، فلابد اذن أن تكون اما مدينة آفا القديمة ، وهى الآن خرائب ، واما مدينة ما أخرى من أزمان أقدم ، وذلك نظرا لكثرة تغيير مقر الحكم بالبلاد • يقول سايمز: « ان ياجاهن ، يقال انها كانت قصبة حكم خمسة وأربعين ملكا متعاقبين ، وانها هجرت منذ خمسمائة سنة ، نتيجة لنصيحة قدسية : ومهما يكن مدى صحة تاريخها ، فمن المحقق أنها كانت يوما ما مكانا ذا فخامة غير عادية » • (ص ٢٦٩) والتوافق الزمنى فى التواريخ مستلفت للنظر ههنا ، وذلك لأن فترة خمسة القرون المنصرمة ، تجعل تخريب ياجاهن فى ١٢٩٥ ، أو فى زمن يقارب بالضبط وقت الفتح المغولى •

(٢) ان المعابد ذات الشكل الهرمى ، بصنفيها كليهما ذوى القاعدة المربعة والدائرية ، توجد حيثما انتشرت ديانة بوذا • وكثير من هذه ، وهى ذات معيار فاخر ، يصفها الكولونيل سايمز فى سياق رحلته لآفا •

(٣) يقول سايمز : « وقد علت عدد من الأجراس حول الطرف الأسفل من الداجوبا أو المطلة (Tee) كلما حركتها الريح أحدثت صلصلة مستمرة » ص ١٨٩ •

(٤) سمى هؤلاء الأفراد الذين كانوا يصحبون الجيش فى نسخه راموسيو : « Giocolari overo buffoni » •

وهو قول يعطينا معنى مفهوما ، وذلك لعلمنا من فقرات سابقة فى الكتاب ومن سابق معلوماتنا العامة عنه عادات هذه الأقاليم ، أن العرافين أو الحواة الدينيين ، كانوا يشكلون على الدوام جزءا من هيئة قيادة القائد العسكرى ، الذى اما أن يكون واقعا تحت تأثير تكهناتهم • واما أن يتخذ منهم أداة طيعة لخطته • ويسميهم بيرشاس فى نسخته «بالمضحكين» ولكن مجموعة رحلات هاريس ، التى أصدرها كامبل ، وبعض المنشورات الحديثة ،أوردت مكانها بحكمة كلمة « Cavalry » ، أى الفرسان ، بوصفها كلمة أنسب • ومع هذا فيبدو أن بالقصة شيئا من العيب ، وأن جملة قد سقطت ، كان ينبغى أن ترد بعد الجملة التى ذكر فيها تعيين

« ضابط مغوار » . (وهم يسمون فى النسخة اللاتينية الباريسية :
« Histriones and Joculatores »).

(٥) أدى هذا الاحترام المحمود الذى كانت تبـــديه القبائل التترية لقداسة القبر ، الى اكتشاف الروس فى مدافن هذا الشعب ، عددا ضخما وأضربا جمة من الأشياء التى لم تمسها يد ، فضلا عن مودعات وركائز ضخمة من المعادن النفيســـة ، التى لم يجـــرؤ الفاتحون السابقون على انتهاكهـــا .

(٦) ليس هذا بثور الياك Yak أى الثور الكث الذيل أى ذا الذيل الشبيه بالمنشة . والثور البوس جرانيان Bos grunniens ، الذى وصفه ترنر ، وذكره مؤلفنا فى فصل سابق ، وهو حيوان يقطن منطقة أبرد ، وانما هو ثور الوحش Gayal أو Bos gavaeus وهو حيــوان يوجــد متوحشا بولايات الجانب الشرقى من البنغال ، وورد له وصف واف تماما فى مج ٨ .

● هوامش الفصل الخامس والأربعين

(١) ان اسم بانجالا ، مطبقا فى هذا المقـــام على مملكة البنغـــال ، يقترب أكثر الى النطق الأصلى والتهجئة السليمة (بنجالا) من الاسم الذى تعودنا على كتابته ·

(٢) تشير هذه الفقرة اشارة واضحة الى مدارس الفلسفة الهندوكية ، التى يفسر فيها البانديت والجور والمتضلعون فى العلم ، مبادىء الفيدا والساسترا بجميع مدن البنغال والهندوستان الرئيسية · ويعد هؤلاء الناس التش هاندا وتانترا ساسترا ، أى فن السحر ، أحـد الانجـــات Angas الستة العظمى أى « مجموعات المعرفة » Bodies of lerning .

(٣) اذا كان من العدل تبرير مبالغة بأخرى ، فان سند « ضابط بريطانى » نقل عنه كروتورتون فى ترجمتهما لكتاب System Naturae تأليف لينايوس « عالم النبات السويدى (٧٨ ـ ١٧٠٧) » ، ربما أضيف دعما لبيان مؤلفنا عن ثيران البنغال ، حيث دفع الأول وهو الضابط أن يصف ويصور تحت اسم Bosarnee أى الثور الأرنى ، حيوانا ارتفـاعه أربعة عشر قدما (ولكن الآخرين خفضا ارتفاعه الى ثمانية أقدام) ، وقيل انه تم الالتقاء به فى الاقليم شمال البنغال ، والذى يظهر البحث أنه ليس سوى الجاموسة البرية التى تسمى هناك أرنا Arna · ومع هذا فان الجاموسة أى « Bos bubalus » « وهى حيوان بالغ الضخامة والقوة » اورد مؤلفنا ذكرها بوضوح تام فيما بعد ، وما قيل هنا ، لا يمكن أن ينطبق الا على الجيال Gayal ، أى Bos gavaeus الثور الهندى ، الذى يكثر وجوده ببعض المناطق الشرقية ولا يمكن مقارنته بالفيل الا على ســـبيل المجـــاز ·

(٤) الأرز واللبن هما الطعامان الرئيسيان لدى أهالى البنغال ، ولكن مع أن كثيرا من طوائفهم ليس لديها أى موانع حول تناول أى نوع من اللحم عدا لحم البقر ، الا أن تأكيد أن اللحم هو طعامهم المعتاد فيه شيء من المبالغة · من الواضح والحق يقال أن أفكار مؤلفنـــا عن الاقليم تقوم على ما رأى أو علم من الناس الذين يسكنون المنطقة الجبلية ، التى تحد البنغال من الشرق ، وفيها تختلف العادات اختلافا بينا عن مثيلاتها التى تنتشر على ضفاف نهر الجانج (الكانج) ، حيث يؤكل الثـــور الهنـــدى والغزال والخنازير البرية ، والحيوانات الضارية على وجـــه العموم ·

ويمكن تبين طبيعة ومدى الموانع التى يتخذها من يعتنقون الهندوكية بين سكان الجبال ، من الفقرات التاليـة المقتبسـة من ورقة كتبهـا المستر كولبروك بمجلة « Asiatic Researches » : « لا يذبح الهندوك فى هذه الولاية (تشالجوان أو تشيتاجومج) حيوان الجاباى Gabay الذى يضحونه مع البقرة فى مكان التقديس ، فأما الثور الهندى Asl-gayal أو السيدوى Seloi فانهم يصيدونه ، ويقتلونه ، مثلما يقتلون الجاموس البرى . والحيوان المشار اليه هنا هو نوع آخر من الثور الهندى Gayél يوجـد متوحشـا فى التلال » .

(٥) هذه منتجات شهيرة لبـلاد البنغال والولايات المجاورة لها ، وبخاصة السكر الذى ينتج بتوسع شديد ، ويصدر الى أجزاء كثيرة من آسيا ، وكذلك الى أوربا أيضا .

(٦) ان امتلاء بلاطات الهند والحرملكات بهـا بالخصيان ، الذين كثيرا ما كانوا يصلون الى أعلى مناصب الدولة شىء واضح يبدو لنا من جميع تواريخ تلك البلاد ، ولكن لا يفهم بصورة عامة ، أن أية اعداد منهم كانت تصدر من البنغال . وينبغى أن نلاحظ حقا أنه ، باسـتثناء ملحوظات قليلة هزيلة وردت فى تاريخ فرشتا Ferishtas' hist فاننا على جهل تام بشئون ــ وبصفة أخص بعادات ــ أهالى ذلك الاقليم فى القرن الثالث عشر ، بل انه حتى تواريخ النقوش على بعض المبانى الرئيسية ، فى جاور Gaur أو لوكنوتى ، التى تعتبر عاصمتها القديمة ، ليست أبكر من القـرن الخامس عشر . ومع هذا فاننا نعلم ، من كتابات باربوزا التى تمت فى ١٥١٦ ، والتى لا يستطيع قارىء واسع الاطلاع أن يشـك فى أصالتها وصحتها ، أنه فى زمانه كانت عادة الخصاء منتشرة هناك ، وان لم تكن بين السكان الهندوك ، الذين كانوا يرون فيها فعلة بشعة .

● هوامش الفصل السادس والأربعين

(١) ان الاقليم المسمى هنا كانجيجو ، والوارد فى النسخة اللاتينية الأقدم كانزيجا ، وفى الخلاصة الايطالية المبكرة كارجنجو ، « وفى اللاتينية تالو ججلا » ، ويبدو أنه يقع على الطريق الممتد من الجزء الشرقى من البنغال الى الجزء الشمالى من اقليم بورما ، اما أن يكون كاتشهار الواقعة بين سيلهيت ومكلاى ، والا فهو كاساى الواقعة بين المدينة الأخيرة وآفا . فأما المقطع الختامى جو Gu فيمكن أن يكون فى الراجح كلمة كوؤه Kouc الصينية أوكوئه Kue « أى مملكة » ، التى يظهر فى خريطة الجزويت أنه منتشر فى تلك الناحية .

(٢) ورد فى ورقة المستر كو ليبروك (المشار اليها فى هامشة ٤ ص ٢٦٠) ذكر راجا كاتشهار وأنه من كهانريا الجنس السوريا باتزى . وربما كانت مملكته فى سالف الأزمان أوسع رقعة ، وايراداته أكثر وفرة منها فى هذه الأيام بحيث كان يستطيع الانفاق على حريم بمثل هذه الضخامة . والخلاصة تخفض العدد الى مائة :

« Lo re ha ben ecuto moiere ».

● هوامش الفصل السابع والأربعين

(١) يظهر أن آمو تتقابل في الموقع مع بامـــو ، وهي التي يصفها سايمز بأنها ولاية تخوم بين مملكة بورما ويون نان ببلاد الصين .

(٢) هذه هي المسماة باسم « بوس بوبالوس » . Bos bubalus وبوس جافوس Bos gavaeus .

(٣) (الوارد في نسخة باريس اللاتينية هو خمسة عشر) .

● هوامش الفصل الثامن والأربعين

(١) لم يكن العثور على اسم يماثل ثولومان أو تولومان أو تولومان ، وهى الصور التى ترد بها هذه الكلمة فى مختلف النسخ ، — فى أية خريطة ولا أى وصف لهذه الأصقاع ، ولكن نظرا لأن الظروف المبينة تجعل من المحتمل أن يكون القطر الذى يدور الحديث عنه ، هو بلاد الشعب الذى يسمى بأسماء مختلفة : البرماهيون والبورماهيون والبومانيون والبورمانيون ، يصح لنا أن نحدس أن المقصود بالاسم هو بولومان ، وهى الطريقة المعروف أن الصينيين ينطقون بها لفظتى بورمانى وبراهمانى ، ويعنون بهما فى كثير من الأحيان سكان الهند .

(٢) وهناك مشابهة قوية بين المراسم التى يمارسها بعض الجبليين من آفا أو اقليم بورما ، المسمى كاين وبين ما يوصف هنا ، يقول سايمز : « انهم يحرقون موتاهم ، ثم يجمعون رمادهم بعد ذلك فى جرة ، يحملونها الى بيت ، وهناك يحتفظون بالجرة ستة أيام ، ان حوت بقايا رجل ، فان كانت امرأة فخمسة ، ثم تحمل الجرة بعد ذلك الى مكان مواراتها التراب وتودع أحد القبور ، وتوضع على السدادة التى تغطيها صورة خشبية للمتوفى لكى تصل الى المونزنج (الاله) وتحمى العظام والرماد » . ثم يضيف بعد هذا : « ان المونزنج يسكن الجبل العظيم « جنووا » الذى تستودع فيه صور الموتى » . انظر : Embassy to Ava ص ٤٤٧ .

● هوامش الفصل التاسع والأربعين

(١) يبدو أن الأقطار المتحدث عنها أخيرا تمت دون أدنى ريب الى ذلك الاقليم الذى يسميه الجغرافيون باسم الهند خارج نطاق الجانج « India Extra Gangem » والآن وطريق مؤلفنا يغادر وراء هذه الأقاليم ، فما يعقب هذا فى الفصول الباقية من الكتاب لا ينطبق الا على الصين أو توابعها المباشرة •

(٢) لا نستطيع أن نكتشف فى الجزء الجنوبى من يون نان (التى يمكن أن يظن أنه عاد متجها اليها) مدينة يشابه اسمها اسم تشنتجوى أو تشتنجيو ، على أن فارقا جسيما بين نص راموسيو ونصوص النسخ الأخرى يقع هنا ، وهو وضع يرجى أن يزودنا بخطيط نتعقب منه مسار الطريق • فيروى النص الأول أن مؤلفنا يواصل رحلته من تولومان بواسطة مجرى نهرى الى المدينة سالفة الذكر ، (سواء أكان ذلك فى الطريق بأكمله ، أم بصفة جزئية فقط ، فهو شيء لم يتم التعبير عنه بوضوح) • ولكن جاء فى نسخة بال ، على نقيض ذلك ما نصه :

A provincia Tholoman ducit iter versus orientem ad provinciam Gingui, iturque duodecim diebus juxta fluvium quendam, donec perveniatur ad civitatem grandem Sinuglu ».

كما ورد فى الخلاصة الايطالية المبكرة :

« Cuigui sie una provincia verso oriente laqual ello trovo l'homo quando se perti da Toloman tu vai su per uno fiume per XII.

والى مدينة سينولجو أو سيملجو تنسب جميع هذه الأحوال آنفة الذكر أعلاه حول تشنتجوى • (والاسم فى النسخة اللاتينية الباريسية هو فونلجول) • فان كان نطق كوى جوى أو كوى جيو أدق وأضبط من القراءات الأخرى ، فربما جاز لنا التخمين بأن المقصود بها هو ولاية كونى تشيو أو كيوئى تشيو الصينية ، التي لا يستبعد بموقعها المجاور ليون نان من الجهة الشرقية ، أن تكون طريقا مؤديا للعاصمة •

(٣) ان سريان عملة الامبراطور الورقية هنا ، يدل على أن القطر الذى يدور الحديث عنه هنا جزء أساسى من الامبراطورية وليس أحد توابعها القصبية ، التى كانت فيها سيادة الامبراطور وولايته ، اسمية أكثر منها حقيقية •

(٤) سجلت حالات كثيرة لمهاجمة الببور للزوارق ليلا بين الجزر الرسوبية عند مصب نهر الجانج ، التى تسمى سندربند ، وقد يحدث أحيانا أن يقضى على طوافم سـفن بأكملهـا وهم نائمـون على ظهر سـفينة •

(٥) ان كان الوحش المتحدث عنه هنا هو (الببر) فعلا وليس الأسد (الذى لا وجود له ببلاد الصين) ، وجب الاعتراف بأن الطباع التى تنسب اليه فى هذه الحكاية ، تختلف جـدا عما يتميز به نـوعه السنورى من طباع • الحيوان الوارد ذكره فى الترجمة الانجليزية القديمة الصـادرة فى ١٥٧٩ (نقلا عن النسخة الاسبانية) ليس الأسد ولا النمر ، وانما هو الفيل الذى يقال عنه انه هو موضوع هذا النوع من الملاحقـة والمطاردة بواسطة الكلاب الضخمة « Mas tie dogges » على أنى على يقين مع هذا بأن الكلاب تهاجم الببر والفهد كليهما •

(٦) تدل التجارة فى القز المصنع على أن هذا المكان موجـود ببلاد الصين ، والى الجنوب من النهر الأصفر ، والذى يعد حدا جغرافيا لا تربى دودة القز بعده لأغراض الصناعة •

(٧) ربما أمكن أن يقودنا النص أن نستنتج أن سى دن فو المتحدث عنها هنا هى نفس تشنتى جوى الوارد ذكرها عند بداية هذا الفصل ، وذلك نظرا لأن رحلة الاثنى عشر يوما من ثولومان يشار اليها من جديد ، ولكن من الواضح من ناحية أخرى اننا أميل الى أن نفهم انها المدينة التى سبق وصفها (فى الفصل ٣٦) تحت اسم سن دن فو ، والتى اظهرنا فى هـ ١ ص ٢٣٤ أن المقصود بها هو تشنج توفو ، عاصمة ولاية سى تشوين • وهى مدينة لابد أنها تقع على الطريق الموصل بين آفا وبين ولاية يون نان فى اتجاه مدينة بكين •

(٨) الحق اننا نلمح فى هذا الجزء من العمل درجـة غير عادية من ارتباك فى الناحية الجغرافية ، يزيد فيها انعدام الاتفـاق بين مختلف الترجمات ، الذى لا يقتصر فقط على التهجئة بل فى أسماء الأماكن بكاملها وفى الظروف أيضا • فرحلة العشرين يوما التى يذكرها نص راموسيو ، لم ترد فى النسخة اللاتينية ولا فى الخلاصة الايطالية المبكرة ، كما أنه يبدو لأول وهلة غير محقق : هل هو يقصد بجن جوى تلك الولاية الجنوبية التى تسمى فى النسخة الأخيرة كوى جوى ، وخمنت بأنها كوكس تشبو ، أم أن المقصود بها كن تشيو الواقعة على نهر كيانج ، أم (مع التسـليم بوجود ثغرة كبيرة فى اليوميات) أن المقصود هو كن تشيو أخرى فى ولاية ببيه تشيه لى • أما عن المدينة التى يسميها راموسيو با زان فو فان النسخ الأخرى تسميها كاوكاسـو أو كانكازو • ولكن تجابهنا عند هذه النقطة

صعوبة أخرى جديدة تضـاف الى الخلط الواقع فى الأسماء ولابد لنا من الاصطدام بها • وذلك لأنه نظرا لأن الاتجاه العام للرحلة .كان أخيرا نحو الشرق ، كما هو مبين فى النص ، أو الى الشمال الشرقى ، كما يستنتج من الواقع ، فكذلك يحدث فى هذا المكان ومن الآن فصاعدا ، اننا نجده يوصف بأنه يتجه الى الجنوب ، وان بدا من الفصول السابقة أن الولايات الجنوبية بالصين ، قد تم الدخـول اليهـا من ناحيــة ميين أو آفا • وكثيرا ما حدث أن افتقار مؤلفنا الى الدقة فى الوجهات ، كما تتصل بالنقط المتوسطة والجهات الفرعية للبوصلة ، تطلب لنا استعمال التسامح معه ، ولكن التسامح لا يمكن مده حتى يشـمل الخطأ فى الشـمال وجعله الجنوب ، كما أن تصحيحا من هذا القبيل فى حالة أو اثنتين لن يجدينا نفعا ، وذلك لأننا سرعان ما سنجده يقترب من النهر الأصفر من الناحية الشمالية ، ويعبر ذلك النهر ، وفى ثنايا مواصلته لطريقه جنوبا ، يصف أماكن معروفة تقع بينـه وبين نهر كيانج ، الذى يعبره أيضا وهو فى طريقه الى ولاية فوكيين • وتبعا لذلك صـار لزاما علينـا أن نبحث فى احدى أقصى الولايات شمالا عن بازان فو ، وسيكون لنا كل الحق فى أن نستخلص ، أن مسارا جديدا للرحلة ، لم يلحظه حتى الآن فيما يبدو ، أى ناشر للكتاب أو معلق عليه ، بدأ من مكان ما ، يقع الى جوار العاصمة ، وان المحاولة الفاشلة لربط هذا المسار بالطريق السابق ، باعتباره مشكلا لرحلة واحدة ، كان السبب الرئيسى فى حدوث الارتبـاك ، الذى كان مثارا لشكوى كل قارىء حاول متابعة مجرى الرحلات •

(٩) اتضح أنه يقال – ان الطرق تفترق على بعد ميل تقريبا من مدينة تسوتشو بولاية بيه تشيه لى ، حيث يؤدى أحدهما الى الولايات الجنوبية الغربية ويؤدى الآخر الى الجنوبية الشرقية • وكان الطريق الأول هو الذى اتبعه مؤلفنا فى طريقه الأول ، ووصفه حتى نقطة معينة تركتـه عندها مذكرته الأصلية ناقصا لم يكتمل ، أو أن نساخه الأول ، راحوا – رغبة منهم فى تجنب التكرار العملى لأسماء مجهولة ، كما أنها بالنسبة اليهم غير مشوقة ، الى انهائه على نحو مفاجىء • فأما الطريق الآخر المتجه جنوبا بشرق ، فانه هو الذى أوشك الآن على أخذه والدخول فيه • ومن الطبيعى لنا ونحن واقعون والحالة هذه تحت الاقتناع ، بأن خط سير جديدا قد بدأ فى هذا الجزء من القصة تقريبا ، من مكان ما قرب تسـو تشو ، حيث تفترق الطرق ، أن نعتبر أن المدينة المسماة الآن هوكيين فو (وهى الأولى من الطريق الجنوبى) هى نفسها بازان فو الواردة فى نسخة راموسيو ، أو كاكاوسو (بدلا من فو) فى طبعة بال ، وهو رأى سنجد ما يقوى احتماله ، مهما بلغ من تنافر الأسماء صوتيا ، عندما نمضى الى بيان الأماكن

التى تمت زيارتها فيما بعد . والواقـــع أن هوكييي فو (والتترى ينطق المقطع الأول منها « كو ») هى المدينة الثالثة فى المرتبة بالولاية ، وانها تشتق اسمها من موقعها : « بين الأنهار » .

(١٠) ان عبارة Certi Christiani اما أن تعنى فرقة (أو طائفة) من المسيحيين ، متميزة عن النساطرة ، الذين كثيرا ما ورد ذكرهم بالفعل ، أو ربما أشارت الى النساطرة أنفسهم ، بوصفهم ، نـوعا من المسيحيين لا يعتنق الكثلكة .

● هوامش الفصل الخمسين

(١) نجد فى شرق هوكيين ، مع ميل نحو الجنوب ، مدينة من الدرجة الثانية ، تتبع دائـرة سلطات المدينـة الأولى ، التى سميت فى خريطة دوهالد تسان تشيو ، وهى تسمية صحيحة ، ولكنها فى أطلس مارتينى كَانج تشيو ، وهى تسمية مغلوطة من كانج لو · وواضح أن تلك هى كيانجلو أو تشانج و · الوارد ذكرها هنا ·

(٢) ربمـــا أمكن الظن من هذا التفصيل للعمليـــة ، أن نترات (الصوديوم أو البوتاسيوم) أو الملح الصخرى ، لا الملح العادى هى المادة التى يحصل عليها بهذه الطريقة · على أن الفقرة التاليـــة المنقولة عن ترجمة Description Générale de la Chine تأليف جروسييه رئيس الدير ، لن تترك مجالا للشك فى هذه النقطـــة : « تكثر نترات البوتاســـيوم أو الصوديوم (النطرون) فى الترابة التى تؤلف تربة بتشللى ، ويمكن أن تشـــاهد حقولا بأكملهـــا فى المنطقة المجـاورة لبكين مغطاة به · فعند شروق الشمس كل صباح تبدو البلاد فى بعض الكانتونات بيضاء ناصعة كأنما انتشر فوقها هطول خفيف من ندف الثلج · فلو جمع مقدار من هذه المادة لأمكن استخراج مقدار ضخم من الكيين أى النطرون والملح منـــه · ويدعى الصينيون أن هذا الملح يمكن احلاله محل الملح العادى · ومهما يكن الأمر ، فمن المحقق أنه فى الطرف (الجبلى) للولاية ، لا يستخدم الفقراء ولا الشطر الأكبـــر من الفلاحين أى صنف (ملح) آخـــر · أما الكيين أو النطرون المستخرج من الأرض فانهم يستخدمونه فى غسل الثياب الداخلية ، كما نستخدم نحن الصابون » · مج ١ ص ٢٧ ·

(٣) تفسر القواميس قوله « Peso alla sottile » بميزان البضـــاعة الدقيقة ، الأخف وزنا من غيرها ، وهو شىء يتقابل وفارق الأربعة عشر والسبعة عشر ، بين نظام الموازين الدقيقة والثمينة عندنا وبين نظام موازين المواد الثقيلة (المستخدم بانجلترا وأمريكا) ·

● هوامش الفصل الحادى والخمسين

(١) يبدو أن مدينة كيانجلى أو تشانجلى هى مدينة تيه تشيو ، التى تقع عند مدخل ولاية شان تونج ، وعلى النهر المسمى أويثى هو « بخريطة دوهالد » و « ايوهو » فى : Account of Lord Macartney's Embassy .

(٢) (يلاحظ ستاونتون) أن ضريبة ترانزيت (أى عبور) تجبى على البضائع المارة من ولاية صينية الى أخرى ، حيث تشتهر كل ولاية بصفة رئيسية بانتاج سلعة معينة ، حيث يرفع نقلها ــ تلبيــة للطلب عليها فى ولايات أخرى ــ هذه الرسوم حتى تصبح مبلغا جسيما ، وتشكل التجارة الداخلية الكبرى ومصدر الدخل للامبراطورية ٠

● هوامش الفصل الثانى والخمسين

(١) لدينـــــا من الأدلة التاريخيـــة ما يثبت أن تودين فو هى تسى تان فو ، (وكتبها مارتين كينان فو) ، وهى عاصمة ولاية شان تونج.

(٢) ان خطوط سير رحالتنا المحدثين لم تدفع بهم الى زيارة هذه المدينة ، ولكن السفارة (البعثة) الهولندية لعام ١٧٩٥ تمر أثناء عودتها من خلال العديد من المدن الواقعـة تحت دائرة سلطانها • وعند اقتراب فان برام من احدى هاته المدن ، وهى المسماة بنج يوين شن ، يصف المناظر فى عبارات تماثل أوصاف مؤلفنا ، ولكنها أفخم مما استخدمه الأخير ، كما أن بساتين الفواكه كانت موضع ملاحظة خاصة منه •

(٣) حدد كتاب Hi.t. Gén. de la Chine الظرف الذى شرع مؤلفنا يتحدث عنه بفترة أسبق بعشر سنوات • ولاشك أن الأرقام الرومانية ، التى كتبت بها التواريخ فى النسخ المخطوطة القديمة ، آكثر عرضة للخطأ من الأرقام العربية ، أو بمعنى أصـــح الأرقام الهندية ، التى أصبحت تستخدم الآن •

● هوامش الفصل الثالث والخمسين

(١) يبدو أن الظروف المذكورة هنا حول سن جوى ماتو ، تشير الى لن تسى تشيو ، المدينة التجارية الضخمة ، التى تقع عند الطرف الشمالى ليون هو أى القناة العظمى ، أو قل عند بدايتها . ومصطلح ماتو أو ماتيو المضاف الى الأسماء ، معناه على ما يخبرنا دوهالد (مج ١ ص ١٣٧)، « أماكن تجارية مؤسسة على الأنهار من أجل راحة التجار وجباية لرسوم الامبراطور » ، ويعرف البروفسور ماجالهانز « ماتيو » Mà-teû بأنها : « مكان يرتاده الناس للتجارة ، وذلك نظرا لأن الصنادل تتجمع فيه ، وتلقى مراسيها لتقضى فيه ليلها » . انظر Nouv. Relat. de la Chine .

(٢) ربما جاز اعتبار المقصود من هذه التعبيرات ، وصف تشكيل القناة نفسها ، وهى التى لابد أنها ، بطبيعة الحال ، كانت تزود بالماء ، بتحويل مياه مجرى النهر بالقدر اللازم لذلك الغرض ، ونتيجة لهذا يمكن القول بأن العملية تقسم النهر الى فرعين ، ولكن يمكن الظن بأنها تشير (أى التعبيرات) بالحرى الى الظرف العجيب التالى الذى لوحظ فى بيان سفارة لورد مكارتنى : « Lord Macartney's Embassy » فى اليوم الخامس والعشرين من آكتوبر (وهو اليوم الثالث بعد رحيلها من لن تسنج) وصلت اليخوت الى أعلى نقطة فى القناة ، وهى مسافة تقارب خمسى طولها الكامل . وهنا تسقط فى القناة مياه نهر لوين ، وهو النهر الأكبر الذى يغذيها ، محدثة تيارا سريعا ، فى خط عمودى على مسار القناة . وهناك ركام قوى من الأحجار يدعم الضفة الغربية المقابلة ، واذ تصطدم مياه لوين به بقوة فان جزءا منها يحاذى الضفة الشمالية ، وجزءا آخر يتابع المجرى الجنوبى للقناة — وهى حال — يترتب على عدم شرحها فى الجملة لا فهمها — أن تضفى مظهرا عجيبا على القول ، بأنه لو ألقيت حزمة من العصى فى ذلك الجزء من النهر ، فانها سرعان ما تتفرق وتتخذ اتجاهات متضادة (مج ٢ ص ٣٧٨) واسم هذا المكان هو تس نجن تشيو فى خريطة دوهالد.

وتسدن جن تشو فى خريطة سفارة (اللورد) ، وهو وضع فيه مشابهة واضحة لسن جوى الواردة فى نصنا هذا ·

(٢) يقول المستر الليس : « أقول انه ، بعد شدة وفرة السكان مباشرة يكون ثانى شيء يسترعى الأنظار حتى الآن هو مقـــدار السفن المستخدمة على الأنهار ، التابعـة للامبراطورية الصينية » · انظـــر : « Journal of an Embassy etc ». ص ١٠٩ ·

● هوامش الفصل الرابع والخمسين

(١) هذا هو الاسم التترى للنهر الذى يسميه الصينيون هوانج هو ، والذى نسميه النهر الأصفر ، ومنبعه بالاقليم الواقع بين تخوم الصين الغربية والصحراء الكبيرة ٠

(٢) لابد أن فى رقم خمسة عشر ألفا مبالغة فظيعة ، ان لم يكن حريا بنا أن نعده خطأ فى النقل ٠ والخلاصات الايطالية المبكرة تقول انها خمس عشرة سفينة ، ولكن هذا سخف يقابل الأول فى تطرفه ، ولذا فمن المرجح أن يكون الرقم المقصود هو خمس عشرة مائة ٠ وموقع هذه الناقلات يقال عنه فى نسخ أخرى انه على مسيرة يوم من البحر ، بدلا من كونه على بعد ميل واحد ٠

(والميرة : الأغذية) — المترجم ٠

(٢) لا نستطيع أن نتردد ترتيبا على موقعها وتشابه الأسماء ، أن نعدها هى مدينة هو آى جنـــان فو ، التى تقع قرب الشاطئ الجنوبى الشرقى لنهر هوانج هو ، عند المنطقة التى يعبره عندها خط القناة الكبرى، كما أنها هى نفسها ربطت بذلك النهر بواسطة قناة صغيرة ٠ ان جميع الكلمات الصينية البادئة بالحرف الهائى ، ينطقها التتار الغربيون بصوت حلقى شديد وذلك شـــأن النطق الحلقى لهذا الشعب ، حيث ينطقه الصينيون مخففا ومرققا حتى يصبح هائيا (يماثل التنفس بحرف الهاء): فهم بدلا من خان ينطقون هان ، وبدلا من كوكونور — (الحلقية) (وهى بحيرة كبيرة معينة) ينطقون هوهونور (الهائية) ، وبدلا من كوتوخ تو (وهى المرتبة الثانية من اللامات) ينطقون هوتوتو ٠

(٤) ان المكان المسمى هنا كوان زو ، وهو فى نسخة بال كاى جوى ، كما أنه فى الخلاصات المبكرة كاى كوى ، لا يظهــر فى الخرائط ، ولكن يبدو أنه المكان الذى يذكره ده جنى تحت اسم يانج كيا ين ٠

● هوامش الفصل الخامس والخمسين

(١) ليس بين أيدينا من المعلومات ما نحدد به التخوم الدقيقة لا لمانجي ولا لخاتاى ، ولكن من الواضح أن مؤلفنا كان يعد ـ بصفة اجمالية ـ ذلك الجزء من الصين الواقع جنوب نهر هوانج هو أو النهر الأصفر ، تابعا لما يسميه ولاية مانجي ، أو تابعا مع بعض تحديدات قليلة ، لامبراطورية أسرة صونج ، كما يعتبر أن خاتاى أو كاثاى هى الجزء الواقع الى شمال ذلك النهر ، وهو الجزء الذى فتحه المنغال (المغول) مغتصبين له ، لا من الصينيين بل من أسرة كن أو التتار النيوتش ، وهو أقليم أخضعوه تحت اسم خاتاى أو كاثاى .

(٢) لم تكن كلمة فكفور هذه اسما لأمير فرد بعينه ، ولكنها كانت هى لقب الفغفور « الذى أطلقه العرب وغيرهم من الشعوب الشرقية على أباطرة الصين تمييزا لهم عن ملوك التتار . وهو يدل أيضا (طبقا للقواميس) على خزف البورسيلين الصينى ، ولعله يعنى أيضا ما يسميه الفرنسيون بصفة عامة ، خيط « Magats de la Chine » وكان اسم الامبراطور الذى يتولى الحكم فى ذلك الوقت هو توتسونج .

(٣) ذلك وأن مؤلفنا ليرسم شخصيته ملونة بألوان أنسب وأجمل مما رسمه المؤرخون ـ الصينيون ، الذين لا يخففون ما فيها من ظلال قاتمة بنور أية فضيلة اتصف بها .

(٤) اكتسبت ممارسة تعريض الأطفال الرضع للموت وبخاصة الاناث منهم ، شنعة وسوء سمعة منذ أن تعرض مؤلفنا لها هذا التعرض الأول والذى لا لبس فيه . يقول بارو : « أن عدد الأطفال الذين كانوا يقتلون بهذه الطريقة غير الطبيعية واللا انسانية ، أو يودون الحياة فى مدى سنة واحدة ، يختلف تقديره باختلاف المؤلفين ، حيث جعله بعضهم عشرة آلاف وبعضهم الآخر خمسة وثلاثين ألفا فى الامبراطورية كلها . فأما حقيقة الأمر ، فربما كانت كما يحدث بصفة عامة ، فى متوسط هذين الرقمين . ويقوم بين المبشرين ، الذين يملكون وحدهم وسيلة التحقق التقريبى من عدد الضحايا الذين يضحى بهم فى العاصمة ، اختلاف كبير فيما يقدمونه من بيانات . فلو أخذنا المتوسط على ما أورده من تحدثنا عنهم فى هذا الموضوع ، أمكن أن نستخلص أن أربعة وعشرين وضيعا كانوا فى المتوسط يحملون كل يوم فى بكين الى حفرة الموت . وهذا

التقدير يجعل الضحايا تسعة آلاف كل عام للعاصمة وحدها ، بينما المظنون أن عددا يكاد يعادل هذا كان يعرض للموت فى جمع الأجزاء الأخرى للامبراطورية » . انظر Travels in China ص ١٦٩ .

(٥) تصف الطبعة اللاتينيـــة على النحو التالى الأسلوب الذى كان يتولى به الإمبراطور الانفاق على جزء من هؤلاء الأطفال :

Rex tamen infantes, quos sic colligi jubet, (tradit divitibus quibus qus, quos in regno suo habet.

ويبـدو أنه كانت هنــاك فى عهد الامبراطور كانج هى أيضا ، (ومات فى ١٧٢٢) ، مؤسسة عامة لاستنقاذ الأطفــال الذين يلقون على هذا النحو طعمة للموت .

(٦) المعنى الحرفى لكلمة بايان ، أو كما ينطق الصينيون الاســم بيه ين ، هو تلك اللغة « مائة عين » ، ويمكن اعتبارها كنية أو نعتا لهذا المقاتل الممتاز ، ترجع الى شـدة يقظته ، وحذره ، وسرعة مبادرته الى استغلال الفرص .

(٧) حدثت أولى العمليات الحربية فى الحرب التى شنت على أسرة صونج ، وهى الأسرة الحاكمة فى مانجى ، (حســبما يـروى كتـاب (L'Histoire Générale) جهة الغرب ، قرب سيانج يانج ، التى حوصرت فى ١٢٦٩ (قبل وصول مؤلفنا الى بلاد الصين) ، وان لم يتم الاستيلاء عليها حتى ١٢٧٣ .

(٨) ربما كان هذا هو الجيش الذى اســتخدم فى اخضـــاع سيانج يانج .

(٩) يظهر أن مؤلفنا كدس فى هذا المكان تحت حكم ملك واحد ، أحيانا تمت الى ملكين أو أكثر ، أعقب كل منهم الآخر تعاقبـــا سريعا . فقد مات الامبراطور توتسونج ، الذى قيل ان خلقه غير الحربى والفاسد ، جلب على بلاده النكبات التى حلت بها فى عام ١٢٧٤ حتى أجلس وزيره الذى كان يتحكم فيه ، بنصائحه السيئة تحكما مطلقا ، ابنه الثانى وهو الطفل الصغير على العرش ، وأعلن تعيين أمه الامبراطورة وصية عليه وهو قاصر . ثم وقع ذلك الأمير فيما بعد واسمه كونج تســونج ، أسيرا فى قبضة التتار ، ولكن الصينيين ، الذين كانوا لا يزالون يتعلقون بمصائر الأسرة المالكة المتحضرة ، أسبغوا اللقب الامبراطورى على أخيه الأكبر ، الذي كان اسمه توان تسونج ، والفقـــرة فى هذا النص تتعلق بقـــدره ومصـــيره .

(١٠) تلك هى فيما نعتقد الحكاية الشائعـــة بين الناس ، التى يرددها مؤلفنا كما سمعها ولكنها فى الراجح لم يكن لها أساس الا نبس لفظى صينى يدور حول اسم ذلك القائد العظيم ، الذى كان سيده مدينا لمواهبه الفذة بفتح جنوب الصين ، وفيه يقول المؤرخون الصينيون : « انه كان يقود جيشا ضخما كأنما هو فرد واحد » ٠

(١١) تم تسليم العاصـمة فى ١٢٧٦ ، ولكن فتح الصـــين لم يتم الا فى نهاية عام ١٢٧٩ ، نتيجة لمعركة بحرية كبيرة ٠

● هوامش الفصل السادس والخمسين

(١) تقع المدينة على خمسة أميال تقريبا من النهر الأصفر ، الذى تتصل به بواسطة القناة الكبرى ٠

(٢) يقول البروفسور مارتين : « يوجد قرب ذلك المكان مستنقعات مالحة ، يستخرج منها الملح بوفرة » ٠ انظر Thevenot جزء ٣ ص ٣٢١ ٠

● هوامش الفصل السابع والخمسين

(١) تشكل هذه الجسور كورنيشى القناة ، وتفصلها - على مستوى أعلى - عن مياه البحيرة • ويبدو أنه لم يكن هناك فى زمن مؤلفنا سوى كورنيش وحيد بهذه المنطقة ، كان يتم بواسطته رفع مياه البحيرة ، فى هذا الجانب الذى تغذيه النهيرات ، الى مستوى مصطنع • ويلاحظ استاونتون أن قدرا كبيرا من الاقليم وكان فيما مضى مغمورا بالمياه ، جفف وأصبح منزرعا •

(٢) من هذا ينبغى أن يفهم أن أسطول الناقلات دخل فى القناة ، أو الجزء من البحيرة الذى كان يقوم بعمل القناة ، وكان يتحمل الجند الى جيرة مدينة هو آى جنان ، التى تقوم على شاطئها وسط مستنقع •

(٣) هذه هى بساو ان تشيو الواردة فى (Van Braams Journal) وهى بارين هيين فى خريطة دوهالد ، كما أنها باوييئج شيين فى خريطة استاونتون •

۞ هوامش الفصل الثامن والخمسين

(١) مهما بدت الأسماء مختلفة ، فان من الواضح أن هذه هى مدينة كا أويو ، الواقعـــة على ضفاف البحيرة والقنـــاة ، وليس من المستبعد ان كا أن Kâin خطأ مطبعى حدث فى كائيو Ka-iu أو كاييو Ka-yu ، وذلك شأن كل اسم تقريبا ينتهى بحرف u حيث يقلب الى حرف آخر يشبهه شكلا فى اللغات الأوربية .

● هوامش الفصل التاسع والخمسين

(١) يبدو أن تنجوى أو تنجيو ، هى نفسها مدينة تائى تشيو الواردة فى الخرائط ، وهى مدينة من الدرجة الثانية ، تتبع يانج تشيو فو، وان لم يجتمع لدينا عنها الا القليل من المعلومات ، نظرا لوقوعها خارج طريق الرحالة • على أن موقعها بالنسبة للبحر ، وفى وسط مصانع الملح ، يساعد على تحديد هويتها ويلاحظ مارتين : « يوجد كثير من الملاحات فى شرق المدينة (يانج تشيو) حيث يصنع الملح من مياه البحر » • ص ١٢٩ •

(٢) ربما جاز لنا أن نقول ان هذا المكان ، بوصفه سوقا لتصدير الملح الى الولايات المختلفة ، انما يقع قرب النهر العظيم ، كما أن مدينة تنج كيانج هيين تبدو كأنما هى فى ظروف مناسبة تماما لتلك التجارة • على أنه ينبغى أن يلاحظ مع ذلك أن تشن جوى أو سن جوى مميزة عن تن جوى ، لا توجد فى نسخة بال ولا فى خلاصة البندقية •

● هوامش الفصل الستين

(١) لابد أن جهات البوصلة الأربع حرفت هنــا تحريفا عظيما ، ولكن مهما تكن المواقع المحددة لهذه الأماكن التافهة القدر الوارد ذكرها فورا ، فان يان جــوى أو يان جيـــو . يرقى شك الى كونها مدينـــة يانج تشيو فو ، ومع أن زمام الثانية لم يـكن يحتــوى ، فى القــرن السابع عشر ، حســـبما يروى مارتين الا عشرا مــن المدن ، بدلا مـن أربع وعشرين . يقول دوهالد : « انها مدينــة تجارية جدا ، وتدور بها تجارة عظيمة فى جميع أنواع الأشغال الصينية .. ولا شـــك أن الجزء الباقى من القناة حتى بكين ، ليس به بلد يمكن أن يقارن بها . ومحيط يانج تشيو فرسخان .. ويمكنك أن تعد فى المدينة ، فضلا عن الضواحى، مليونى نسمة » (مج ١ ص ١٣٤) . ويتحدث عنها استاونتون قائلا انها مدينة من الطراز الأول ، تحمل بصمات عهود ســـحيقة القدم . فهـو يقول : « وهى لا تزال تحمل مظهر المدينة التى تتواصل بهـــا تجـارة عظيمة ، ولم يكن بها أقل من ألف مركب من مختلف الأحجـــام ، ترسو قريبا منها » . ص ٤٢٠ .

(٢) لم يتضح من البيان عن المحكمة المدنية المؤلفة مــن اثنى عشر عضوا ، المذكورة فى الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب ، والهامشة ٢ ص ٢٠٦ ، ـ كما تتضمن هذه الفقرة ، ان حكام الولايـات أو نـــواب الملك ، كما يسمون (تسونج تو) ، كانوا ينتخبون من بين هيئتهم . وربما حدث هذا الاختيار من حين الى آخـر ، بغير أن يكون هو القاعدة الثابتة أصـــلا .

● هوامش الفصل الحادى والستين

(١) مما لا مجال للشك فيه أن المقصود من نـان غن (وهى فى نسخة بال ناويجوى وفى المخطوطات وكذا الخلاصة ناين جوى) ـ هو دون أدنى ريب نانكين ، الذى كان فيما مضى اسم الولاية ، أسمتها الأسرة الحاكمة كيانج نان ٠

هوامش الفصل الثانى والستين

(١) عند انتقال مؤلفنا الى وصف هذه المدينة الرائعة ، يبتعد عن أشكال وصف خط السير ، فلا يذكر بعدها ولا شكلها أوضاعها بالنسبة لأى من الأماكن السابق وصفها • وتقع سيانج يانج بالجزء الشمالى من ولاية هو كوانج ، الملاصقة لولاية كيانج نان ، على نهر هان ، الذى يصب مياهه فى نهر كيانج ، وكان عدد المدن الواقعة فى دائرة اختصاصها فى الوقت الذى كتب فيه مارتين ، سبعا ، بغض النظر عن بعض القلاع •

(٢) طبيعى أن ندهش لهذه البيانات المكررة ، من حيث انه حتى بالمناطق الوسطى من الامبراطورية اعتاد الأهالى احراق موتاهم • ومع هذا يبدو من الملاحظات التى أبداها السادة أعضاء البعثة الهولندية ، أثناء مرورهم من خلال ولاية كيانج نان ، أن دفن الموتى ليس حتى فى أيامنا هذه عادة عامة منتظمة كما كان يظن ، وربما كان من العدل التخمين بانه كان كثير من الخرافات الصينية ومعها مبدأ تقمص الأرواح ، مستعارة من جيرانهم الهنود ، فان مناسك المحرقة الجنائزية ربما كانت فيما مضى لا تزال أكثر انتشارا منها الآن •

(٣) طبقا لمن كتبوا مستندين الى الحوليات الصينية ، تكون سيانج يانج حوصرت فى ١٢٦٩ وفتحت فى ١٢٧٣ ، وذلك بينما هانج هانج تشيو ، عاصمة أسرة صونج ، لم تدع الى التسليم حتى عام ١٢٧٦ • ولذا فان مؤلفنا بدلا من أن يقول ان مانجى كلهـا فتحت أثناء استمرار الحصار ، كان ينبغى عليه أن يقصر قوله ذاك على جزء ضخم منها •

(٤) وجهت العمليات العسكرية ، ابتداء ، على فان تشنج ، فى الجهة الشمالية من نهر هان ، وهى مدينة مواجهة لسيانج يانج ، وتعد نوعا من الضواحى بالنسبة اليها ، وهى (أى سيانج يانج) تبدو فى خريطة دوهالد ، محوطة احاطة جزئية بمنحنى فى ذلك النهر •

(٥) فى طبعة بال ، ينسب المؤلف لنفسه نصيبا من ذلك الفضل ، حيث يقول ما نصه :

« Illo enim tempore ego et pater meus atque patruus fuimus in imperatoris aula ».

كما ورد فى الخلاصة الايطالية ما يلى :

« Certamente la fo presa per industria de miser Nicolo e Mafio e Marco ».

(٦) ربما جاز لنا أن نفهم من نص نسخة راموسيو أن هؤلاء الناس انما هم نصارى آسيويون ، وربما كانوا من الأغور أو الأروام ، الذين كانوا يعدون عندئذ أمر الناس المستخدمين فى بلاطات التتار أو جيوشهم وغيرهم من أمراء الشرق ، وأحسنهم علما • وعلى نقيض ذلك تتحدث عنهم نسخة بال بأنهم :

fabros lignarious Christianos quos nobiscum habuimus ».

كما تتحدث الخلاصة بأنهم :

« Maestri Venetiani che era cerano in quelle parte ».

(٧) كثيرا ما تذكر الحوليات الصينية سقوط الأحجار النيزكية • انظر : Voyage à Péking تأليف ده جنى مج ١ ص ص ١٩٥ ــ ٢٥٠ •

(٨) ينبغى ألا يغيب عنا هنا ، أن عدم تناقض المؤلف مع نفسه وضع هنا تحت اختبار مرير ، حول الموعد الذى حدد بصفة عامة تاريخا لسقوط مدينة سيانج يانج ، وهو تاريخ ، لو أنه حدث فعلا عند ختام عام ١٢٧٣ ، لم يسمح بأكثر من سنتين لرحلة أسرة بولو من عكا بفلسطين ، التى غادروها بالتأكيد حوالى نهاية ١٢٧١ (كما هو موضح فى هـ ١ ص ١٩) ، حتى وصولهم الى بكين ، بينما الوارد فى نسخة راموسيو ، وان لم يرد فى طبعة بال ، انها استغرقت ثلاث سنوات ونصفا • واذن يصبح من الضرورى تبنى أحد أمرين ، فاما أن يكون الزمن الذى قضوه فى الطريق لم يزد فى الحقيقة على الفترة سالفة الذكر ، واما أن الحصار لم يتم بالسرعة التى أوردها البروفسوران جوبل ومايلا ، ويحصل الفرض الأخير على درجة ما من الأرجحية • نتيجة لتأكيد مؤلفنا المتكرر بأن هذا كان من بين أماكن مانجى الأخيرة التى صمدت أمام التتار •

● هوامش الفصل الثالث والستين

(١) قد خرج مؤلفنا عما قد يمكن اعتباره خط طريقه لكي يتحدث عن مكان مهم وعجيب مثل سيانج يانج ، وهنا أيضا يعود بخطوة واسعة جدا الى الولايات الشرقيـــة • وليس ثمة مدينة تستجيب بقوة للوصف الذى قدمه لسن جوى ، مثل كيوكيانج ، الواقعة عند الطرف الشـــمالى لولاية كيانج سى ، وهى التى سميت تن كيانج ، كما ينبؤنا مارتينى ، فى عهد أسرة صونج •

(٢) يذكر السير ج • استاونتون أن عرض نهر كيانج عند المكان الذى يلتقى به خط القناة يقارب ميلين انجليزيين ، كمـــا يقدره المسيو ده جنى بفرسخ فرنسى ، ولكن عرضه قرب البحـــر يكون بطبيعة الحال أكبر كثيرا • ولما كان ينبغى لنا أن نعتقد أن مؤلفنـــا يتحدث عن عرضـــه قرب المدينة ، التى يصف ، فلعله ينبغى لنا أن نفهم أنه لا يتحدث عن أميال ايطالية بل صينية ، أو « لى Li » ، وهى تعادل ٣ : ٨ من الأولى ، ومن ثم فان تقديره يتفق عندئذ مع تقدير الرحالة العصريين • والى مدينة كبوكيانج ، يمتد مد البحر وجزره ، وهنا يقال من ثم انه يتغير اســـمه من تاكيانج ، أو النهر الأعظم الى يانج كيانج أى ابن البحر •

(٣) يقدر بارو طول مجراه بألفين ومائتين من الأميال ، ومعنى ذلك أن متوسط السفر فيه سيكون اثنين وعشرين ميلا يوميا ، أو ربمـــا ثلاثين ، مع وضع مالا سبيل الى تجنبه من توقفات وأعطال فى مجرى له مثل هذا الطول ، فى حسباننا • على أنه ينبغى ألا يفهم بصفة عامة أن مسيرة يوم كامل ، هى ما يستطيع المرء قطعه فى عدد معين من الساعات ، وانما هو فى الحقيقة المســـافة الفاصلة بين اثنين من مراسى الاستراحة المعتـــادة •

(٤) لم يكن تقسيم الولايات فى تلك المدة مطابقا للتقسيم الموجود حاليا ، حيث العدد كله انما هو اليـــوم خمس عشرة فيما عدا جزيرة هاى نان •

(٥) يبدو أن الملح يصنع بصفة رئيسية فى ذلك الجزء من كيانج نان ، الذى يقع بين البحر شرقا وبحيرة كاؤيبو غربا ، ونهر كيانج جنوبا • وبعد نقله بالسفن فى الأخير يحمل الى أقصى مناطق الصين بعدا ، بيد أن شطرا ضخما منه يذهب الى العاصمة •

(٦) ان مدينة كيوكيانج ، التى تتقابل على أحسن وجه مع الظروف المروية عن سن جوى ، يتحدث عنها العلامة مارتين على هذا النحــو : « ان كيوكيانج مدينة كبيرة عظيمة التجارة ، على الضفة الجنوبية لنهر كيانج ، حيث يلتقى ببحيرة بويانج الكبيرة : ويصعب على المرء أن يصدق العدد الضخم من السفن الموجودة به ما لم يرها بعينى رأسه ، فانها تجىء فى هذا النهر من كل مكان يقع فى أقصى أرجـــاء الصــين ، وكأنى به ملتقاها ، الذى تجتمع فيه لكى تنطلق الى البحر » • ص (١١١) •

(٧) يمكن مشاهدة صور هذه السفن فى اللوحات المرافقة لبيانات جميع السفارات المرسلة الى الصين •

(٨) جرت العادة بترجمة القنطار Cantaro بكلمــة كوينتــال أو هندردويت (وهو وزن انجليزى يعــادل ١١٢ رطـــلا انجليزيا) وهو ما يجعل حمولة هذه السفن مائتى طن • قد تصـــل الى ستمائة : على أن قنطار بعض أجزاء ايطاليا أصغر من قنطار البعض الآخر •

(٩) ربما ظن من رأوا حبـــال سفن الجزر الشرقية أن هذه قصة فتل الخيزران حبالا ، كانت غلطة وردت بدلا من صناعة الحبال بفتل نبات الروطان (أى أسل الهند) أو ضفره ، وهو الشائع استخدامه فى ذلك الغرض ، ولكن صحة أقوال مؤلفنا فيما يتعلق بالمادة المستخدمة فى صنع الحبال ، يثبتها تماما شهادة الرحالة العصريين • يقول المستر الليس Ellis « حتى الحبال التى كانت تربط بها الجرادل (القواديس) الى عجلة الساقية كانت مصنوعة من الخيزران » • انظر : Journal, etc. ص ٣٨٣ •

(١٠) يبدو أنه فى الزمن الحاضر ، تجر السفن مهما كان نعتهـــا ونوعها بواسطة الرجال فقط ، وليس بواسطة الخيل ، التى هى ، شأن غيرها من الماشية ، نادرة ببلاد الصين بدرجة ما ، ولكن هناك من الأسباب ما يدعو الى الظن بأن أعدادا غفيرة منها أحضرت من بلاد التتار أثناء عهد أمــراء المغول ، ولقيت تربيتهــــا قدرا كبيرا من التشجيع • ومما يمكن ملاحظته فى الحين نفسه أن الملاحة الداخلية فى البلاد لا يعــــرف عنهـــا الا النزر اليســـــير جــــدا ، وذلك فيما عدا ما يرتبط ارتبــــاطا مباشرا بالقناة الكبرى •

● هوامش الفصل الرابع والستين

(١) هناك أسباب تدعو الى استخلاص أن المقصود من كاين جوى ، هو حتى مدينة تقع عند مدخل القناة ، على الضفة الجنوبية لنهر كيانج ، يسميها الأستاذ ماجالهانز تشن كيانج تيبيو ، ومعناها قمم (مصـــب) أو ميناء تشن كيانج (وهى تسن كيانج عند ده جنى) ، وهى مدينة تقع على القناة ذاتها ، كما أنها موضوع الفصل التالى ٠

(٢) تكثر يوميات فان برام وده جنى من ذكر الاعتراضـــات التى لقيتها يخوتهما من العـــدد الهائل من المواعين (السفن) المحملة بالأرز والمتجهة الى بكين ، والتى كانت تتجمع عند هذا الجزء من القناة ٠

(٣) يؤلف وصف هذه القنـــاة العظمى ، فى كل بيـــان كتب عن الصين ، ظاهرة بارزة ٠ يقول بارو : « انها ملاحة داخلية بلغت من المدى والضخامة ما يجعلها تقف بغير منافس فى تاريخ العالم » ٠ ويقال ان اتمامها على الصورة التى توجد بها اليوم ، تم لعهد يونج لو ، ثالث أباطرة أسرة منج ، قرب عام ١٤٠٩ ٠

(٤) تؤدى ملاحظة مؤلفنا لهذه الجزيرة ، التى جاءت فى ابانهـــا بصورة عجيبة ، فى نفس الوقت الذى يسجل فيه لدينا برهانا لا يتطرق اليه الشك ، عن صدق وأصالة ملاحظاته ، ـ الى أن يتحدد مع اليقين المكان الذى عبر عنده نهر كيانج ٠ يقول استاونتون : « أثنـــاء عبور النهر ، استلفتت الأنظار بوجه خاص جزيرة تقع فى وسطه وتسمى تشن شان ، أى الجبل الذهبى ، وهى تقوم من قاع النهر على نحو عمودى أو يكاد ٠٠ وهى تابعة للامبراطور ، الذى بنى عليها قصرا جميلا فخما ، وأقام على أعلى مكان فيها كثيرا من المعابد والباجودات .(المعابد المتعددة الطوابق) ٠ وتحتوى الجزيرة أيضا على دير ضخم للكهنة ، يسكنونه هم أنفسهم بصفة رئيسية » (مج ٢ ص ٤٢٤) ٠

۞ هوامش الفصل الخامس والستين

(١) يقول العلامة مارتيني : « ان من يقرءون كتـابات ماركو بولو البندقي يرون بوضوح من موقع تلك المدينة ومن اسمها (تشن كيانج فو) أنها هي التي يسميها سن جيام (تشن جيان) وهي مبنية على ضفة نهر كيانج ، وفي شرق قناة صناعية مدت حتى بلغت نهر كيانج ، وفي الجانب الآخر من القناة على الضفة التي تواجه الغرب ، توجد ضاحيتها ، التي ليست أقل منها ازدحاما بالسكان ، حيث تجد ما يحيط بها عظيما عظم المدينة نفسها » • وواضح أن هذه الضاحية هي المدينة التي وصفها تحت اسم مغلوط محرف هو كايين جوى ، وما قيل هناك عن مرسى السفن ، ربما جاز الاحتفاظ به لهذا المكان نفسه •

(٢) عندي أن وجود هذه الكنائس ، الذى لا يمكن أن يتطرق اليه شك معقول ، حقيقة عجيبة في تاريخ التقـدم الذى أحـرزته الديانة المسيحية في أجزاء الصين الشرقية أو القصوى • ورد اسم هذا الشخص في طبعة بال مارسركيس ، وفي مخطوطة برلين مارايارتشيس • ومن المعروف أن لقب أو اسم « مار » وهو في السريانية معادل لكلمة السيد (دمينوس) في اللاتينية ، كان يشيع اضافته الى أسـماء الأسـاقفة النسطوريين ، وكذلك أسماء غيرهم من ذوى المكانة من الأشـخاص ، ولما كان اسم مارس جيوس كثيرا ما يرد في في حوليات كنيستهم ، فانه يبدو محتملا أنه هو الاسـم الذى اشتق منه التحريف اسمي ساتشيس وساركيس •

● هوامش الفصل السادس والستين

(١) توضح مسافة رحلة أربعة أيام ، بحذاء القناة ، من المكان سالف الذكر ، أن هذه المدينـــة ، التي تسمى في خلاصة البندقيـــة المبكرة جن جوى ، كما تسمى في مخطوطة برلين تشن تشن جوى ، لابد ان تكون هي تشانج تشيو فو الواردة في خريطة دوهالد ، أو تشانج تشيو فو حسب طريقة هجائنا : « وهي مدينة شهيرة ذات تجارة عظيمة تقع قريبا من القنـــاة » .

(٢) بحسبنـــا بغير الدخـــول في التاريخ العتيق والغامض للألانى أو الألانيين من أبناء اسكيذيا (الروسيا) أو التركستان ، ـ أن نلاحظ أنه بعد هزيمة الألان وتشتتهم على يد الهون ، فان شطرا جسيما منهم استقروا على المنحدر الشمالى لسلسلة جبال القوقاز ، على الجانب الغربى من بحر قزوين ، كما أنهم ـ ان لم يكونوا بالفعـــل هم نفس الشعب ـ يختلط أمرهـــم الآن على النـــاس فيعتبرونهم الأبخـــاس والشركس أو الجراكسة .

● هوامش الفصل السابع والستين

(١) ينبغي أن يفهم أن سن جوى هى المدينة العظيمة سوتشيو ، التى تقع على امتداد القنـاة ، والتى تشتهر كثيرا عند من يتتابونها من الرحالة ، الذين يقارنونهـا من بعض النواحى بمدينة البندقية • يقول استاونتون : « ان شوارع مدينة سوتشو فو ، التى كانت تمر من خلال ضواحيها اليخوت آنذاك ، كانت تقسمها ـ كالبندقية ـ فروع من القناة الرئيسية • وأقيم فوق كل فرع من هذه الفروع قنطرة حجرية رشيقة • وقد قضى أسطول السفارة ثلاث ساعات تقريبا فى المرور من خلال أرباض سوتشوفو ، قبل وصوله الى أسوار المدينة » • (مج ٢ ص ٤٢٧) • يقول مارتين : « ان محيط أسـوار مدينـة سوتشيو يبلغ طولها أربعين ستادا (غلوا) صينيا ، ولكنك لو ضممت اليها الضواحى لوجدته دون ريب أكثر من مائة غلو » • ص ١٢٤ • ومعـروف ان كل أربعين « لى » صينيا تعادل خمسة عشر ميلا ايطاليا •

(٢) لما كانت سوتشيوفو مدينة ذات ثراء وترف عظيم ، فان من الطبيعى أن يشجع فيها الطب بها بسخاء عظيم ، وأن يكون من يزاولونه بها نطاسيين مهرة • ويقول بعض الكتـاب ان أطباء الصين « أحرزوا كفاية تبعث الدهشة فى أكفأ أطبائنا بأوربا » ، بينما يعد آخرون عمليتهم المحكمة فى جس النبض ، وادعاءاتهم بأنهم من هنا يكونون قادرين على التحقق من بيت الداء ومصدره ، شيئا لا يتجاوز الدجل الصراح • انظر General Description of China تأليف الأب جروسييه ، مج ٢ ص ، ٤٨٠ ، وانظر بارو فى Travels in China ص ـ ٣٤٣ •

(٣) من الواضح أنه يشير بلفظتى فلاسـفة وسـحرة الى تلاميذ كنفوشيوس (الذين يسمون عادة بطبقة الأديان Literati) والى أقرانهم تلاميذ لاؤكيون أو طائفة تاءوتسيه ، كما أنه فى مواطن أخرى يعنى بلفظة الوثنيين عبدة « فو » ، أو بوذا ، الذين يؤلفون أكثر الطبقات تعدادا • والفئة الأولى (أعنى السحرة والفلاسفة) يدرسون الأعمال الأخلاقيـة والميتافيزيقية (ما وراء الطبيعية) التى وضعها معلمهم العظيم ، ويحصلون على درجات نظامية فى الفلسفة تؤهلهم ـ طبقا لتحصيلهم ـ لتولى مختلف وظائف الحكومة وأن يصبحوا من يسميهم الأوربيون « ماندرين الأب » ، ويعتنق التاءوتسـيون Taotse أو « أبناء الخلود » ، كمـا يسمون

أنفســـهم ، مذاهب يصـــفها بعض الكتـــاب بأنهـــا تماثل مذاهب « أصحاب اليوجا Yogis » الهندوكيـــة أو « السكونيين » (ويبـــدو أنهـــم يستمدون أفكارهم منهم فعلا) ، بينما ينسب اليهم آخـــرون ، تأسيسا على عاداتهم ذات النزعة الدنيوية ، منازع المدرسة الأبيقورية ، ولكن مهما تكن اعتقادياتهم (دغماطياتهم Dogmas ، فانهم يكرسون نفسبهم لممارسة السحر ، يضلون من يتبعونهم برؤى الطبقة شبه المستنيرة واستغراقها فى الأحلام ٠

(٤) يقول العلامة بيربنن : « ينمو التـــاى هو آم (والأصـــح حسب ده جنى أنها تاهوانج ٠ أى Grand Jaune) أو الرواند ، بأماكن كثيرة من بلاد الصين ٠ وأحسن أنواعه ، هو راوند ســـيه تشوئن ، فأما الذى يرد من ولاية اكسنسى ومن مملكة التبت ، فانه أجـــود كثيرا ٠ (Lettres édif مج ١٩ ص ٢٠٧) ٠ ونظرا لأن جبال ولاية كيانج نان ، تقع على نفس خط العرض الذى تقع عليه الأولى ، فانها ربما أنتجت بالمثل صنفا جيدا من الرواند . وان لم يلاحظ ذلك رحالونا العصريون ، الذين لا تتاح لهم على الجملة سوى أضيق الفرص للقيام بأبحاث فى علم النبات يتجاوز مداها حوافى القناة والطرق الرئيسية ٠ ومن الواضح أنه قد وقعت هنا غلطة ، ربما جاءت فى ترتيب ملحوظات مؤلفنا الأصلية وما يقال عن زراعة الراوند بالقرب من سن جوى أو سوتشيو ، بولاية كيانج نان الشرقية ، كان المقصود منه دون أدنى ريب هو سنجوى أخرى أو سى ننج ، وهى مكان تجارى شهير فى ولاية شن سى الغربية ، وعلى الطريق الى بلاد التبت ٠ ولا شك أن تجارة السلعة تعزى بوجـــه خاص الى هذا المكان الأخير ، كما أن الروس ، كما ينبؤنا بالاس ، يعقدون صفقاتهم حول تلك المادة مع التجار البخاريين المقيمين هناك ٠ وليس من غير المحتمل ــ فى حد ذاته فقط ــ أن يفخر بانتاج هذا النتاج ، مكانان يحملان نفس الاسم ، ويقعان فى أقصى الطرفين المتقابلين من بلاد الصين ، ولكن الواقع أن وجودة فى أية واحدة من الولايات الشرقية ليس له على الاطلاق سند يؤيده ٠ أما فيما يتعلق بالزنجبيل ، فان المقدار الذى يمكن شراؤه بغروت بندقى واحد ، يقال عنه فى الخلاصة الايطالية انه خمسة أرطال وليس أربعين رطلا ٠ (ولكن أجود النسخ تتفق على رقم الأربعين) ٠

(٥) ان مؤلفنا وان أمكن أن يكون مخطئا فى تعليله لأصل الكلمتين Etymology ، وفى الصفات المميزة التى ذكرها لهما وهى الفردوس السماوى والأرضى ، فان من الواضح أن ملاحظته ، تشير الى مثل صينى شهير يقول : « ان ما عليه السماء فى الأعالى ، هو ما عليـــه سوتشيو

وهانج تشيو فى الأرض » . ويورد الأستاذ مارتينى هذا المثل بمنطوق كلماته الأصلية . انظر Thevenot الجزء ٣ ص ١٢٤ .

(٦) ان مدينة فاجيه Va-gie ، التى لم يرد ذكرها فى النسخ الأخرى ، اما أن تكون هوتشيو ، الواقعة على جانب من بحيرة تائى ، قبالة الجانب الذى تقع عليه سوتشيو ، والا (وهو الأرجح) فهى المدينة المسماة كيا هنج فى الأزمنة الحديثة ، وكانت فيما سلف سيوتشيو ، وهى فى خط المجرى المباشر للقناة ، وفى نقطة متوسطة بين سوتشيو وهانج تشيو . وكلتاهما شهيرة بضخامة تجارتها ، وبخاصة فى الحرير ، الخام منه والمصنع .

⊛ هوامش الفصل الثامن والستين

(١) كانت الحوليات الصينية تسمى تلك المدينة لن جنان ، في الوقت الذى سلمت فيه وهى عاصمة الصين الجنوبية فى عهـــد أسرة صنج لجيوش قبلاى • وغيرت أسرة منج الاسم الى هانج تشيو ، وهو الاسم الذى حملته فى وقت مبكر والذى لا تزال تحتفظ به حتى يومنـــا هذا • وبناء على هذا ينبغى أن يعد اسم كوبنساى أو كن ساى أو كن تساى حسبما يذكر دى جنى ، مجرد تسمية وصفية ، ربما كانت قائمة على المثل السائر سالف الذكر ، الذى يسميها بدار الاقامة السماوية ، وان أمكن ألا يكون معنى الكليـــات المكونة للاسم هو بالضبط ما نســبه مؤلفنا اليها •

(٢) نظرا لأن مدينة يانج تشيوفو ، التى عين عليها حاكما مؤقتا لمدة ثلاث سنوات ، لا تبعد عن هانج تشيوفو الا مسيرة أسبوع بالقناة المائية ، فقد أتيحت له تبعا لذلك فرصة الاتصال بتلك العاصمة بين حين وآخر •

(٣) لو أخذت هذه الأبعاد بمعناها الحرفى ، لوجب أن تعد مسرفة ، وان جاز أن يفهم أنها تشمل الضواحى أيضا ، ولكن وردت مناســبات عدة للملاحظــة ، أنه متى كان مؤلفنا يتكلم عن حجم الأماكن ، وتحدث بالأميال ، وجب الذهاب الى أنه يقصد الأميال الصينية أو « لى Li » وهى ثلاثة أثمان ٣/٨ الأميال الايطالية • وحتى لو فرض ذلك فان هذا الامتداد قد يبدو مبالغا فيه ، لولا أن الأسوار حتى ما كان منها حول المدينة العصرية ، يقدرها الرحالة بستين « لى » ، وأنه لو أن الأسوار ألم بها بعد انصرام خمسة قرون بعض التغيرات ، فان الواجب أن نفترض أن حدودها ربما تقلصت تقلصا كبيرا • أجل انه يندر أن يتاح للغرباء قياس أبعاد الأماكن المحصنة ، فليس بد من أن يستقوا معلوماتهم من الأهالى ، الذين يحتمل أن يخدعوهم نتيجة للجهل أو التفاخر •

(٤) البحيرة التى يدور الحديث عنها هنـــا هى بحيرة سى هو ، أى البحيرة الغربية ، التى سميت بذلك الاسم بسبب موقعهـــا فى الجانب الغربى من المدينة • وهى ان تكن غير ذات شأن من حيث الاتساع فانها شهيرة شهرة عالية عند جميع الرحالة بسبب جمال ما يحيط بها من مناظر والشفافية العجيبة لمياهها • يقول استاونتون : « كانت البحيرة تشكل مسطحا جميلا من الماء ، قطره يقارب ثلاثة أو أربعة أميال ، كما

أنها محاطة فى ناحية الشمال والشرق والجنوب بمدرج طبيعى من جبال بديعة المنظر .. وكانت ضحلة بمعظم أجزائها ، والماء فيها صاف تماما والقاع فيها حصبانى . (ص ٤٤٤) . ويقول بارو الذى قام فيها برحلة : « ان ماءها صاف صفاء البلور » . (ص ٥٢٤) .

(٥) النهر الذى تقوم الى جواره هذه العاصـــمة العريقة للصين الجنوبية ، هو نهر تسيين تانج كيانج . يقول استاونتون : « يزيد المد من سعة النهر حتى يصبح أربعة أميال تقريبا تلقاء المدينة . وينكشف على أثر انحسار الماء بالجزر ، طريق مستو رائع يبلغ عرضه ميلين تقريبا ، ويمتد حتى البحر على آخر مرمى البصر » . (ص ٤٣٨) . وطبقا لما يرويه مؤلفنا ، فلقد كان هناك فى زمانه فيما يبدو ممر مائى يمتد من النهر ، مخترقا القنوات العديدة المنتشرة بالمدينة ، حتى يصل الى البحيرة . ويحدث هذا ساعة ارتفاع فيض المد ، وعند الجزر ، تحدث من خلال نفس القنوات ردة للماء من البحيرة الى النهر ، وهى الانحسارة : أو الردة اللازمة لعملية التنظيف . على أن البيانات الحديثة عن هانج تشيو فو ، لا تورد أى ذكر لمثل هذه المواصلة بين النهر وبين المدينة أو البحيرة ، وتعليلا للخلاف ربما اقتادنا الأمر الى استنتاج ، أنه ربما حدث نتيجة لتراجع البحر أو لأية أسباب طبيعية أخرى ، تغيير فى الظروف فى غضون هذا الزمن الطويل .

(٦) وجميع البيانات العصرية عن هذه المدينـــة تلتقى فى وصف قنواتها العديدة ، ولكنها تصر كذلك على ضيق شوارعها المرصوفه . أجل ان مؤلفنا يتحدث فى جزء تال من وصفه ، عن أن الشارع الرئيسى عرضه أربعون خطوة (وهو ما يقارب عرض شارع بكين) ، على أنه ينبغى أن ندخل فى اعتبارنا أنه فى الزمن الذى كتب فيه ، كانت هانج تشيو لا نزال تحتفظ بما للعاصمة الكبرى ومقر الحكم الامبراطورى من روعة وفخامة ، وأنه فى قطر تكرر اجتياحه وتخريبه على يد غزاة فاتحين أجانب وأهليين ، لا يمكن الظن بأنها سلمت من التدمير المتكرر ، ولا أنهـــا متى جددت ، ما كان ليتخذ فى التنظيم الجديد لشوارعها ، حالة تزيد عن وضع ما ينة اقليمية ، وان كانت من الطراز الأول .

(٧) ليس بين المبالغات التى نسبت الى مؤلفنا ، فى بيانه عن الصين ، ما شاعت الاشارة اليه بالبنان ممن يناصبونه العداء ، أكثر من هذا القول ، بأن مدينة مهما بلغ اتساعها وفخامتها يمـكن أن تحتوى اثنى عشر ألف قنطرة . ولا سبيل الى انكار أنه جانبه الصواب ، ولكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه لا يذكر هذه الحقيقة استنادا على تعداد قام به بنفسه ، بل ذكره كقصة شائعة بين الناس (والعبـــارة الواردة هنى è fema

أى شائعة) ، من سكان المنطقة ، الذين أفضت بهم خيلاؤهم فى هذه وغيرها من الحالات الى تهويش معجب سريع التصديق مثله ٠

(٨) يقول الأستاذ لو كونت ، متحدثا عن القناة (أو الترعة) الكبيرة : « وعلاوة على هذه السدود بنى ما لا حصر له من القناطر لأغراض المواصلات الأرضية ، وهى مكونة من ثلاثة عقود وخمسة وسبعة ، والعقد الأوسط مرتفع ارتفاعا خارقا ، حتى تمر من تحتها السفن ، بغير أن تضطر الى انزال سواريها » ٠ انظر (Nouv. Mém. de la Chine) مج١ص١٦١ »ويقول دوهالد فى وصفه لمدينة مجاورة : « يمكن المجىء والدخول والذهاب بكل أرجاء المدينة بالسفن ٠ فليس ثمة شارع لا يوجد فيه ترعة ، ومن أجل هذا يوجد عدد كبير من الكبارى البالغة الارتفاع وتكاد تكون كلها مكونة من عقد واحد » ٠ (مج ١ ص ١٧٩) ولكن الأقرب الى هدفنا بصورة مباشرة هو ملاحظة بارو من أنه : « توجد فوق هذه الترعة الرئيسية ومعظم القنوات والأنهار الأخرى تشكيلة ضخمة من الكبارى ٠٠ ولبعضها ركائز (بغال) يبلغ من ارتفاعها الخارق أن تستطيع أضخم السفن التى حمولتها مئتا طن المرور من تحتها دون أن تمس سواريها بسوء) ٠ ص ٣٣٧ ٠

(٩) ان وجود هذه الحفرة (أو الخندق) التى تبدأ عند البحيرة ، وتنتهى عند النهر ، يمكن تعقبه فى خريطة دوهالد التى رسمها للمدينة ٠ ويبدو طولها فيها كأنما يزيد على النسبة المحددة لها وهى أربعة أعشار ١٠ر٤ من الامتداد الكامل للأســوار ، ولكن جميع الخرائط الموجودة فى تلك المجموعة ليس لها مقياس رسم ، وتبدو كأنما رسمها فنانون صينيون من الذاكرة لا عن مسح حقيقى ٠ أما فيما يتعلق بالهدف المقصود من حفرها ، فربما جاز الظن بأنها جعلت لتتلقى فيوض البحيرة لا لتستقبل فيضان النهر ، وتأسيسا على ذلك يتحدث استاونتون عن التيار الذى يتدفق اليها فى الأوقات العادية بأن مصدره هو البحيرة ٠

(١٠) لا شك أن داخلية هذه المدينة وجميع ما عداها من المدن الصينية ألم بها منذ عهد مؤلفنا ، تغير كلى ، كما أن الأسواق العامة التى ورد ذكرها هنا لم يرها ويلحظ وجودها الرحالة العصريون ٠ وتبعا لطول « اللى Li » الصينى ، على ما قرره أدق الكتاب بأنه يعادل ٢٩٦ توازا فرنسيا French toises (والتواز يعادل ١٫٩٤٩ مترا) ، فان كل جانب هذه الميادين سيكون ٣٢٠ ياردة انجليزية تقريبا ، كما أن بعد أحدها من الآخر ٢٥٦٠ ياردة ٠

(١١) يظهر أن تعليمات ولوائح الحكومة الصينية الخاصة بالتجارة الأجنبية المستخدمة فى غابر الأيام هى نفسها تقريبا ، التى تخضع لها المصالح الأوربية بميناء كانتون فى الزمن الحاضر ٠

(١٢) لعله يجدر بنا ، بدلا من استعمال « واو » العطف ، أن نستخدم « أو » الفصل ونعد كل اثنين من هذه الطيور المائية الصغيرة معادلا لواحد من الصنف الأكبر ٠

(١٣) يلاحظ استاونتون أنه « ليس لعامة الناس نصيب أو يكادون - في أن يذوقوا لحوم النوع الكبير (من ذوات الأربع) الا ما يموت منها بحادثة أو مرض ٠ وفي مثل هذه الحالات تتغلب شهية الصيني على كل الموانع ، وسواء أكان الحيوان ثورا أم جملا ، نعجة أم حمارا ، فانه مقبول لديهم بدرجة سواء ٠ ولا يعرف هؤلاء الناس فرقا بين لحم نجس ولحم طاهر ٠ وأشد أنواع الطعام الحيواني شيوعا ، هي الدواب التي تستطيع الحصول على بعض موارد تعيش عليها بين دور السكن كالخنازير والكلاب ، كما أنها تباع بالأسواق العامة » ٠ (ص ٣٩٩) - ويلاحظ بالمثل الرحالة العرب في القرن التاسع طريقة الاغتذاء الخالية من التمييز التي يدأب الصينيون عليها في أيامهم ٠

(١٤) لا مناص من الاعتراف بأن كمثرى وزنها عشرة أرطال ، تكون نتاجا خارقا للطبيعة ، ولا بد أن تكون من نوع لا يزال غير معروف في أوربا ، التي - في اعتقادي - ان أكبر ما فيها لا يتجاوز رطلين ، كما اني لم أستطع أن أتحقق من وجود أية كمثرى مزروعة بانجلترا يتجاوز وزنها ستا وعشرين أوقية ٠ ومن المعروف حقا أن أنواع الكمثرى Pyrus وكذا غيرها من الفواكه ، لاتنحط حجما وصنفا فحسب ، ولكنها لا تلبث في مدى فترة طويلة من السنين أن تبيد تماما ٠ بيد أن قابلية تصديق حديث مؤلفنا لا تقوم على مجرد افتراض الوضع الذى لعله كانت عليه فلاحة البساتين الصينية ابان القرن الثالث عشر ، وذلك لأننا نعلم من بيانات الرحالة المحدثين أن كمثرى ذات حجم غير عادى لا تزال تنتج بالولايات الشرقية من بلاد الصين ٠ وأكد المستر هنرى براون ، الذى ظل عدة سنوات يشغل مركز مدير مصنع الشركة بكانتون ، للمستر مارسدن ، أنه شهد كمثرى يعتقد أنها زرعت بولاية فوكيين ، يعادل حجم الواحدة منها حجم قنينة نبيذ متوسطة ٠ وما يقال عن أن مادتها الداخلية تشابه العجين ، فالمقصود منه وصف تلك الصفة التي يسميها فان برام باسم « الذائب أو السكرى Fondante » ، وعنها يقول ده جنى متحدثا عن نفس الفاكهة انها زبدية Beurée ، ويتحدث الأخير عنها بأنها بالغة الضخامة بالغة الامتياز » ٠ مج ٣ ص ٣٥٥ ٠

(١٥) وربما جاز لنا الظن بأن المقصود من الخوخ الأصفر عند مؤلفنا هو المشمش ، الذى هو الخوخ من نتاج ذلك الجزء من الصين ٠ ولم يرد للبرتقال ذكر ٠

(١٦) نظرا لأن البيوت الصينية لا تبنى على وجه الجملة الا من طابق واحد ، فان ما يرفع فيها طابق ثان ، يمكن نسبيا تسميتها بيوتا عالية « Case alte » .

(١٧) جرت العادة في زمن مؤلفنا بمدينة كانبالو أو بكين ، شأنها في الوقت الحاضر ، بقصر سكنى النساء العموميات على ضواحي المدينة : التي كان ينزل فيها أيضا الغرباء العديدون الذى كانوا يفدون على العاصمة • ولكنهن يوصفن هنا ، من جهة أخرى ، بأنهن يسكن أشد اجزاء المدينة ازدحاما بالمترددين ، وبخاصة في المنطقة المجاورة للأسواق (أو البازارات) ، كأنما يتم السهر بدقة على راحة التجار الأجانب ، من هذه الناحية أيضا • (يقول ثاني « الرحالة العرب » ، بعد ايضاحه الطريقة التي كن يسجلن بها ويرخصن من جانب موظفي الحكومة) : تمشي هؤلاء النسوة مساء مرتديات ثياب حريرية متنوعة الألوان ، كما أنهن لا يرتدين قط حجابا • ويتهافتن على جميع الأجانب الذين وصلوا حديثا الى البلاد ، اذا كانوا يحبون الفجور • ويدعوهن الصينيون للذهاب الى منازلهم ، فلا يخرجن منها الا في الصباح • فلنحمد الله ، على أن أعفانا من وجود شبة كهذه عندنا » • انظر : .Anc. Relat ص ـ ٥٧ •

(١٨) يذكر ده جنى في البيان الذى كتبه حول مراتب المندرين أو الحكام (Kouan) المتعددة : « رئيس الشرطة « Le nan-hay » ، ومعاونيه أو ملازمى الأقسام » • والراجح أن الموظفين الذين يتحدث عنهم المؤلف في النص هم من الطبقة الأخيرة •

(١٩) يقول استاونتون : « كان من الصعب المرور في الشوارع بسبب شدة احتشاد الناس ، الذين لم يجتمعوا فحسب لرؤية الغرباء ، أو في أية مناسبة عامة أخرى ، بل لأن كل واحد يمضى في طريقه فيما شغله من أمور » • ص ٤٣٩ •

(٢٠) لما كان مؤلفنا يعترف بأنه حصل على معلوماته في هذا الموضوع من موأف بالجمارك ، فان ذلك يستتبع أن مقدار الفلفل المذكور في النص ، هو المقدار الداخل عن طريق الاستيراد (وهو المقدار الذى يمكن وحده أن يقع تحت علمه) ، وليس المقدار المستهلك في المدينة : والذى ليس من المستبعد أن يكون اختلط في عقل الأول • ولما كان الوارد اليومى يقدر بأنه ١٠٤٤٩ رطلا ، فان المقدار السنوى لا بد أن يصبح : ٣٫٨١٣٫٨٨٥ رطلا ، أو (بالمعدل المعتاد ١٦ (هندريدويت Cwt للطن في هذه السلعة) ما يقارب ٢١٣٠ طنا •

وربما ظن هذا المقدار ضخما ، ولكن هنـــاك ورقة أعدها المستر ف · بيجو ونشرت فى : Dalrymple's Oriental (مج ٢ ص ٣٠٥) وهى تؤكد أن « الاستيراد العادى ، بجميع موانى الصين التجارية يقارب ٤٠٠٠٠ بيكول وهو ما يعادل ، باعتبار البيكول الواحد ١٣٢ ليرة (رطلا) ، حوالى ٣٠٠٠ طن » · ويقول ده جنى متحدثا عن تجارة الصين العصرية : « باع الهولنديون والانجليز ١٤٦٥٠٠٥٣ رطلا من الفلفل ، و ٤٦٤٧١ رطلا من القرنفل ، و ٨٩٧٩ رطـــلا من جوزة الطيب ، وهذا المقدار من التوابل ـ لو روعى معه عدد سكان الصين ـ أقل من الكفـــاية بكثير ، ولا يعد شيئا بالنسبة لما ينبغى أن تستهلكه الامبراطورية » · (مج٣ ص ٣٠٤) ، أما فيما يتعلق بعدم كفاية هذا الاستيراد ، فينبغى أن يلاحظ أنه ليس على التجارة الأوربية وحدها يعتمد الصينيون فيما يلزمهم من الفلفل · فان سفنهم ترتاد كثيرا من الجزر الشرقية ، وفى ميناء بورنيو ذاتها بوجه خاص ، يشحنون السفن كل عام بشحنات ضخمة من تلك السلعة ·

(٢١) يقول استاونتون : « ان أقمشة الساتان المنقوشة بالزهور والمشغولة « شغل الابرة » وغير ذلك من فروع صناعة الحرير ، التى يقوم النساء بكل جزء منها ، يشتغل فيها عدد هائل منهم فى هان تشوفو · وكان معظم الرجال يرتدون ثيابا زاهية الألوان ، ويبدو عليهم أثر الدعة والنعيم » · انظر : Embassy مج ٢ ص ٤٣٩ ·

(٢٢) يمكن أن نلاحظ فى صور الصينيين ، ما عليه نســاء الطبقة العليا من ليونة القســمات ، ورهافة القد وعادات الاسترخــاء · ويقول استاونتون : « مع أن السيدات يعددن البدانة جمالا فى الرجل ، فانهن يعتبرنها وصمة عيب صريحة فى جنسهن ، ويعملن على الاحتفاظ بالنحافة ورشاقة القد » · ص ٤٤٠ · ولا يشير مؤلفنا الى عادة تخفيف الوزن ومنع استخدام القدمين ، بوضع عصابة عليه منذ وقت مبكر ، مالم يجز أن نظن أنه كان يركز فكره فى تلك الممارســة عندما استخدم عبــارة « Allevate morbidamente » وفيما يتعلق بهذه الحالة وحالات خــارقة (كتربية الأظافر حتى تبلغ بوصتين أو ثلاثا والاحتفاظ بها فى أحقاق) ، فلعله شك فى أن يجد من يصدقه ، أو خشى أن يتعرض للسخرية لو أنه رواها على أنها حقائق · وربما أمكن أيضـــا الشك فى هل كانت هذه الموضات منتشرة فعلا فى ذلك الزمان ·

(٢٣) ان كانت هذه الممارسة الوراثية للمهن عادة اتبعها الصينيون فيما خلا من الأزمان ، شأنها بين أهالى الهند ، فلا بد من التسليم أن آثار تلك العادة لم تعد موجودة فى الأزمنة الحديثة ·

(٢٤) ان ميول الصينيين وعاداتهم غير الميالة للحرب ، شيء معروف للناس عامة ، ومع هذا فانهم أبدوا فى الدفاع عن منهم ، فى كثير من الأحيان ، أعلى درجات التصميم الوطنى المستيئس ، كما أن المغول (المنعال) ما كانوا ليصلوا الى اخضاع البلاد ، لولا أن خان القواد وجود شرطة صارمة ٠

(٢٥) ان المظهر الخارجى لهؤلاء الناس رزين وهادىء ، ولكنهم فطروا على مزاج انتقامى غضوب ، كما أن قلة ما ينشب بينهم من شجار ، ترجع بصفة رئيسية الى وجود شرطة صارمة ٠

(٢٦) يمكن أن يقال ان خلق أو صفة النزاهة شيء ليس للصينيين العصريين منه الا نصيب قليل ، وذلك نظرا لأن جميع ما بين أيدينا من بيانات عن عاداتهم تمتلىء بالحكايات والقصص عن ضروب الاحتيال البارع ، التى تمارس فى كانتون ضد الأوربيين الأقل مكرا ، ولكن هذا ينطبق بوجه خاص على الطبقة الدنيا من الباعة الذين – لو أننا استمعنا الى دفاعهم عن أنفسهم – فلربما رأيناهم يبررون سفالتهم بأنهم انما يعملون بمبدأ الانتقام والمعاملة بالمثل ٠ ففى الاختلاط الطويل المتواصل الذى قام بين وكلاء الشركات الأوربية ، وبين أبرز التجار الصينيين – مهما يكن الظلم الذى وقع على هؤلاء الوكلاء بسبب مؤامرات البلاط – فان الشكاوى من الاجحاف فى التجارة كانت نادرة ندرة مفرطة ، بل الواقع أنه ، على العكس من ذلك ، كانت معاملاتهم التجارية تتصف بأكمل أنواع الثقة المتبادلة وحسن النية ٠

(٢٧) يقول استاونتون : « كانت البحيرة تؤلف صفحة جميلة من الماء ، قطرها ثلاثة أميال أو أربعة ، ويحيط بهـا من الشمال والشرق والجنوب مدرج من جبال ، يقوم بين سفحها وحافة البحيرة ، شقة ضيقة من الأرض قد خططت فى نسق يمتع الأنظار ويتواءم والموقع ٠ فقد ازدان ببيوت الماندرين وحدائقهم ، فضلا عن قصر للامبراطور نفسه ، وذلك بالاضافة الى المعابد والأديرة التى ينزلها الهوسهاونيج ، أى كهنة فو ، وعدد من القناطر الحجرية الخفيفة العجيبة الأشكال ، التى مدت فوق خلجان البحيرة ٠٠ وأقيمت فوق القمة كذلك الباجودات ، التى كانت واحدة منها تسترعى الأنظار بوجه خاص ٠ ص ٤٤٤ ٠

(٢٨) يقول الأستاذ مارتين : « انها سفن ، يستطيع المرء بحق تسميتها القصور المذهبة » ، لأنها مطلية بألوان متعددة ، ولأن كل ما فيها يتلألأ بأبدع وأنقى الذهب الابريز ٠ بحيث انه هنا تتجلى فخامة وأبهة الولائم والمشاهد والألعاب الباهرة على الدوام ٠ وان الصينيين من أهالى

هانج تشيو ، وهم من عبيد الشهوات الى أقصى حد ، ليجدون هنا بوفرة كل ما يمكنهم أن يتمنوه » • ص ١٤١ • ويقول بارو متحدثا عن البحيرة نفسها : « ان عددا هائلا من النحبيات (أي سفن النزهة) كانت تجرى ذهابا وجيئة ، وكلها مزخرفة بأزهى طلاء وبماء الذهب وبالرايات المرفرفة • ويبدو على الجماعات النازلة بها أنها كلها تنشد المتعة » • ص ٣٢٤ •

(٢٩) ان العربات التى تقف لكى يستأجرها من يشاء فى شوارع بكين أصغر حجما من هذه التى يصفها مؤلفنا ولكن تصميمها فيما عدا ذلك من النواحى ، واحد لا اختلاف فيه • انظر اللوحة ٤١ من اللوحات المرفقة بعمل المسيو ده جنى ، حيث سيلاحظ القارئ أن العربات تكاد تشبه ما نسميه فى انجلترا باسم الكارتة المغطاة (بكبوت) • ولما كانت عادات العاصمة الصينية القديمة ، أكثر ترفا بكثير من عاداته بكين فى ظل التتار • فى أى وقت من الأوقات ، يجوز لنا أن نخلص الى أن عربات تلك العاصمة القديمة كانت تجهز مع عناية أكبر بالراحة والدعة والجمام ، كما تجهز بفخامة أكثر ، من تلك الجرارات القبيحة الوارد ذكرها أعلاه • أجل ان استاونتون يتحدث عن : « نمارق محشوة بالقطن ، ومكسوة بالحرير ، ليجلس عليها الركاب » ، فى عربات هانج تشيو فو — ص ٤٤٧ •

(٣٠) لاحظ رحالة أحدث عهدا ، هذه الساعة المائية (Clepsydra) .

(٣١) يقول لوكونت : « يميز المرء عادة خمس (حراسات لليل) تبدأ عند الساعة السابعة أو الثامنة مساء • وعند ابتداء الحراسة الأولى تدق دقة واحدة ، وبعد لحظة تعاد الدقة مرة ثانية ، وهى التى تكرر باستمرار فى مدى ساعتين ، حتى يحين موعد الحراسة الثانية • وذلك أنه عند هذا تدق دقتان ، ويظل الدق مستمرا دقتين حتى الحراسة الثالثة • الخ •• مع زيادة عدد الدقات ، بقدر الانتقال من حراسة الى أخرى ، بحيث ان هذه تؤلف عددا من الساعات الدقاقة بقدر مرات التكرار • وبها يعلم الناس فى كل لحظة كم الساعة • ويستخدم فى اعلان نفس النوبات طبلة ، ذات حجم خارق ، يدق عليها طول الليل ، حسب نفس النسب » • (مج ١ ص ١٢٧) • لم يرد فى النص ذكر هذا التكرار المستمر للدقات أثناء فترات الحراسات المتعددة (على نحو ما يحدث من النداء بالساعة بشوارع عاصمتنا لندن) — وربما اعترى هذه الممارسة تغيير • ولكن يبدو أنه الأرجح أن كلمات مؤلفنا ربما فهم منها ، من اعتادوا سماع الدقات الآلية لساعة مدينة ، ما يفيد رفع ما عناه الى هذا المستوى • ومما تجدر ملاحظته فى الوقت نفسه ، او ما شرحه الأستاذ لوكونت بهذا الوضوح الشديد ، لم تشر اليه واحدة من يوميات السفارات المتأخرة •

يقول ده جنى : « ان الحراسة الأولى تعلن بدقة واحدة على الطبلة ، والثالثة بثلاث دقات ، وهكذا دواليك » • (مج ٢ ص ٤٢٠) •

(٣٢) هناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد أن الحدود السابقة للولايات المختلفة ، لم تكن في الماضي على ما نجدها في زماننا هذا • ولكن على الجملة يمكن أن تعتبر هذه الأقسام التسعة التي قسمت اليها مانجى أي الصين الجنوبية ولايات : كيانج نان وكيانج سى وتشيه كيانج ، وفوكيين ، وكوان تونج ، وكوانج سى ، وكوئى تشيو ، وهو كوانج ، وهو نان • ويبدو أن كاثاى أو خاتاى كانت تتألف من : بيه تشيبيه لى وشان تونج ، وشان سى ، والجزء الشرقى من شن سى • فأما الولايات الباقية من الخمس عشرة ولاية وهى : سيه تشوين ويون نان ، فضلا عن الجزء الغربى من شن سى ، فلم يخضعها أباطرة الصين تماما ، كما يبدو أنها لم تكن تنتسب ، فى عهد مؤلفنا ، الى أى من قسمى الصين العظيمين •

(٣٣) ان الضابط (أو الموظف) العظيم أو المندرين ، الذى يلقب هنا بالملك (Re) ، أو بمعنى أصح نائب الملك ، يسميه الصينيون تسونج تو Tsong-tu وهم أحد عشر بكل أرجاء الامبراطورية ، اذ لبعضهم سلطات الولاية على أكثر من ولاية • ويسمى الحاكم الفعلى لكل ولاية باسم فويوين Fu-yuen ، وهو الذى كثيرا ما يسميه أعضاء ارساليات التبشير باسم نائب الملك ، وان كان الذى لا مشاحة فيه ، أنه مرؤوس للأول •

(٣٤) يفوق هذا العدد كثيرا دائرة الاختصاص المعينة لأية واحدة من المدن الكبرى فى الوقت الحاضر ، ولكن ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن هانج تشيو فو كانت قبل ذلك بقليل عاصمة الامبراطورية الصينية الحقة ، كما أن دائرة اختصاصها كمدينة ، ربما لم يمسسها التخفيض الى مستوى المدن الاقليمية (عواصم الولايات) الأخرى •

(٣٥) طبقا لما قرره دوهالد فى قائمته ، تحتوى الولايات التسع بالجزء الجنوبى الشرقى من الصين على ١٠١ مدينة من الدرجة الأولى ، و ٨٤ من الدرجة الثانية ، و ٦٢٥ من الثالثة ، فيكون مجموعها جميعا ٨١٠ مدن ، وذلك بخلاف أى أجزاء من يون نان او سيه تشوين ، ربما كانت تابعة آنئذ لمملكة مانجى • وسيتضح للقارىء أن هذا لا يبعد كثيرا عما قرره مؤلفنا ، الذى لعله قصد ، فوق هذا ، أن يدخل الى القائمة بعض مدن الدرجة الرابعة الآهلة بالسكان • أما فيما يتعلق بمدن الدرجة الثالثة ، فان دوهالد يلاحظ التالى : « عندما يتكلم المرء عن هيين Hien أى مدينة من الدرجة الثالثة ، فانه ينبغى ألا يتصور أن هذه منطقة

قليلة الاتساع • فان هناك من الهيين ما طول محيطه ٦٠ أو ٧٠ بل حتى ٨٠ فرسخا ، وما تدفع للامبراطور جزية مقدارها عدة ملايين كثيرة » • (مج١ ص ٢٠) • على أن الأستاذ لو كونت يجعل عدد المدن أكثر كثيرا مما أورده دوهالد فهو يلاحظ : « تقسم المدن عادة ، الى ثلاث درجات : فأما الدرجة الأولى فيوجد منها أكثر من ١٦٠ مدينة فأما الثانية فعددها ٢٧٠ ، وأما الثالثة فما يقرب من ١٢٠٠ ، مع عدم حسبان ٣٠٠ مدينة أخرى مسورة ، توضع خارج هذا المجال ، وان كانت آهلة بشدة بالسكان وتوجد بها تجارة ضخمة » • (مج ١ ص ١١٨) • ويبدو أن هذا يفوق أيضا ما عدده مؤلفنا ، ولكن ينبغي الا ننسى أن الأخير انما يتحدث عن مانجي فحسب ، الأمر الذى يخرج من حسابه الولايات الصينية الشمالية الثلاث •

(٣٦) ليس بعيد الاحتمال اطلاقا ، أن يرى ضروريا مرابطة جيش يمثل هذا العدد من الرجال ، داخل أو قرب العاصمة الآهلة بالسكان لامبراطورية مغزوة حديثا ، ولا أن يؤلف ألف رجل في تلك المدة الحامية العادية لمدن من الدرجة الأولى أو الثانية ، مهما تبدو قليلة الجند ـ (حسبما يروى بعض الرحالة) ـ فى الزمن الحاضر • وفى القرن السابع عشر ، كما يخبرنا بذلك الأستاذ لوكونت ، كانت حامية هانج تشيو تتألف من عشرة آلاف رجل ، كان فيهم ثلاثة آلاف من الصينيين • (مج ١ ص ١٢٩) •

(٣٧) يبدو أن تصميم رسم القصور الصينية يكاد يتشابه كله تقريبا ، وبخاصة فيما يتعلق بهذا النوع من الفناء المقام على شرفة مرتفعة ، أما الجزء الرئيسى من المبنى ، حيث يجتمع الأشخاص الذين تؤهلهم مرتبتهم للحظوة بتقديم تحاياهم الى المليك • وسيجد القارىء فى « جيزاند تشنانت » تأليف نيوهوف (ص ١٧٢) صورة للفناء الأمامى بقصر بكين ، يثنى عليها فان برام لدقتها • ويبدو أن نزل أو سراى موظف عظيم فى الدولة ، أو فرد ثرى ، كان يبنى بنفس التصميم ، ويزخرف بنفس الطريقة •

(٣٨) يقول ده جنى : « قبل أستيلاء التتار على الامبراطورية ، كان لبعض أباطرة الصين عدد من النساء قد يرقى الى عشرة آلاف » • (مج ٢ ص ٢٨٤) •

(٣٩) يقول ده جنى : « قبل استيلاء التتار على امبراطورها ، المشار اليه هنا ، عزل عن عرشه فى ١٢٧٤ ، وغادرت عائلة بولو بلاد الصين حوالى ١٢٩١ ، فمن الممكن أن مؤلفنا تحادث فعلا مع خدم ذلك الأمير ، وبخاصة عندما تقلد الحكم فى يانج تشيو بالولاية المجاورة •

(٤٠) الواقع أن جاو بو ، التي وصفت هنـــا بأنهـا مرفأ كن ساي أو هانج تشيو ، تقابل ميناء ننج بو الواقعة على نهر ، تحمى مدخـــله جزر تشوسان التي رست بها السفينة (الأسد) التابعة لبحرية جلالة الملك والسفينة « هندوستان » التابعة لشركة الهند الشرقية في عام ١٧٩٣ . والى هاته الجزر ، تقدم الكابتن ماكنتوش ، الذي صحب لورد ماكارتني من هانج تشيو فو ، ليلحق بسفينته مارا من خلال ننج بو في طريقه .

(٤١) لو أننا ، حتى سلمنا بأن (المؤلف) يقصد ادخال الضواحي ضمن هذا البيان بعدد العائلات المقيمة في هانج تشيو ، فانه يبدو على ذلك مبالغا فيه ، على أن من الظلم قياس عدد سكان عاصمة عتيقة للصين على معيار مدينة حديثة . ومع هذا فان استاونتون يلاحظ أن : « عدد سكانها هائل حقا ، وأن المظنون أنه لا يقل كثيرا عن عدد سكان بكين » ، الذي يقدره بحوالى ثلاثة ملايين ، ملاحظا ، في الحين نفســه ، أنه يقل في عاصمة الصين عدد الظروف التي تؤدى الى تضخم العواصم الأخرى ، اذ أن بكين ان هي الا مقر حكم الامبراطورية . فهي ليست ميناء ولا مركزا لتجارة داخلية ولا لصناعة ، كمـــا أنهـــا ليست منتجع طلاب الملذات والفجور . (ص ص ١٤٩ و ٤٣٩) فأما المدينة الأولى (مانج تشو) ، فهي من الناحية الأخرى ، تملك تلك المزايا جميعا الى أعظم حد .

(٤٢) لا يبدو في كتابات أعضاء ارساليات التبشير ولا الرحالة العصريين ، ذكر تعليق هذه القوائم المحتوية لأسماء السكان (في أوقات معينة فيما نظن) خارج المنازل ، على أني حصلت على تأكيـــد شفوى من المستر ريفز Reeves الذي أقام بالصين عدة سنوات ، ثم عاد اليها في الآونة الأخيرة ، بأن ذلك النظام معمول به في الوقت الحاضر ، وأضاف الى ذلك قوله بأن ذلك النظام لم يقرر – فيما يرى – بسبب التيسير الذي يتجه لضباط (موظفي) الايرادات والبوليس ، ولكن عن رعاية للرقة والتهذيب ، حتى لا يحدث أي ادعاء باقتحام مســاكن الاناث . وأشــار المستر ايلليس Ellis الى ذلك بقوله : « ان نظام الحكم المحلي Municipal الموجود بكل أرجاء الصين ، والذي يحتم على كل رب بيت أن يلصق خارج بيته قائمة ، بعدد وأوصاف الأشخاص المقيمين تحت سقفه ، ينبغي أن يتيح الحصول على أدق المعطيات وأصحها في عمل احصاء عام للسكان » - ص ٤٣٢ .

هوامش الفصل التاسع والستين

(١) لو قدرنا قيمة الدوقيـة الذهبية البندقيـة بعشرة شلنـات انجليزية (رغبة فى الأرقام المستديرة الخالية من الكسور) ، لبلغ هذا الايراد المأخوذ على مادة الملح ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى ، وهو مبلغ ربما ظن أنه فادح ، لانطباقه ــ لا على الامبراطورية عامة ــ ولكن على ذلك الجزء من الصين ، الذى كانت هانج تشيوفو عاصمة له . على أنه ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ، أن جميع الولايات الشمالية ، فضـلا عن ولايـات المناطق الداخلية ، تمدها بالملح الأجزاء الجنوبية الشرقية من الساحل ، وأن المقدار الذى يصدر من أماكن الانتاج لابد أن يكون تبعا لهذا هائلا . والمفهوم أن نصف الرسوم المجبية على السلع الانتاجية يدفع عينا ، وهم يبلغوننا أن مجموع الملح الذى يجمع لحساب الدولة فى تيين سنج على نهر يى هو ، قدره أعضاء سفارة اللورد مكارتنى بأنه ثلاثة ملايين جوال ، أو ستمائة مليون من الأرطال الوزنية (مج ٢ ص ٢١) . يذكر السيد نكر (Necker) ان الجابل أى الضريبة المأخوذة على الملح بفرنسا ، حوالى عام ١٧٨٠ ، قومت بأربعـة وخمسين مليونا من الليرات الفرنسـية ، أى ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى .

(٢) ينتج الملح البحرى بطريقة مماثلة من التبخير بحرارة الشمس ، فى كثير من الأجزاء الجنوبية من أوربا ، وكذلك على شواطىء بلاد الهند .

(٣) يقول استاونتون ، متحدثا عن النهر الذى يجـرى بجانب هانج تشيوفو : « ان الأودية الممتدة على طول النهر ، مزروعة بقصب السكر بوجه خاص ، وقد أوشك آنئذ على النضج ، وبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام » . مج ٢ ص ٤٦٠ .

(٤) يعادل هذا المبلغ ٨٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى من عملتنا ، كما تبلغ الحصيلة ١١٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى ، وهو مقدار علمتنا ايرادات ومصروفات بلادنا الانجليزية ، فى الأزمنة الحديثة ، أن نعده عديم الشأن أو يكاد .

● هوامش الفصل السبعين

(١) لم نعثر على اسم يماثل لفظة تابن زو الواردة فى نصنا أو تام ين جوى فى النسخ اللاتينية ، على مسافة رحيل يوم واحد فى اتجاه جنوبى من هانج تشيفو ، كما أنها لا يمكن فى ظل تلك الظروف أن تكون مكانا يزيد أهمية عن مدن الدرجة الثانية • غير أن الأستاذ ماجالهانز (ص ١٠) يؤكد بغير تردد بأن المقصـــود منـــه هو تاى ينج فو بـولاية نان كنج أو كيانج نان ، ولكن مهما يبلغ الاتفاق فى الصوت من قوة جارفة ، فان موقع المدينة الأخيرة الى الشمال الغربى من هانج تشيو يشـكل صعوبة عويصة ، لا يمكن حلها الا بطريقة واحدة ، هى افتراض أن كلمات مؤلفنا لقيت بعض العبث ، وأن أماكن رأى من الملائم أن يضـــعها فى حسبانه وملاحظته ، وان وقعت خارج الطريق المباشر ، قد دخلت قسرا على يـــد مترجميه فى خط خطة السير ، التى لا يعترف المؤلف قط بتمسكه بها • وسيتضح أن هذه الملحوظة تنطبق بدرجة معادلة على المدينة التى يجرى الحديث عنها فى الفصل التالى •

● هوامش الفصل الحادى والسبعين

(١) لا شك أن اسم أوجويو أو أوجيو ، الذى ورد أوجوى فى الخلاصات الايطالية ، ولكنه حذف فى طبعة بال ، ذو قربى واضحة باسم هوتشيو على شاطىء بحيرة تاى ، التى تقع غير بعيد من هانج تشيو ، ولكنها شأن تاى ينج تقع فى اتجاه مضاد لاتجاه الجنوب الشرقى ، على ما هو معبر عنه فى النص . (ويسمى النص الباريسى اللاتينى المدينة أون جوى) .

(٢) لما كانت هوتشيو والأماكن المذكورة بعدها محاطة بمنطقة منخفضة ، وواقعة فى مناخ دافىء ، فان من المعقول الظن بأن الخيزران يوجد هناك فى وفرة واكتمال ، وتبعا لهذا يقول دوهالد : « ان ولاية تشيه كيانج بها من ذلك (الخيزران) أكثر من أية ولاية أخرى . اذ بها منه غابات كاملة » .. مج ١ ص ١٧٤ .

هوامش الفصل الثاني والسبعين

(١) ان جن جوى ، التى تكتب فى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين تشيو جوى ، يبدو أنهـــا هى مدينة تشوكى الواردة فى خريطة دوهالد ، وهى مدينة من الدرجة الثالثة • (وهى فى النسخة الباريسية اللاتينية كيانسيام) •

(٢) نجد فى يوميات الرحالة العصريين ، فضلا عن كتابات أعضاء الارساليات التبشيرية ، ملاحظـات متكررة حول ندرة الأغنام • ووفرة الخنازير بهذا الجزء من بلاد الصين •

(٣) ان كون المقصود من هذه زن جيان التى هى فى الخلاصة الايطالية المبكرة ايان جيارى ، وفى اللاتينية المبكرة كيانجى ، هو مدينة ين نشيو (المسماة كذلك نيان تشيو) ، أمر لا يكاد يرقى اليه أدنى شك ، ذلك أن الأسماء التى تقترب الى حد المشابهة بالتحريفات العادية كمقطع تشيو أوجيو يمكن أن يتوقع منها أن تســمح بذلك • أما فيما يتعلق بالظروف المحلية فلا بد من التسليم أن المدينة الحديثة ليست مبنية على تل ، وانما هى قائمة عند سفح جبال مرتفعة ، وبالضبط عند ملتقى (كثيرا ما يسمى أثناء الصعود مع الأنهار نحو المنبع بالتفرع) نهرين يؤلفان نهر تسيين تانج كيانج •

(٤) وهذا اسم جيبيه زا أو كما هو وارد فى النسخ الأخرى ان جيو وكوجوى ، يتعلق بوضوح بمدينة كيوتشيو ، وهى الواقعة فعــلا عند الطرف الجنوبى الغربى من ولاية تشيه كيانج على حدود نيابة ملك مميزة ، وهى على الطريق العادى ، ولعله الوحيد ، الى ولايتى فوكيين وكوانـــج تونـــج •

● هوامش الفصل الثالث والسبعين

(١) يبدو أن « كون تشا » أو كون كا فى النطق الطليانى ، وهو كون تشاى فى النسخة اللاتينية المبكرة ونونزا فى الخلاصة الايطالية اسم نيابة مملكة ، كانت ولايات فوكيين وكيانج سى وكوانج تونج ، ولكن يدير ولايتى تشيه كيانج وفوكيين ، فى الوقت الحاضر ، نائب ملك واحد (تسونج تو Tsong-tu) ، مثلما أن كوانج تونـج وكيانج سى يحكمهما نائب ملك آخر .

(٢) ونوجيـو عنـد مؤلفنـا (وهى فوتشيو فى النص اللاتينى الباريسى) هى مدينة فوتشيو فو عاصمة ولاية فوكيين . وهى انما نذكر هنا عرضا ، وليس بوصفها واقعة فى اتجاه طريقه ، على أنه يبدو أنها هى المدينة التى سيرد ذكرها فيما بعد فى الفصل السادس والسبعين .

(٣) وهذه التلال ، أو بعبارة أصح ، الجبال تؤلف السلسلة التى تفصل ولاية تشيه كيانج عن ولايتى كيانج سى وفوكيين . ويمكن اعتبار المسافة الفاصلة بين كيوتشيو وبين أول مدينة لها شأنها فى الجانب الجنوبى الغربى من الجبال رحلة ستة أيام .

(٤) يقول ده جنى متحدثا عن الخلنجان فى البيان الذى أورده عن السلع المصدرة من الصين : « انه الجذر ذو العقد لنبات ينمو حتى يقارب طوله قدمين وتماثل أوراق الآس (وهو نبات عطرى) » مج ٣ ص ٢٥٤ .

(٥) ان صح ظنى (وهو ما سيجد ما يؤيده كلما مضينا فى الكتاب) من أن مواضع مذكرات مؤلفنا الأصيلة ، قد تغير ترتيبها فى هذه النقطة ، فانه سيعلل حالة سلعة الشاى ، وهى نتاج هذا الجزء من الصين ، وهى السلعة التى ذكرها بالتخصيص الرحـالة العـرب فى القـرن التاسع ، حيث حذفت هنا فى تعداد العقاقير .

(٦) لا شك أن المقصود بهذه الصبغة الصفراء ، هو الكركم . يقول ده جنى : « يسمى الكركم ، بالصينية تشاكيانج (Cha-kiang) وهو يجلب من كوانج تونج : وهذا الجذر جيـد فى الصـباغة : وأطوله أجوده » . مج ٣ ص ٢٦٤ . ولكنه لا يشيع استخدامه فى الطبخ ببـلاد الصين ان كان يستخدم على الاطلاق ، بينما هو عند سكان الملايو وغيرهم من شعوب الجزر الشرقية ، يدخل فى تركيب كل طبق ، وذلك فى حين أنه يستخدم عندهم مادة صباغة بدرجة سواء .

● هوامش الفصل الرابع والسبعين

(١) تأسيسا على موقعها بالنسبة للطريق المار عبر الجبال ، فضلا عن ظروف أخرى ، يبدو أن هناك أسبابا تدفعنا الى موافقة الأستاذ مارتينى فى ان هذه هى مدينة كيين ننج فو بولاية فوكيين • وينبغى أن يلاحظ فى الوقت نفسه أن اسم كونى لنج فو هو اسم عاصمة ولاية كوانج سى ، ولكن هذه تقع على مسافة كبيرة البعد من الأماكن سالفة الذكر ، كما أنها منقطعة الصلة بها تماما انقطاعا لا يمكن اعتبار أنها هى المدينة المقصودة هنا ، الا على افتراض ، أن البيانات المحيطة بالأجزاء المتوسطة حذفت •

(٢) لا تعبر كلمات النص عن أكثر من أن القطن يتلقى التلوين وهو خيوط ، وليس وهو منسوج ، وهو أمر لا يكاد يستحق الملاحظة على أنه ميزة خاصة ، بيد أن قطن نانكين المعروف أنه ـ فى حالته الخام ـ يكون محتفظا بنفس لونه الخاص أثنـاء صنعه ، ربما كان هو القطن المراد وصفه •

(٣) يبدو أن البيان الخاص لهذا النوع غير العادى من الدجاج كان فى رأى بعض المترجمين الأوائل بعيد التصديق جدا ، ومع هذا فان دوهالد يصف هذه السلالة نفسها أو سلالة أخرى تتصف بما يعادل هذا التفرد العجيب •

● هوامش الفصل الخامس والسبعين

(١) مهما ظننا أن اســـم أون جوين ، أو « أوجيو » أو U. Guen (كما يبدو فى خلاصة البندقية المبكرة) يتفق مع أى اسم حديث ، فمن الواضح من الظروف الملابسة أنها لابد أن تكون احدى مدن الدرجة الثانية أو الثالثة ، الواقعة داخل الزمام الادارى الفوجوى أو فوتشيو فو ، كما أنها تقع الى جوار هذه العاصمة •

(٢) ويسمى السكر بهذه الحالة الطرية والناقصة بسكر الجاجرى Jaggri فى معظم أرجاء جزر الهند الشرقية •

(١) وكان اسم بابل فى العصور الوسطى هو الاســم الذى يطلق على القاهرة الحالية بمصر) •

(٤) من المعلوم أن المواد القلوية تستخدم فى عملية تحويل السكر بأنواعه الى حبيبات ، جاء فى قاموس الفنون والعلوم Dict. of Arts and Cciences : « عندما يقترب هذا الغليان من نهايته ، يلقون فى العصير مادة مرشحة قوية مكونة من رماد الخشب ، معها بعض الجير الحى » •

● هوامش الفصل السادس والسبعين

(١) لا يمكن الشك فى أن المقصــــود هنا من كلمة كان جيو هو كوانج تشيو ، وهى المدينة التى يطلق عليها الأوربيون خطأ اسم كانتون ، وهو تحـريف لكلمــــة كوانج تونج ، التى تنتسب الى الولاية التى هى عاصمة لها • واضح أن كان جيو التى يذكرها مؤلفنا هى كان سو التى وصفها الرحــالة العرب ، وأثبتت الأحداث التاريخيـــة أن الأخيرة هى كوانج تشيو أو كانتون •

● هوامش الفصل السابع والسبعين

(١) تنمو هذه الشجرة ، وهي «لوراس كامفورا Laurus Camphora » أى الغار في الصين واليابان ، حتى يبلغ حجما ضخما ، ويسميها الغـــار الكافورى راموسيوخطأ شجيرة « Arboscello » ويتحدث استاونتون عن « الأوراق اللماعة لشجرة الكافور الغليظة والممتدة » ـ وهى النوع الوحيد من فصيلة الغار الذى ينمو بالصين ، وهو هناك شجرة خشب ضخمة وثمينة . وينبغى ألا يخلط بينها وبين شجرة الكافور التى تنمو ببورنيو وسومطرة ، التى تشتهر أيضا بضخامة حجمها ، ولكنها من فصيلة مختلفة اختلافا تماما عن فصيلة اللورا Laurus أو الغار .

(٢) المظنون على الجملة أن مرفأ زاى تون هذا الشهير ، الذى أسمته طبعة بال زارتن أو زايذن فى اللاتينية الأقدم ، وجايتونى فى الخلاصة ، هو المكان المسمى تسيوثن تشيو عنـد الصينيين (وهو ســوين تشيو بخريطة دوهالد) . ومع هذا فيمكن الظن أن الوصف انما ينطبق بدقة لا تقل عن هذه على مرفأ هياميوثن الذى يكاد يلاصقها ، والمسمى اموى عند الملاحين الفرنسيين وآموى عند الملاحين الانجليز ، وهو الذى ظل حتى القرن الماضى ، يقتسم مع كانتون التجارة الخارجيـــة للامبراطـورية الى حـــد كبير .

(٣) ربما بدا هذا التأكيد بالفعل عجيبا وغير محتمل ، ولابـــد أنه يرجع الى خطأ ، لعله وقع فى ترتيب المواد أو ترجمة الفقرة ، اذ لا يمكن الظن أن سكان هذا الجزء من الصين العامر بالناس والتحضر ، كانـــوا آنذاك ، أو فى أية فترة تاريخية ممن اعتادوا على وخز أي وشم جلودهم . وربما كان واقع الأمر أن مذكرة حول هذا الموضوع (الأمر الذى لدينـــا أسس قوية للظن به فى حالات أخرى) تتصل بوصف اما لجزر الملايو أو جزيرة آفا ، حيث تنتشر تلك العادة ، قد أدخلت فى موضع خاطىء ، أو لعل الأمر ـ كما أميل أكثر الى الظن ـ أن ما فهم خطأ أنه وشم للوجوه ، كان يقصد به مؤلفنا فن رسم الصور الملونة للوجوه ، وهو الفن الذى يحذقه الصينيون أبلغ الحذق ، بحيث انه قل من الغرباء من زار كانتون بغير أن يكلف صينيا برسم شبهه (صــورته) ، أو كما يعبرون بدارج لغة المصانع ، « عمل تصويرة وجه جميلة » .

(٤) لابد أن الأهالى جروا مؤلفنا الى الوقوع فى هذا الخطأ الجغرافى. ويبدو أنه ينتشر بجميع أرجاء الشرق ميل الى الاعتقاد ، والى اقناع الغير ، أن عدة أنهار تنبع من منبع واحد مشترك (هو فى العادة بحيرة) ، ثم تتفرع بعد ذلك فى مسيرها نحو البحر ، مهما يبلغ من مناقضة ذلك لعمليات الطبيعة المعروفة . فأما أنه ليس هناك مشرع (منبع) مشترك من هذا القبيل بين نهر تسيين تانج ، الذى تقع عليه هانج تشيو أوكن ساى ، وبين نهر تشانج ، الذى يصب مياهه عند أموى ، شئ يتجلى من نظرة واحدة فى خرائط بلاد الصين ، ولكن سيتجلى فى الوقت نفسه ، أن منابع نهر تشانج ، ومنابع النهر الكبير الذى يمر أمام تشيو ، عاصمة الولاية ، انما هى فى نفس الجبال ، وقد يمكن أن يقال انها مختلطة متشابكة . وربما أمكن أيضا ملاحظة أن الفرع الشمالى من النهر الأخير ، الذى يمر بمدينة كيين ننج ، لا ينفصل الا بسلسلة جبلية أخرى عن منابع نهر تسيين تانج ، أو نهر هانج تشيو ، كما أن هذا النوع من ارتباط الأطراف المتطرفة ، بتدخل طرف متوسط بينهما ، ربما أدى الى نشوء الفكرة الخاطئة التى تبناها مؤلفنا ، فى موضوع ليس من المحتمل أن تكون له به معرفة واقعية .

(٥) تقع مدينة تنج تشيو ، التى تتقابل واسم تن جوى أو تن جيو ، قرب التخم الغربى لولاية فوكيين ، بين الجبال التى ينبع منها نهر تشانج ، الوارد فى الهامشة السابقة ، على أنها تقع على نهر يصب مياهه قرب مدينة تشاو تشيو ، بولاية كوانج تونج . ومع هذا فانها ليست فى الوقت الحاضر مركزا لمصانع البورسلين التى تواصل عملها بصفة رئيسية عند مدينة كنج تل تشنج ، بولاية كيانج سى المجاورة .

(٦) يمكن الظن بأن الخرائط البحرية التى يدور عنها الحديث هنا ، كانت بصفة رئيسية بأيدى ربابنة عرب ، كانوا يمخرون البحر بسفنهم من الخليج الفارسى الى الهند والصين ، والذين لعلهم أضافوا نتائج خبرتهم الى المعلومات المستقاة من العمل الجغرافى لبطليموس .

اقــرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رســـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عــام	ت · و · فريمــان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـــامضة	ليســتردبل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـــر الـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمــوعات النقـــود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشـــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديــلان تومــاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جـون لويس
الرواية الحـــديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمــود طــه	انــور المعـــداوى
القــوة النفســية للاهرام	بيل شول وادنبيت
فـن الترجمـــة	د · صــفاء خـلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلــو
ســـتندال	فيكتور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د · فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د · روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د · جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د · رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج · دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د· جوهان دروشنر
حــرب الفضـاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د · السـيد عليـوة
الميكروكمبيــوتر	د · مصطفى عنـانى
مختارات من الادب الياباني	صـبرى الفضــل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة	جابرييــل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة السـيناريو للسينما	دوايت سـوين
الزمن وقيـاسه	زافيلسـكى ف · س
اجهـزة تكييف الهــواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجــربة اليـــونانية	س · م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسـلامية	د· عاصم محمد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د · سمبسـون ونورمان د· اندرسون
الشـارع المصرى والفـكر	د· أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد · س · هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جون بوركهــارت
التــذوق السـينمائى	الان كاسبيار
التخطيط السـياحى	سامى عبد المعطى
البــذور الكونيـة	فريد هــويل شاندرا يكراماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـروين والايـدز	روى روبرتسـون
صـور افريقيـة	دوركاس مالكينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر. بورر وملتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح فى الفن التشكيلى المعاصر	د. صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (ج)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب . كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر . ج . فوريس
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشنيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	أبو القاسم الفردوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد/ مونى براج وآخرون
دليل تنظيم المتـاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر واخرون
جماليـات فن الاخراج	زيجمونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بـول كولز
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفريد ج ٠ بتـلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتـر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى الف عام	بينـارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شـيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتـو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتـار	د٠ ابرار كريم الله

ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ	هـ٠ج٠ ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفـل ٢ جـ	أرنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الكون ٠ ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	جى كارفيـــل
تحول السلطة	ألفين توفلر
فن المايم والبانتوميم	توماس ليبهارت
السيناريو فى السينما الفرنسية	اعداد كريستيان سالين
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
رحلة جوزيف بتس	الحاج يوسف
الفيلم التسجيلى	اعداد محمود سامى عطا الله
بين تولستوى ودوستويفسكى	جورج ستاينر
المرأة الفرعونية	كريستيان دى روش
أنواع الفيلم الأمريكى	ستانلى جيه سولومون
فن الفرجه على الأفلام	جوزيف ٠ م ٠ بوجز

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/١٠٥٤١

ISBN — 977 — 01 — 4614 — 5

فى عام ١٢٧١ خرج ماركوبولو، وكان آنذاك فى السابعة عشر من عمره، مع أبيه وعمه فى رحلة عجيبة انطلقت بهم من مدينة البندقية فى ايطاليا وحملتهم عبر قفار وجبال وسهول آسيا الشاسعة حتى أرض الصين فى عصر الامبراطور المغولى العظيم قبلاى خان الذى احتفى بهم وضمهم إلى حاشيته فعاشوا هناك سنوات طويلة...

وقد دون ماركوبولو اخبار رحلته هذه فى ذلك الكتاب الذى يعد أشهر وأهم كتب الرحلات قاطبة، فهو سجل فى نادر لحياة الكثير من الشعوب والحضارات القديمة التى إندثرت اليوم ولم تبق منها سوى تلك الصور التى التقطها ماركوبولو بقلمه عنها، فهو على طرافته مرجع علمى عظيم عن تاريخ آسيا والصين فى العصور الوسطى..

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية مترجم قدير هو الأستاذ عبدالعزيز توفيق جويد ضمن إسهاماته المتعددة فى إثراء المكتبة العربية بالنفيس والهام من الكتب..

وفى الجزء الثانى من الرحلة نتنقل مع رحالتنا عبر ولاية كاثاى وولاية انجوت وولاية شن دن فو وولاية التبت وولاية كاين دو وولاية كارايان وولاية كارازان ومملكة مبين وولاية بانجالا وولاية وولاية تان غن وولاية تشان غيان فو.

مطابع الهيئة المصرية العا...